المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

المآخذ العقدية على كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي

- ربع المنجيات -

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة

إعداد الطالبة
آمال بنت عبد الرحمن بن أحمد باحنشل

إشراف فضيلة الشيخ
أ.د/ سالم بن محمد القرني

١٤٢٨-١٤٢٩ هـ


بسم الله الرحمن الرحيم


المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنـــا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يـــوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢]
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠-٧١] .

أما بعد : فإن الرسالة التي جاء بها النبي محمد — صلى الله عليه وسلم – قامت على أصلين عظيمين هما : تحقيق التوحيـــد والعقيدة الصحيحة ، وتجنب الأهـــواء والبدع وما تؤول إليه من الشرك والكفر ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] .

وكل دعوة لا ترتكز في منهاجها وأهدافها وغاياتها على هذين الأصلين فهي مخالفة لنهج المرسلين ولا تؤتي ثمارها .

وقد تضمن القرآن في كثير من الآيات تقرير العقيدة الصحيحة وبيان عقائد أهل الأهواء وبيان فسادهم وكشف شبهاتهم الباطلة .

وكذلك اشتملت السنة على كثير من أقوال النبي – صلى الله عليه وسلم – وأفعاله وتقريراته وإخباره على سبيل التحذير بافتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة .

ولما ظهرت الأهواء في آخر عهد الصحابة – رضي الله عنهم – قاموا بالدفاع عن السنة وكشف الباطل وتحصين الأمة من الدعاة إليه .

وسار على هذا المنهج التابعون وتابعوهم ومن تبعهم ، حيث كانت عنايتهم بهذا الجانب كبيرة، فكلما كثرت البدع والأهواء والفرق زادت عناية السلف بردّها ، وتنوعت أساليبهم وتعددت مناهجهم واتخذوا كل ما استطاعوا من الوسائل والأساليب الشرعية في الرد والبيان وحماية الدين .

وهذه الفرق على اختلافها وتباينها يجمعها : الاستبداد بالرأي والهوى في مقابلة النص ، وكل منهم يدعي لنفسه النجاة دون غيره .

ولا بد لنا من تمييز الحق من الباطل والصادق من المدّعي ، وذلك بعرض أقوالهم وأعمالهم واعتقاداتهم على " ما أنا عليه اليوم وأصحابي " الذي هو الميزان والطريق الذي يُوصل إلى معرفة الكتاب والسنة المعرفة الصحيحة المطابقة لمراد الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم – .

فالصحابة — رضوان الله عليهم– ومن سار على نهجهم يعتمدون الكتاب والسنة ، عنهما يصدرون ، وإليهما يتحاكمون ، وبهما يحتجون ، لم يعرضوا عن نصوص الوحي ، ولا عارضوها ، ولم يعطّلوا أحكامه ولا حرّفوها ، ولا يقبلون من أحد – وإن علت في النفوس منزلته – مقالة في الدين حتى تكون موافقة للكتاب والسنة غير مخالفة لهما .

وعليه فإن التصدي للبدع والأهواء من مطالب الدين وغايته ، وأعلى درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن غايات الدعوة ومقاصدها .

والناظر لأحوال الأمة الإسلامية اليوم يدرك خطورة الأمر ، فقد تداعت على العقيدة الصحيحة أمم الكفر والشرك من خارجها ، وطوائف البدع والأهواء من داخلها .

وإن إقبال القرّاء والشباب والمثقفين وطلاب العلم على القراءة واتساع نطاق الأنشطة الإسلامية على مختلف الأصعدة ، صاحَبَه شيء من عدم التمييز بين الصالح وبين غير الصالح ، مما يؤكد ضرورة تنقية مصادر التلقي والمعرفة من الشوائب .

ومن هذا المنطلق شرعت مستعينة بالله تعالى في رسالتي حول :

المآخذ العقدية على كتاب إحياء علوم الدين للغزالي

– ربع المنجيات –

وذلك لأسباب :

الأول : رغبتي في الاستفادة من معين السلف الصالح ، ومنهجهم في الرد على المخالف ، مـــع إنصافهم وانتصارهم للحق .

الثاني : تلبية لتوجيه ومقترح أحد الأساتذة الأفاضل جزاه الله خيـــرًا ، ولما للكتاب من تـــأثير على كثير من الناس ، ولمنـــزلة الغزالي العلمية .

الثالث : نشاط المتصوفة في الوسط الإسلامي وحرصهم على نشر معتقداهم،واعتبار فريق منهم كتاب إحياء علوم الدين عمدة في الأخذ منه دون تمحيص له مع ما فيه من بعض الأخطاء.

الرابع : انتصارًا للحق ، وجمع كلمة المسلمين على كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليـــه وسلم – ، وفهم الصحابة – رضوان الله عليهم – للمصدرين الأساسين في التشريع .

وقد جعلت البحث في مقدمة وتمهيد وفصول :

المقدمة ... عرضت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطة البحث

التمهيد .. التعريف بالغزالي وكتابه إحياء علوم الدين وذلك في أربعة مباحث :

المبحث الأول :

حياة الغزالي ، وذلك في مطلبين :

– المطلب الأول : عصر أبي حامد الغزالي

أولاً : الحالة السياسية

ثانيًا : الحالة العلمية والفكرية

– المطلب الثاني : نشأته وآثاره العلمية

أولاً : اسمه ونسبه ومولده

ثانيًا : نشأته ومسيرته العلمية

ثالثًا : شيوخه

رابعًا : تلاميذه

خامسًا : آثاره العلمية ومؤلفاته

المبحث الثاني :

آراء العلماء في الغزالي وكتابه إحياء علوم الدين ، وذلك في ثلاثة مطالب :

- المطلب الأول : التعريف بكتاب إحياء علوم الدين
- المطلب الثاني : موقف العلماء من الغزالي وكتابه إحياء علوم الدين

أولاً : أقوال المادحين للغزالي وكتابه إحياء علوم الدين

ثانيًا : أقوال الناقدين للغزالي وكتابه إحياء علوم الدين

ثالثًا : أقوال المنصفين للغزالي وكتابه إحياء علوم الدين

- المطلب الثالث : مصادر الغزالي في إحياء علوم الدين وتقويم هذه المصادر

المبحث الثالث :

تزكية النفس ، وذلك في ثلاثة مطالب :

- المطلب الأول : تزكية النفس عند السلف

أولاً : مفهوم تزكية النفس

ثانيًا : منهج السلف في تلقي السلوك والأخلاق

- المطلب الثاني : تزكية النفس عند الصوفية عامة وموقف السلف منهم
- المطلب الثالث : تزكية النفس عند الغزالي خاصة وموقف السلف منه

المبحث الرابع :

المآخذ العقدية العامة على كتاب إحياء علوم الدين ، وذلك في مطلبين :

- المطلب الأول : الكشف
- المطلب الثاني : قوله " ليس في الإمكان أبدع مما كان "

الفصل الأول :

المآخذ العقدية على كتاب التوبة وذلك في مبحثين :

- المبحث الأول : مفهوم التوبة عند السلف
- المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب التوبة والرد عليها على ضوء عقيدة السلف

الفصل الثاني :

المآخذ العقدية على كتاب الصبر والشكر وذلك في مبحثين :

- المبحث الأول : مفهوم الصبر والشكر عند السلف
- المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب الصبر والشكر والرد عليها على ضوء عقيدة السلف

الفصل الثالث :

المآخذ العقدية على كتاب الخوف والرجاء وذلك في مبحثين :

- المبحث الأول : مفهوم الخوف والرجاء عند السلف
- المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب الخوف والرجاء والرد عليها على ضوء عقيدة السلف

الفصل الرابع :

المآخذ العقدية على كتاب الفقر والزهد وذلك في مبحثين :

- المبحث الأول : مفهوم الفقر والزهد عند السلف
- المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب الفقر والزهد والرد عليها على ضوء عقيدة السلف

الفصل الخامس :

المآخذ العقدية على كتاب التوحيد والتوكل وذلك في مبحثين :

- المبحث الأول : مفهوم التوحيد والتوكل عند السلف
- المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب التوحيد والتوكل والرد عليها على ضوء عقيدة السلف

الفصل السادس :

المآخذ العقدية على كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا وذلك في مبحثين :

- المبحث الأول : مفهوم المحبة والشوق والأنس والرضا عند السلف
- المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب المحبة ... والرضا والرد عليها على ضوء عقيدة السلف

الفصل السابع :

المآخذ العقدية على كتاب النية والإخلاص والصدق وذلك في مبحثين :

- المبحث الأول : مفهوم النية والإخلاص والصدق عند السلف
- المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب النية والإخلاص والصدق

الفصل الثامن :

المآخذ العقدية على كتاب المراقبة والمحاسبة وكتاب التفكر وفيه أربعة مباحث :

- المبحث الأول : مفهوم المراقبة والمحاسبة عند السلف
- المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب المراقبة والمحاسبة
- المبحث الثالث : مفهوم التفكر عند السلف
- المبحث الرابع : المآخذ العقدية على كتاب التفكر

الفصل التاسع :

المآخذ العقدية على كتاب ذكر الموت وما بعده وذلك في مبحثين :

- المبحث الأول : مفهوم ذكر الموت عند السلف
- المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب ذكر الموت والرد عليها على ضوء عقيدة السلف

الخاتمة ... وفيها أهم النتائج .

الفهارس العامة .

بعض الضوابط التي التزمتها في البحث :

١- التزمت المنهج التحليلي النقدي .

٢- التزمت الرسم العثماني في كتابة الآيات القرآنية ، وأتبعت الآية اسم السورة ورقمها .

٣- إذا كان الحديث في أحد الصحيحين اكتفيت بتخريجه منه ، أما إذا كان في غير الصحيحين فقد أتوسع في تخريجه ، وأذكر الحكم عليه ما أمكن من أقوال العلماء ، وأما حكم الشيخ الألباني فقد اعتمدت المطبوع على كتب السنن الأربعة ببيت الأفكار الدولية ، ١٤٢٠هـ .

٤- ذيلت البحث بفهارس توضيحية ، وهي على النحو التالي :

أولاً : فهرس الآيات القرآنية .

ثانيًا : فهرس الأحاديث والآثار .

ثالثًا : فهرس الأعلام المترجم لهم .

رابعًا : فهرس الفرق والطوائف .

خامسًا : فهرس البلدان .

سادسًا : فهرس المصادر والمراجع .

سابعًا : فهرس الموضوعات .

ثامنًا : اعتمدت في هذه الدراسة لكتاب إحياء علوم الدين على النسخة المطبوعة بمطبعة دار صادر ، بيروت ، عام ٢٠٠٤ ، وتقع في خمسة مجلدات وبهامشه المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار ، للحافظ العراقي – رحمه الله – .

وفي الختام أحمد الله تعالى ، وهو للحمد أهل ، أن وفقني لإنجاز هذا العمل ، على ما فيه من ضعف البشر ، وقصر النظر ؛ فما كان فيه من صواب وتسديد فهو محض فضله تعالى ومنته عليّ ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي وأستغفر الله .

وقد قيل قديمًا : لا يكتب الإنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده : لو غيّرت هذا لكان أحسن ، ولو زيد هذا لكان يستحسن ، ولو تُرك هذا لكان أفضل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاءِ النقص على جملة البشر .

شكر وعرفان

من شكر الله تعالى إسداء الشكر لمن يستحقه ، وفي هذه اللحظة أتقدم بالشكر الجزيل لفضيلة المشرف على هذا البحث **أ.د. سالم بن محمد القرني** – وفقه الله – ، الذي كان طيلة إعداد هذا البحث موجهًا ومرشدًا ومعلمًا ، وكان لآرائه وتوجيهاته أثر كبير في تذليل الصعوبات التي واجهتني ، وقد أفدت من علمه وحسن خلقه ، وكريم تعامله معي ، وصبره عليّ ، فله جزيل الشكر ، والدعاء بطول العمر وحسن العمل ، وجزاه الله عني خير الجزاء .

كما أتقدم بالشكر الجزيل للشيخين الكريمين والأستاذين الفاضلين عضوي المناقشة :

١- أ.د. يحيى ربيع **٢- د. عبدالله القرني**

على تفضلهما بقبول مناقشة الرسالة ، والتكرم بتقويمها وإبداء ملحوظاتهما ، فجزاهما الله خير الجزاء .

كما أشكر جامعة أم القرى ممثلة في كلية الدعوة وأصول الدين ، وفضيلة عميد الكلية ووكيلها ، ورئيس قسم العقيدة .

كما أشكر كل من أفادني وأرشدني إلى ما فيه خدمة هذا البحث ، فجزاهم الله خير الجزاء .

وصلى الله على نبينا محمد

وعلى آلـه وصحبه وسلم ،،،

التمهيد

التعريف بالغزالي
وكتابه إحياء علوم الدين

المبحث الأول : حياة الغزالي.

المطلب الأول : عصر أبي حامد الغزالي.

المطلب الثاني : نشأته وآثاره العلمية.

المبحث الأول

حيـــــــاة الغـــــــزالي

المطلب الأول : عصر أبو حامد الغزالي

أولاً : الحالة السياسية

عاش الإمام الغزالي في منتصف القرن الخامس الهجـــري ، وكـــان حـــافلاً بـــالتطورات الاجتماعية والثقافية والأحداث السياسية .

وهذه الفترة اتسم فيها خلفاء العصر العباسي بضعفهم وتقلص نفوذهم ، حيـــث وقعـــوا تحت سيطرة الوزراء والسلاطين السلاجقة ، وانقسمت دولة الخلافة العباســـية إلى دويـــلات متعددة متناحرة فيما بينها ، حيث كثرت الفتن والاضطرابات السياسية .

فكان القرن الخامس الهجري أشبه بمحيط يموج بشتى تيارات الأفكار والعلـــوم والمعـــارف والفلسفات والعقائد والمذاهب .

وكان للسلاجقة دور هام في مجريات الأحداث في التاريخ الإسلامي ، ففي فتـــرة قصـــيرة استطاعوا أن يؤسسوا قوة إسلامية كبرى تحظى بتأيـــيد الخلافة العباسية ، وذلـــك في عهـــد الخليفة العباسي القائم بأمر الله [1] ، تحت قيادة طغرل بـــك [2] الســـلطان الســـلجوقي عـــام ٤٢٩هـــ.

وشمل حكمهم إيران والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى ، فأثَّروا تأثيرًا واضحًا في مختلف أنواع النشاط البشري في تلك البلاد المترامية الأطراف .

---

(١) القائم بأمر الله : هو أمير المؤمنين أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتـــدر بـــالله جعفـــر بن المعتضد العباسي البغدادي ، ولد سنة ٣٩١هـــ وبويع بالخلافة عام ٤٢٢هـــ ، وكانت مدة خلافته ٤٥ عاماً ، عـــاش ٧٦ سنة ، بويع بعده لابن ابنه المقتدي بالله ، وتوفي سنة ٤٦٧هـــ. انظر : سير أعلام النبلاء : (٣٠٧/١٨) .

(٢) طغرل بك : هو مؤسس الدولة السلجوقية محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق ، الملقب ركن الدين أبو طالـــب ، استولى على الري ونيسابور ، ثم استولى على العراق سنة ٤٤٧هـــ ، وكان معروفًا بالخير والصلاح ، عـــاش ٧٠ ســـنة، ومات سنة ٤٥٥هـــ . انظر : سير أعلام النبلاء : (١٠٧/١٨) ، ووفيات الأعيان : (٦٣/٥).

ومما ساعد على تقوية نفوذ السلاجقة قضاؤهم على الدولة البويهية[١] المتمسكين بمذهب الشيعة[٢] ، وقد امتد حكمها في العراق منذ عام ٣٣٤هـ-٤٤٧هـ ، وكان آخر حكام آل بويه أبو نصر[٣] ، وأيضاً القضاء على فتنة البساسيري[٤] ، والذي كان مواليًا للمستنصر بالله[٥] الفاطمي في مصر ، ومعاديًا للخليفة العباسي القائم بأمر الله[٦].

(١) البويهيون : نسبة إلى بويه بن بهرام بن يزدجرد ، من ملوك آل ساسان ، وكان أبوهم أبو شاجع بويه فقيرًا معدمًا من أهل الديلم ، وكانوا يغالون في التشيع ، واستمر حكمهم مئة وثلاثة عشر عامًا تقريبًا ، وكانوا غير حميدي السيرة في الولاية حيث اشتهروا بالظلم والعدوان . انظر : سير أعلام النبلاء : (٢١٢/١٥) .

(٢) الشيعة : هم الذين شايعوا عليًا – رضي الله عنه – على الخصوص . وقالوا بإمامته وخلافته نصًا ووصية ، إما جليًا ، وإما خفيًا واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده . ويقولون أن الإمامة قضية أصولية ، وهي ركن الدين ، لا يجوز للرسل – عليهم الصلاة والسلام – إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامة . وهم خمس فرق : كيسانية ، وزيدية ، وإمامية ، وغلاة ، وإسماعيلية . انظر : الملل والنحل ، للشهرستاني : (١٦٩/١-١٧٠).

(٣) أبو نصر خسروي فيروز آخر حاكم من آل بويه في فارس والعراق . بعد دخول السلطان طغرل بك إلى بغداد حذف اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة وحبس أبو نصر في قلعة سيراوان في الجبال ، ومن هناك إلى قلعة طبرك قرب الري ، مات عام ٤٥٠هـ . انظر : الكامل في التاريخ : (٢١٢/٩) .

(٤) أبو الحارث أرسلان ابن عبدالله البساسيري تركي وقائد حماية بغداد أيام حكم البويهيين الأخير لفارس والعراق . كان وزير القائم بأمر الله ، وكان لنفوذه واستقلاليته ودعمه للمجموعات الشيعية ببغداد أن ولّد استياء لدى الخليفة ، فأرسل إلى السلطان طغرل بك يطلب منه التوجه إلى بغداد مع عساكر لتحريرها من سطوة البساسيري ومؤيديه . وقد اضطر البساسيري للهرب من بغداد ، قتل سنة ٤٥١هـ . انظر : الكامل في التاريخ : (٢١١/٩) ، ووفيات الأعيان : (١٩٢/١-١٩٣) .

(٥) المستنصر بالله العبيدي الفاطمي صاحب مصر أبو تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله علي بن الحاكم بن علي منصور بن عبد العزيز بن المعز العبيدي ، تولى بعد أبيه وله سبع سنين سنة ٤٢٧هـ وامتدت حياته ٧٠سنة ، كان رافضيًا في عقيدته وباطنيًا ، مات سنة ٤٨٧هـ ، وكان سبّ الصحابة فاشيًا في أيامه والسنة غريبة مكتومة . انظر : وفيات الأعيان : (٢٢٩/٥) ، وسير أعلام النبلاء : (١٨٦/١٥) والنجوم الزاهرة : (١/٥) .

(٦) انظر : زبدة التواريخ "أخبار الأمراء والملوك السلجوقية" ، صدر الدين الحسيني ، ص٥٩-٦٣ ، تحقيق : د . محمد نور الدين ، ط١ ، ١٤٠٥ هـ ، دار اقرأ — بيروت ، وتاريخ دولة آل سلجوق ، محمد بن محمد الأصفهاني ، ص١٧-٢٠ ، اختصار : الفتح بن علي البنداري الأصفهاني ، ط٢ ، ١٩٧٨م ، دار الآفاق الجديدة — بيروت .

ولم يتوقف نفوذ السلاجقة عند ذلك بل قاموا بتوحيد أغلب المناطق والدويلات في المشرق الإسلامي تحت إمرة واحدة ، وحققوا كثيرًا من الفتوحات الإسلامية ، وتعدى ذلك إلى أن ألجأ السلطان ألب أرسلان [١] السلجوقي ملك الكرج [٢] في بلاد الروم إلى دفع الجزية ، وكان ذلك في سنة ٤٥٦هـ [٣].

وفي سنة ٤٦٣هـ خرج ملك الروم أرمانوس ديوجين لقتال المسلمين ، فخرج ألب أرسلان لملاقاته فوقع أرمانوس أسيرًا ، وحقق الله النصر للمسلمين ، وتم الاتفاق على شروط قاسية حيث دفع أرمانوس فدية بلغت مليون ونصف من الدنانير ، وإطلاق جميع الأسرى [٤].

وهنَّأ الخليفة العباسي القائم بأمر الله السلطان بكثير من عبارات التأييد والتشجيع ولقّبه بأرفع الألقاب [٥].

وسار على نفس النهج السلطان ملكشاه [٦] ابن ألب أرسلان ، حيث ملك من البلاد ما لم يجتمع لأحد من الملوك ممن تقدمه ولا ممن تأخر، وكان قد قرر مبلغًا من المال يؤديه ملك الروم.

---

(١) هو السلطان الكبير الملك العادل ، عضد الدولة أبو شجاع ، ألب أرسلان محمد بن السلطان جغربيك داوود بن ميكائيل بن سلجوق ، ولد سنة ٤٢٤هـ ، وتولى بعد موت طغرل بك سنة ٤٥٥هـ ، وكانت مدة ملكه تسع سنين وأشهر ، اتسعت دولته وأحبته رعيته ، مات مقتولاً سنة ٤٦٥هـ ، وله أربعون سنة . انظر : الكامل في التاريخ : (٧٣/١٠) ، ووفيات الأعيان : (٦٩/٥) ، وسير أعلام النبلاء : (٤١٤/١٨) .

(٢) الكُرْج : هو جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القَبْق فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس . انظر : معجم البلدان : (٤٤٦/٤) .

(٣) انظر : زبدة التواريخ ، ص (٨٧-٩١) ، وتاريخ دولة آل سلجوق ، ص٣٣ ، والكامل في التاريخ : (٤١/١٠).

(٤) انظر : السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، تامارا تالبوت رايس ، ص٣٩ ، ترجمة : لطفي الخوري ، وإبراهيم الداقوقي ، ١٩٦٨م ، مطبعة الإرشاد – بغداد ، والكامل في التاريخ : (٤٠/١٠-٤١).

(٥) انظر : زبدة التواريخ ، ص١٠٧-١١٥ .

(٦) السلطان الكبير جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان ، تملك بعد أبيه سنة٤٦٥هـ ، بلغ ملكه ما وراء النهر وحدود الصين وبحر الهند ، كان حسن السيرة ، مات سنة٤٨٥هـ ، وله تسع وثلاثين سنة . انظر : سير أعلام النبلاء : (٥٤/١٩) ، ووفيات الأعيان : (٢٨٣/٥) .

وتوجه بنفسه إلى الشام ثم إلى القسطنطينية [١] وحاصرها ، وقرر عليهم ألف ألـف دينـار أحمر ، وسيّر جيشًا إلى دمشق وأخذ أكثر الشام [٢].

واستمرت الدولة السلجوقية في رخاء وأمن وقوة في عهد السلاطين الثلاثة : طغرل بـك (٤٣٣-٤٥٥هـ) ، ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ) ، ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥) ، والوزير نظام الملك [٣]، الذي وَزَرَ لكل من السلطان ألب أرسلان ، وملكشاه ، حيث قتل نظام الملك علـى يد غلام ديلمي باطني من رمضان عام ٤٨٥هـ ، وبعد مقتل نظام الملك بخمسة وثلاثين يومًـا مات السلطان ملكشاه .

وقد انتشر في عهدهم الأمن وعمّ الرخاء والعدل ، ذلك أن سيرهم كانت حسنة واهتمـوا بالرعية [٤].

وبموت نظام الملك وملكشاه انتهى العصر الذهبي للدولة السلجوقية ، وبـدأت بالضـعف والانهيار ، وأصبح السلاطين السلاجقة يقتـتلون فيما بينهم طلبًا للسلطة ، منشغلين عن مصالح الرعية والدولة بطلب الملذات فانقسمت الدولة وتفرقت .

وكان لاتساع مجال الحروب الصليبية دور في إضعاف دولة السـلاجقة ، حيـث سـيطر الصليبيون على أراض جديدة ، وسقط بيت المقدس في أيديهم سـنة ٤٩٢هـ . ولم يقـم السلاجقة بأي عمل إيجابي لوقف الزحـف الصليـبي ، لانشـغالهم آنـذاك في منازعـاتهم وخصوماتهم .

---

(١) القسطنطينية : كانت رومية دار ملك الروم ، واسمها اسطنبول ، عمّرها ملك منهم يقال له قسطنطين فسميت باسمه. بينها وبين عمورية ستون ميلاً . انظر : معجم البلدان : (٣٤٧/٤).

(٢) انظر : زبدة التواريخ ، ص١٤٧-١٤٩، وسلاجقة إيران والعراق ، عبد النعيم محمد حسين ، ص٦٦-٦٧ ، الطبعـة الثانية ، ١٣٨٠هـ ، مكتبة النهضة المصرية — القاهرة .

(٣) نظام الملك : الوزير الكبير نظام الملك قوام الدين أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي ، كان متـدينًا محبًـا للفقهاء والقراء ، أنشأ مدارس كبرى في بغداد ونيسابور وهراة وأصبهان ، وكان وزيرًا للسلطان ألب أرسـلان ثم لابنـه ملكشاه ، ولد سنة ٤٠٨هـ ، وقتل على يد غلام باطني سنة ٤٨٥هـ. انظر : سير أعلام النبلاء : (٩٤/١٩) ، ووفيات الأعيان : (١٢٨/٢) .

(٤) انظر : زبدة التواريخ ، ص (٦٥،١١٩،١٤٦،١٥٢) .

زد على ذلك أن الإسماعيلية [١] الباطنية [٢] استغلوا الانقسام الواقع في صفوف السلاجقة لتوطيد نفوذهم ، ونشر دعوتهم ، وذهب عدد من كبار رجال السلاجقة ضحية لمؤامرات الباطنية ومنهم الوزير نظام الملك [٣].

(١) الإسماعيلية : فرقة من غلاة الشيعة وهي من الحركات الباطنية ، وتعود جذور هذه الفرقة إلى الشيعة الإمامية في نشأتها، وتلتقي معها في القول بإمامة جعفر الصادق – رحمه الله – ، إلا أنه بعد وفاة جعفر الصادق انقسمت الشيعة إلى فرقتين ، فريق ساق الإمامة إلى موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ، فسموا الموسوية ، ويطلق عليهم الإثنا عشرية ، وفريق ساق الإمامة إلى إسماعيل بن جعفر ، وسموا الإسماعيلية ، انظر : الملل والنحل ، للشهرستاني : (٢٢٦/١) ، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص٤٥ .

(٢) الباطنية : سموا بذلك لأنهم يقولون إن للنصوص ظاهر وباطن ، ولكل تنزيل تأويل ، ولهم ألقاب كثيرة كالقرامطة والإسماعيلية والمزدكية والنصيرية ، ومن عقيدتهم أن الإله لا يوصف بوجود ولا عدم ، ولا هو معلوم ولا هو مجهول ، ويقولون : إنه لا بد في كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق يرجع إليه في تأويل الظواهر ، انظر : الفرق بين الفرق ، للبغدادي ، ص٢٥٠ ، والملل والنحل : (٢٢٨/١).

(٣) انظر : نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ، محمد مسفر الزهراني ، ص١٢٠-١٢١ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، وتلبيس إبليس ، الإمام أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي ، ص ١٠٧ ، دار القلم–بيروت ، وسياسة نامة ، نظام الملك الطوسي ، ص٢٣٤-٢٣٥، ترجمة : يوسف حسين بكار ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ ، دار الثقافة – الدوحة .

ثانيًا : الحالة العلمية والفكرية

على الرغم من تدهور الحياة السياسية في عصر الإمام الغزالي ، فقد ازدهرت الحياة العلمية والفكرية ، وكان الخلفاء العباسيون يحتفون بأهل العلم في هذا العصر ، بل كانوا هم أنفسهم من محبي العلم ومريديه ، فإذا كان الخليفة عالًما ، ومن عشّاق العلم ومحبي العلماء ، زها العلم وسعد في أيامه ، وقد ذكر عن الخليفة القائم بأمر الله أن أيامه كانت منيرة بالعدل ، مزهرة بالعلم والفضل ، يستأنس بالعلماء ومحاضرتهم ،والأدباء ومحاورتهم[١] .

ومما يؤكد اهتمام الخلفاء العباسيين بالعلم والعلماء ، أن كثيرًا من العلماء ألفوا كتبًا قدموها للخلفاء، ومنهم الإمام الغزالي فقد صنّف كتاب فضائح الباطنية وقدمه للخليفة المستظهر بالله[٢]، ذكر ذلك في كتابه المنقذ قال : " وكان قد نبغت نابغة التعليمية[٣]، وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق ، فعن لي أن أبحث عنه في مقالتهم ، لأطلع على ما في كنانتهم . ثم اتفق أن ورد علي أمر جازم من حضرة الخلافة ، بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم . فلم يسعني مدافعته ، وصار ذلك مستحثًا من خارج ، ضميمة للباعث الأصلي من الباطن ، فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم . وكان قد بلغني بعض كلماتهم المستحدثة التي ولّدتها خواطر أهل العصر ، لا على المنهاج المعهود من سلفهم . فجمعت تلك الكلمات ، ورتبتها ترتيبًا محكمًا مقارنًا للتحقيق ، واستوفيت الجواب عنها "[٤].

---

(١) انظر : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، مريزن سعيد عسيري ، ص١٦٧ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ، مكتبة الطالب الجامعي – مكة المكرمة .

(٢) المستظهر بالله الإمام أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله العباسي ، ولد سنة ٤٧٠هـ، تولى الخلافة بعد أبيه عام ٤٨٧هـ، وله ست عشرة سنة ، وكان موصوفًا بالسخاء والجود ومحبة العلماء وأهل الدين ، توفي سنة ٥١٢هـ. انظر : سير أعلام النبلاء : (٣٩٦/١٩) .

(٣) التعليمية : لقبوا بذلك لأن مذهبهم يقوم على إبطال الرأي وتصرف العقل ، وعلى دعوة الخلق إلى تلقي العلم من الإمام المعصوم ، وعلى أنه لا مدرك للعلوم إلا التعليم من إمام معصوم . انظر : دراسات في الفرق ، صابر طعيمة ، ص٧٧، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ ، مكتبة المعارف – الرياض.

(٤) المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال ، لأبي حامد الغزالي ، ص٧٣ ، تحقيق : د.سميح دغيم ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م، دار الفكر اللبناني – بيروت.

وقد بدأت هذه النهضة العلمية منذ عهد البويهيين لما دخلــوا بغــداد ، وقبضــوا في أول عهدهم على أزمة الأمور ، اندفع بعض أمراء البويهيين ووزرائهم في تشجيع الأدب العربي ، مع أهم من أصل فارسي ، فنبغ في عهدهم كثير من العلماء والأدباء [١].

وكانت الري[٢] من مراكز الثقافة والعلم في شرق الدولة الإسلامية ، وبخاصــة في عهــد البويهيين ، وقد تقدمت الحركة العلمية في الري بعد أن استقر فيها الوزير البويهي أبو الفضل بن العميد [٣] ففتح بابه للعلماء والأدباء والشعراء ، حتى أنه كان يقضي جزءاً كــبيرًا مــن يومــه مشغولاً بهم . وكذا كان الوزير الصاحب إسماعيل بن عباد [٤] يبعث بالأموال في كــل عــام لتوزيعها على الفقهاء والأدباء والعلماء ، مما ساعد على انتعاش الحركة العلمية والأدبية . [٥]

وقد كــانت حلقات التدريس في المســاجد والجوامــع تعبّر عن حركــة علميــة وتعليمية مزدهرة، فقد اهتم العلماء بالتدريس في هذه الحلقات بهدف تدريس العلوم الشرعية ، ومقاومة التسلط البويهي الذي كــان يدعم حركــة التشيع العلوي بهدف الســيطرة علــى المجتمع الإسلامي .

كذلك أنشئت مكتبات عامة في العراق سميت بدور العلم وكانت تقــام فيهــا النــدوات العلمية ، وكانت هناك خزائن كتب خاصــة لبعض وزراء بــني بويــه كــابن العميــد ، والصاحب بن عباد [٦].

---

(١) انظر : نظام الوزارة في الدولة العباسية (العهدان البويهي والسلجوقي) ، محمد مسفر الزهراني ، ص١٨٤، الطبعــة الأولى ،١٤٠٠هـ ، مؤسسة الرسالة – بيروت .

(٢) الري : مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات ، بينها وبين نيســابور مائــة وســتون فرسخًا . انظر : معجم البلدان : (١١٦/٣) .

(٣) أبو الفضل محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب ، المعروف بابن العميد ، وكان متوســعًا في علــوم الفلسفة والنجوم ، وأما الأدب فلم يقاربه فيه أحد في زمانه . انظر : وفيات الأعيان (١٠٣/٥) .

(٤) الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن ابن إدريس الطالقاني ، وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء لأنه كان يصحب أبا الفضل ابن العميد . انظر : وفيات الأعيان : (٢٢٨/١).

(٥) انظر : نظام الوزارة في الدولة العباسية ، ص (١٨٤-١٨٥).

(٦) انظر : الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي ، رشــاد عبــاس معتــوق ، ص ٢١٧-٢٣١ ، باختصــار ، ١٤١٨هـ ، جامعة أم القرى – مكة المكرمة .

أما سلاطين السلاجقة فقد أدركوا أن العلم هو سياج الدولة وعمادها ، وأن العلماء هم مشاعل الحضارة ورواد الأمة ، فعملوا على تشجيع العلوم ، وبنوا المدارس والخوانق[١] والربط[٢] لطلاب العلم ، وأكرموا العلماء ، وأحسنوا وفادهم ، فأجزلوا لهم العطاء ، كما أدركوا أن خير ما يضمن لهم بقاء دولتهم ورقيها أن يشحنوا مراكزها المختلفة بالعلماء ، للدفاع عن بيضة الإسلام ، وحراسة أمور الأمة .

ولهذا كانت قصور السلاطين ومجالسهم عامرة بعلماء الدين والشعراء والأدباء ورواد العلم والمعرفة ، ابتداء من عهد ألب أرسلان ومن جاء بعده ، حيث كان للأدب والعلم ازدهار واسع، حتى أنه عُرف عن ألب أرسلان ميله إلى صحبة المثقفين وسماع الأخبار منهم[٣].

وكان الوزير نظام الملك من أبرز المدافعين عن العقيدة الإسلامية ضد الأعداء ، وكان له اهتمام بالغ بالعلم والعلماء ، وقد أنشأ المدارس النظامية في أماكن متعددة ، فقد بنى مدرسة في بَلْخ[٤] ، ونيسابور[٥]، هراة[٦]، أصبهان[٧]، مرو[٨]،

---

(١) الخوانق : الخانق هو الشعب الضيق في الجبل ، والخَانقَاه : هو رباط الصوفية . انظر : لسان العرب ، لابن منظور ، مادة : (خنق) : (٢٤٠/٣) ، والمعجم الوسيط ، مادة (خنقه) ، ص٢٦٠.

(٢) الربط : ملجأ الفقراء من الصوفية ، جمعها : رُبُط . انظر : المعجم الوسيط ، مادة : (ربط) ، ص٣٢٣.

(٣) انظر : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، ص١٧٢-١٧٣

(٤) بَلْخ : مدينة مشهورة من أجلّ مدن خراسان وأكثرها خيرًا ، افتتحت أيام عثمان بن عفان – رضي الله عنه – .انظر : معجم البلدان : (٤٧٩/١).

(٥) نيسابور : وهي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة من بلاد خراسان ، معدن الفضلاء ومنبع العلماء ، فتحت أيام عثمان سنة٣١هـ صُلحًا . انظر : معجم البلدان : (٣٣١/٥).

(٦) هَرَاة : مدينة عظيمة ومشهورة من مدن خراسان ، كانت من أجمل البلاد التي خربها التتار سنة٦١٨هـ ، وفيها كثير من العلماء ، وأهل الفضل والثراء . انظر: معجم البلدان : (٣٩٦/٥).

(٧) أصبهان : مدينة عظيمة ومشهورة في بلاد فارس ، وقد خرج من أصبهان من العلماء والأئمة في كل فن ما لم يخرج من مدينة من المدن ، وعلى الخصوص علوّ الإسناد ، ولها عدة تواريخ ، وقد فتحت في خلافة عمر – رضي الله عنه – سنة ٢٣هـ . انظر : معجم البلدان : (٢٠٦/١).

(٨) مرو : مرو العظمى أشهر مدن خراسان وقصبتها ، وتسمى مرو الشاهجان ، وتوجد مرو الرُّوذ ، وهي مدينة قريبة من مرو الشاهجان وصغيرة بالنسبة إليها ، وقد أخرجت مرو من الأعيان وعلماء الدين ما لم تُخرج مدينة مثلهم. انظر : معجم البلدان : (١١٢/٥).

الموصل[١]، ومن أهمها المدرسة النظامية ببغداد[٢].

"وبنى المدرسة التي بنيسابور للإمام الجويني[٣] الذي تخرج على يديه عدد كبير من التلاميذ وانتشرت تصانيفه ، وكان في حلقته ثلاثمائة فقيه من الفحول وصلوا إلى مرتبة التدريس كأبي حامد الغزالي "[٤].

وكان يعقد مجلسًا للمناظرة بين العلماء ، وأحيانًا يرأس الجلسة بنفسه ، ومن ذلك المناظرات التي جرت بين الإمام الغزالي وبين عدد من العلماء في مجلس نظام الملك [٥].

وجرت مناقشات بين أبي إسحاق الشيرازي [٦] وبين أبي المعالي الجويني عندما كان ببغداد بحضرة نظام الملك " [٧].

وذكر أحد المؤرخين اهتمام نظام الملك بالعلم والعلماء فقال : " وكانت علامة نظام الملك (الحمد لله على نعمه) . وكان مؤيدًا موفقًا من جملة البشر ، مخصوصًا من الله بالنصر والفتح والظفر . والدهماء ساكنة في أيامه ، وأهل الدين والعلم والفضائل راتعون في إنعامه .

وفي أيامه نشأ للناس أولاد نجباء ، وتوفر على تهذيب الأبناء والآباء ، ليحضروهم في مجلسه، ويحظوا بتقريبه ، فإنه كان يرشح كل أحد لمنصب يصلح له ، بمقدار ما يرى فيه من

---

(١) الموصل : المدينة المشهورة العظيمة إحدى قواعد بلاد الإسلام فهي محطّ رحال الركبان ومنها يقصد إلى جميع البلدان فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى أذربيجان ، وعرفت بصحة هوائها وعذوبة مائها . انظر : معجم البلدان : (٢٢٣/٥).

(٢) انظر : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، ص١٧٧-١٧٨ ، والسلاجقة وتاريخهم وحضارتهم ، ص (١٤٥-١٤٧).

(٣) هو الإمام الكبير شيخ الشافعية ، إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن الإمام أبي محمد عبد الله أبي يوسف بن عبد الله أبي يوسف الجويني ثم النيسابوري ، ولد سنة ٤١٩هـ ، صاحب التصانيف ، درس بنظامية نيسابور ثلاثين سنة ، توفي سنة٤٧٨هـ . انظر : سير أعلام النبلاء : (٤٦٨/١٨) ، وطبقات الشافعية الكبرى ، للسبكي : (١٥٨/٣) .

(٤) نظام الوزارة في الدولة العباسية ، ص١٩١ .

(٥) انظر : مسيرة الغزالي العلمية من هذا البحث ، ص ٣٠ .

(٦) الشيخ الإمام القدوة ، جمال الدين شيخ الإسلام إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزابادي ، الشيرازي ، الشافعي ، كان زاهدًا ورعًا متواضعًا فقيهًا عالماً ، ولد سنة ٣٩٣هـ ، توفي ببغداد سنة٤٧٦هـ ، له تصانيف منها : المهذب ، واللمع في أصول الفقه وغيرها . انظر : وفيات الأعيان : (٢٩/١) ، وسير أعلام النبلاء : (٤٥٢/١٨) .

(٧) انظر : الكامل في التاريخ : (١٢٦/١٠) .

الرشد والفضل ، ومن وجد في بلدة قد تميز وتبحر في العلم ، بنى له مدرسة ووقف عليها وقفًا وجعل فيها دار كتب . ..... وفي عصره نشأ طبقات الكتاب الجياد ، وفرّعوا المناصب ، وولوا المراتب ، و لم يزل بابه مجمع الفضلاء ، وملجأ العلماء .

وكان نافذًا بصيرًا ، ينقب عن أحوال كل منهم ، ويسأل عن تصرفاته وخبرته ومعرفته، فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه ، ومن رآه مستحقًا لرفع قدره رفعه وأعلاه ، ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ، ورتب له ما يكفيه من جدواه ، حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره ، وتدريس الفضل وذكره ، وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلي به عاطله ، ويحيي به حقه ويميت باطله " [1].

ولا شك في أن الكتب وتأليفها وخزائن الكتب وتعددها ، وأسواق الوراقين المنتشرة في بغداد وسائر المراكز العلمية في العراق وغيرها في العصر السلجوقي تعد مظهرًا هامًا من مظاهر النهضة العلمية والفكرية .

وهكذا انتشرت المكتبات في هذا العصر ، وملئت بنفائس الكتب في المدارس والمساجد والأربطة والمستشفيات ، إضافة إلى خزائن الخلفاء والوزراء والعلماء .

ومن أهم هذه الخزائن خزانة الخليفة القائم بأمر الله ، والخليفة المقتدي بأمر الله [2]، فقد كانت له خزانة كتب حوت الكثير من النفائس [3].

وانتشرت حركة التأليف والتصنيف في هذا العصر ، فظهرت مصنفات كثيرة ، وموسوعات علمية بديعة في مختلف الفنون الإسلامية ، ومن مؤلفي هذا العصر الإمام أبو حامد الغزالي ، والذي كثرت تصانيفه في علوم شتى [4].

---

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٥٩.

(٢) المقتدي بأمر الله : أبو القاسم عبد الله بن ذخيرة الدين محمد بن القائم بأمر الله العباسي ، تسلّم الخلافة سنة ٤٦٧هـ، وهو ابن عشرين سنة تقريبًا ، وكان حسن السيرة محبًا للعلوم مكرمًا لأهلها ، ثم توفي فجأة سنة ٤٨٧هـ، وهو ابن تسع وثلاثين سنة ، وكانت خلافته عشرين سنة . انظر : سير أعلام النبلاء : (٣١٨/١٨) .

(٣) انظر : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي،ص١٨١و١٩٤-١٩٥

(٤) انظر : آثار الغزالي العلمية ومؤلفاته من هذا البحث ، ص ٣٦-٣٩ .

وبالرغم من ازدهار النشاط العلمي ، فقد انتشرت الفرق والمذاهب ، وكان بينها صراعات ومنازعات حادة . وامتدت هذه المنازعات منذ بدايات خلافة العباسيين ، خلال العصر البويهي والعصر السلجوقي ، وأيضًا مناصرة أمراء بني بويه لحركة التشيع كان لها أثرها في إثارة الفتن بين الشيعة وأهل السنة وقيام حرب شديدة بين الطرفين امتدت فترة من الزمن.

وكانت الخلافات بين السنة والشيعة عنيفة تصل إلى الحرق وسفك الدماء ، ومن هذه الصدامات ما حدث عام ٤٥٨هـ عندما خرج أهل الكرخ [١] في موكب عزاء ، وأنكر عليهم الخليفة العباسي ذلك ، وقام أهل باب البصرة وغيرهم من أهل السنة يلعنون أهل الكرخ ، وتجمهروا في باب الخليفة .

ومنها ما حدث في عام ٤٦٥هـ حيث قامت فتنة بين أهل الكرخ وباب البصرة ، وحدث حريق في الكرخ [٢].

وعظم أيضًا أمر الإسماعيلية الباطنية واستفحل شرها ، وواصلوا نشاطهم لنشر دعوتهم، وكانوا مصدر فزع لأهل السنة ، حيث فتك الإسماعيلية في ذلك العصر بجماعة من الخلفاء والسلاطين والوزراء والعلماء والقضاة [٣].

وقد ردَّ عليهم الإمام الغزالي في كتابه فضائح الباطنية ، ولعل اتجاه الغزالي – رحمه الله – بعد التدريس بنظامية بغداد إلى بلاد الشام ، كان من خشيته الإسماعيلية الباطنية ، بعد أن ألّف كتابه في نقض مذهبهم [٤].

---

(١) الكرخ : كانت الكرخ أولاً في وسط بغداد والمحالّ حولها ، ثم أصبحت محلة وحدها مفردة في وسط الخراب وحولها محال إلا أنها غير مختلطة بها ، فبين شرقها والقبلة محلة باب البصرة وأهلها كلهم سنية حنابلة لا يوجد غير ذلك ، وأهل الكرخ كلهم شيعة إمامية لا يوجد فيهم سني البتة . انظر : معجم البلدان : (٤٤٨/٤).

(٢) انظر : السلاجقة في التاريخ والحضارة ، أحمد كمال الدين حلمي ، ص (٢٢١–٢٢٣) باختصار ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٥هـ ، دار البحوث العلمية – الكويت .

(٣) انظر : الحركات الباطنية في العالم الإسلامي عقائدها وحكم الإسلام فيها ، د.محمد أحمد الخطيب ، ص ٤٤٣–٤٤٤، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ، دار عالم الكتب – الرياض .

(٤) انظر : عصر الإمام الغزالي ، مصطفى جواد ، ص (٥٠٠–٥٠١) ، ضمن مهرجان الغزالي في دمشق ،١٣٨٠هـ ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية – دمشق .

ومما زاد في قوة الشيعة – خاصة في العراق حيث أماكنهم المقدسة – تمكنهم من الحصول على بعض المناصب العالية في الدولة ، والسبب في ذلك هو تساهل بعض سلاطين السلاجقة في هذا الأمر وعدم تنبههم لخطورته .

وقد فطن الوزير نظام الملك لخطورة تولية أصحاب المذاهب السيئة مناصب في الدولة وحذر السلاطين من ذلك في كتابه (سياسة نامة) حيث قال :

" إن مولي الأعمال في كل العهود كانوا يندبون لها من هم على مذاهبهم وشركائهم في العقيدة من الأصلاء والمتقين ، حتى إذا ما رفض أحدهم وأبدى تمنعًا و لم يجبهم إلى ذلك ، كانوا يجبرونه ويسندون العمل إليه قسرًا . ولا جرم من أن المال لم يكن يذهب سدى ، وأن الرعايا كانوا في راحة واطمئنان ، وكان المستقطعون يتمتعون بسمعة حسنة ويعيشون عيشة هادئة ، وكان الملك يقضي أيامه ناعم البال رخي الحال . لكن لا وجود لهذا اليوم ، لأنه يُسمح لليهودي والزرادشتي والرافضي بتولي الكتابة للأتراك – السلاجقة – وإدارة شؤونهم .

لقد استولت عليهم الغفلة ، فليست فيهم حمية على الدين ، ولا شفقة على المال ، ولا رحمة بالرعية .

فالدولة وصلت إلى أوج كمالها ، وإنني لأخشى عليها العين ، ولست أدري إلام ستؤول الأمور ، إذ لم تكن لأي زرادشتي ومسيحي ورافضي الجرأة على إظهار نفسه في عهد طغرل وألب أرسلان ، أو على القدوم إلى أي تركي ، فقد كان كل كتبة التُّرك والقائمين على شؤونهم والمتنفذين فيها من خراسان[١] ، ومن الحنفية أو الشافعية و لم يكن التُّرك ليفسحوا المجال أمام كتبة العراق وعمّال خراجها من ذوي المذاهب السيئة ، بل لم يكونوا ليجيزوا استخدامهم أو توليهم أي عمل .

---

(١) خراسان : بلاد واسعة ، تمتد من العراق إلى الهند ، وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو ، وقد فتحت أكثر هذه البلاد عنوة وصلحًا ، وذلك في سنة ٣١هـ في أيام عثمان بن عفان – رضي الله عنه – . انظر : معجم البلدان : (٢/٣٥٠).

وكانوا يقولون : هؤلاء على مذهب الديالمة [١] ومن أتباعهم . فإن يوطدوا أقدامهم ، يلحقـوا بالأتراك الضـرر ، ويحيقوا بالنـاس الأذى . إنه لمن الخير ألا يكون للأعداء وجـود بـين ظهرانينا " [٢].

ثم أوضح ما وصل إليه الحال في قصور الملك فقال :

" ولا جرم أنهم كانوا يعيشون في منأى عن المصائب والمتاعب والآفات . لكن الأمور وصـلت الآن إلى حد انبثوا فيه في البلاط والديوان بكثرة ، حتى أنه ليجري وراء كل تركي مائتان منهم. لقد تدبروا أمرهم بينهم على ألا يسمحوا لأي خراساني أن تطأ قدماه القصر والديوان أو يتسنى له الحصول على لقمة العيش " [٣].

ثم حذّر من النتائج السيئة المترتبة من استعمال أهل الملل المنحرفة فقال :

" وسيأتي يوم يصحوا فيه التُّرك على فساد تلك الطبقة ، فيتذكرون قولي من أن الديوان قد خلا من الكتاب والمتصرفين الخراسانيين .

لقد كان الأتراك إذا ما قدم عليهم من يسألهم عمل كاتب أو فراش يسألونه: من أي مدينة أنت ، ومن أية ولاية ؟ وما مذهبك ؟ فإن قال : من خراسان وما وراء النهر ، أو من أي مدينة سنية قبلوه ، وإن قال : شيعي من قُم[٤] وكاشان[٥] وآبة[٦] والري ردوه قـائلين : انصـرف ، فنحن نقتل الأفعى ولا نربيها.

إنهم لم يكونوا ليقبلوا أحدًا ولو بذل الأموال والنعم الوفيرة ، بل كـانوا يقولـون لـه : اذهب مصحـوبًا بالسـلامـة ، ووفـر مـا تريـد أن تعطيـه لنـا على نفسـك ،

---

(١) الديالمة : الديلم : الأعداء ، وقيل : جيل سمّوا بأرضهم وليس باسم أب لهم . وديلم : اسم ماء لبني عبس . انظر : معجم البلدان : (٢/٥٤٤).

(٢) سياسة نامة ، ص ٢٠٢ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٠٢-٢٠٣

(٤) قم : مدينة بين أصبهان وساوة ، وأهلها كلهم شيعة إمامية ، قيل : أنها افتتحت عنوة سنة ٢٣هـ . انظر : معجم البلدان : (٤/٣٩٧) .

(٥) كاشان : مدينة بما وراء النهر ، على بابها وادي أحسيكث . انظر : معجم البلدان : (٤/٤٣٠) .

(٦) آبة : من قرى أصبهان ، بليدة تقابل ساوه تُعرف بين العامة بآوه ، وأهلها شيعة ، وأهل ساوه سنية ، والحروب بين البلدين كانت قائمةً على المذهب . انظر : معجم البلدان : (١/٥٠) .

واجلس في بيتك وأنفقه على طعامك وشرابك " [١].

وكان السلطان طغرل والسلطان ألب أرسلان ، إذا سمعا بأن أميرًا أو تركيًا مهّد سبيل أي رافضي إليه ، يغضبان عليه ويعاتبانه [٢].

وأما الأشاعرة [٣] فقد قوي مذهبهم في العصر السلجوقي ، وذلك بعد أن قضى أبو الحسن الأشعري [٤] على مذهب المعتزلة [٥] . ومما ساعد على انتشار مذهبهم نصرة الوزير نظام الملك للمذهب الأشعري ، وافتتاح المدارس النظامية التي كانت تُدّرِس العقيدة الأشعرية [٦]، ووقعت فتن بين الشافعية ممن كانوا على المذهب الأشعري ، وبين الحنابلة [٧].

وأما الصوفية فيعتبر عصر السلاجقة عصرهم الذهبي ، حيث انتشر التصوف انتشارًا واسعًا، ومما ساعد على انتشاره :

– الاضطرابات التي سادت الحياة السياسية وشيوع التعصب ، وكثرة النزاع بين الفرق الإسلامية الأخرى ، شكل عاملاً مشجعًا لانخراط عدد كبير من الناس في سلك الصوفية .

---

(١) سياسة نامة ، ص (٢٠٢-٢٠٣) .

(٢) انظر : المرجع السابق : ص٢٠٣.

(٣) الأشاعرة : هم المنتسبون لمذهب أبي الحسن الأشعري في مرحلته الثانية بعد الاعتزال ، وهم لا يثبتون من الصفات إلا سبعًا ، لأن العقل دلّ على إثباتها ويؤولون بقية الصفات بتأويلات عقلية رغم ورود النصوص بإثباتها . انظر: الملل والنحل: (١٠٦/١) .

(٤) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم الأشعري مؤسس مذهب الأشاعرة ،كان معتزليًا ثم تركهم ، له مؤلفات كثيرة في العقائد منها كتاب : الإبانة عن أصول الديانة ، ولد سنة ٢٦٠هـ ، مات سنة٣٣٠هـ ، وقيل غير ذلك . انظر : وفيات الأعيان : (٢٨٤/٣) .

(٥) المعتزلة : إحدى فرق أهل الكلام ، أسسها واصل بن عطاء لما اعتزل مجلس الحسن البصري ، من عقائدهم إثبات الأسماء وإنكار الصفات ، وأن صاحب الكبيرة في منزلة بين منزلتين في الدنيا وفي الآخرة ، خالد مخلد في النار ، ويقولون إن الله لم يخلق أفعال العباد . انظر : الفرق بين الفرق ، ص١١٢، والفصل في الملل والنحل ، لابن حزم : (١٢٨/٣) ، والمعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها ، د.عواد عبد الله المعتق ، ص (١٣-١٤) ، الطبعة الرابعة ١٤٢١هـ ، مكتبة الرشد – الرياض .

(٦) انظر : سلاجقة إيران والعراق ، ص (١٧١-١٧٢) .

(٧) انظر : الكامل في التاريخ : (١٠/١٢٤-١٢٥) .

– دور السلاطين السلاجقة ووزرائهم في تشجيع الصوفية ، ومساعدتهم وبنـــاء الأربطـــة والزوايا والخانقاه لهم وإمدادهم بالأموال لئلا يشتغلوا عن العبادة .

– كثرة النزاع بين الأمراء ، وتلاشي المثل الأخلاقية ، والإسراف في المأكـــل والمشـــرب وانتهاك المحرمات ، جعل الصوفية يستفيدون من هذه الأوضاع وبثوا تعاليمهم الدينية ، التي بدا في ذلك الوقت أنها تُهذِّب النفوس [(١)].

– انضمام أبي حامد الغزالي إلى ركب الصوفية ، ويعتبر هذا عاملاً مهمًا لانتشار التصوف، وذلك لمكانة الغزالي العلمية . ولمـــا أحدثته مصنفاته وخاصة كتاب (إحياء علوم الدين) من تأثير عجيب في الناس ، والذي ما زال تأثيره ساريًا إلى الوقت الحاضر . [(٢)]

---

(١) انظر : سلاجقة إيران والعرق ، ص (١٧٥ – ١٧٧) .

(٢) انظر : أصول الدين عند أبي حامد الغزالي ، أحمد عوض الله الحربي ، ص٣٣ ، رسالة دكتوراه ، ١٤١٩هـــ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض ، ومنـــهاج البحـــث عند الغـــزالي ، عادل زعبوب ، ص٦١ ، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـــ، مؤسسة الرسالة – بيروت .

المطلب الثاني : نشأته وآثاره العلمية

أولاً : اسمه ونسبه ومولده

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ، الإمام زين الدين أبو حامد الغزالي ، الطوسي ، الفقيه ، الشافعي [١].

ولد بطوس [٢] سنة خمسين وأربعمائة [٣]، وإليها ينسب فيقال الطوسي ، كما ينسب ويقال له الغزّالي – بالتشديد – نسبة إلى مهنة أبيه في غزل الصوف .

قال ابن الأثير : الغزالي بالتشديد ، وهو منسوب إلى بائع الغزل ، أو الغزالي على عادة أهل خوارزم [٤] وجرجان [٥]. وكان هذا بلسان العجم.

---

(١) انظر ترجمته في : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، للذهبي ، ص١١٥ ، حوادث وفيات (٥٠١-٥١٠هـ)، ووفيات الأعيان : (٢١٦/٤) ، والنجوم الزاهرة : (٢٠٣/٥) ، وشذرات الذهب : (١٠/٤) ، والعبر في خبر من غبر ، للذهبي : (٣٨٧/٢) ، وتاريخ الشعوب الإسلامية ، ص٢٧٥ ، والوافي بالوفيات : (٢٧٤/١) ، وطبقات الشافعية ، للأسنوي : (٢٤٢/٢) ، والأعلام ، للزركلي : (٢٢/٧) ، ومعجم المؤلفين : (٢٦٦/١١) .

(٢) طوس : ثاني مدينة في خراسان بعد نيسابور ، وتشتمل على بلدتين يقال لأحدهما الطابران ، والأخرى نوقان ، فتحت في أيام عثمان – رضي الله عنه – . انظر : معجم البلدان : (٤٩/٤) .

(٣) انظر : طبقات الشافعية ، السبكي : (١٠٢/٤) .

(٤) خوارزم : يسمى أهلها كركانج ، وخوارزم ليس اسمًا للمدينة إنما هو اسم للناحية بجملتها ، وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين ، والذين ينسبون إليها من الأعلام والعلماء لا يحصون . انظر : معجم البلدان : (٣٩٥/٢) .

(٥) جرجان : مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان بناها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين ، ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمي ، وفيها مياه كثيرة وضياع كثيرة . انظر : معجم البلدان : (١١٩/٢) .

وينسب بالتخفيف وهو الأشهر ، حيث قال الذهبي في السير :

قرأت بخط النووي[١] – رحمه الله – :

قال الشيخ تقي الدين بن الصلاح [٢] وقد سئل عن سبب تسمية الغزالي بذلك . فأورد قولاً للغزالي نصّه :

" الناس يقولون لي الغزّالي ، ولست الغزّالي ، وإنما أنا الغزَالي منسوب إلى قرية يقال لها غزالة " [٣].

ثانيًا : نشأته ومسيرته العلمية

ولد الغزالي لأب فقير ، كان يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس ، وعُرف عنه أنه كان يحب العلم والعلماء ، ففي أوقات فراغه يطوف على الفقهاء والوعاظ يجالسهم ويستفيد منهم ، ويقوم على خدمتهم ، وكان كلما سمع كلامهم بكى و يدعوا الله أن يرزقه أولاداً مثل هؤلاء العلماء [٤] .

وقبل وفاة والده كان قد أوصى قريبًا له من الصوفية بولديه ليعتني بهما ، ويقوم بتوجيههما إلى طلب العلم وتعلم الخط .

---

(١) يحيى بن شرف بن مري النووي الشافعي ، صاحب رياض الصالحين من أعلام الفقه والحديث كان عابدًا زاهدًا مقبلاً على الآخرة ، ولد سنة ٦٣١هـ ومات سنة٦٧٦هـ . انظر : طبقات الشافعية الكبرى ، للسبكي:(٤٧١/٤) ، والعبر في خبر من غبر ، للذهبي : (٣٣٤/٣) ، تحقيق : محمد السعيد زغلول ، دار الكتب العلمية–بيروت ، والأعلام ، للزركلي : (٨/ ١٤٩) .

(٢) هو الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو عمرو عثمان بن المفتي صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي الشهرزوري الموصلي ، الشافعي ، صاحب علوم الحديث ، ولد سنة ٥٧٧هـ ، وتفقه على والده ، توفي سنة٦٤٣هـ . انظر : سير أعلام النبلاء : (١٤٠/٢٣) ، ووفيات الأعيان : (٢٤٣/٢) .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء : (٣٢٤/١٤) .

(٤) انظر : طبقات الشافعية ، للسبكي : (١٠٢/٤) ، وتاريخ الإسلام ، الذهبي ، ص١٢٦ (وفيات٥٠١-٥١٠هـ) .

وقام ذلك الوصي بما أوصى به أبوهما حتى فني ما خلف لهما أبوهما من المال، وكان الوصي فقيرًا فأرشدهما إلى اللحاق بمدرسة يطلبان فيها الفقه والقوت ، ففعلا ذلك [١] .

وكان الغزالي يحكي هذا ويقول : طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله [٢].

وبدأت مسيرة الغزالي رحمه الله العلمية حيث قرأ في صباه طرفًا من الفقه على أحمد بن محمد الراذكاني[٣].

ثم سافر إلى جرجان وتتلمذ فيها على الإسماعيلي[٤] أحد شيوخ الشافعية فقرأ عليه الفقه ومبادئ علم الأصول وعلق عنه التعليقة ، وهي عبارة عن تعليقاته عن كل ما درسه .

ثم عاد إلى طوس حاملاً تعليقته في مخلاة معه . فقطع عليهم قطاع الطرق وأخذوا جميع ما معه ، فتبعهم الغزالي يسأل مقدمهم بأن يرد عليه تعليقته فقط فما هي بشيء تنتفعون به . فقال له : وما هي تعليقتك ؟ فقال له الغزالي : كتب في تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها . فضحك ، وقال : كيف تدعي أنك تعرف علمها ، وقد أخذناها منك ، فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم أمر أصحابه فسلم لأبي حامد المخلاة .وكان لهذه الحادثة أثر كبير في نفس أبي حامد ، مما دفعه إلى حفظ واستيعاب كل ما يسمع .

قال الغزالي : هذا مستنطق أنطقه الله ، ليرشد به أمري ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع علي الطريق لم أتجرد من علمي . [٥]

---

(١) انظر : تاريخ الإسلام ، للذهبي ، حوادث وفيات (٥٠١-٥١٠هـ) ، ص١٢٦ .

(٢) انظر : طبقات الشافعية ، للسبكي : (١٠٢/٤) .

(٣) أبو حامد أحمد بن محمد الطوسي الراذكاني ، أحد أشياخ الغزالي في الفقه . تفقه عليه قبل رحلته إلى إمام الحرمين . انظر : طبقات الشافعية ، للسبكي : (٣٩٩/٢) ، وطبقات الشافعية ، للأسنوي : (٢٨٧/١) . والراذكاني : نسبة إلى راذكان قرية من قرى طوس . انظر : معجم البلدان : (١٣/٣) .

(٤) الإسماعيلي : أبو القاسم إسماعيل بن مسعدة بن إسماعيل بن الإمام الكبير أبي بكر الإسماعيلي الجرجاني ، سمع من أبيه وعمه الفضل ومن حمزة بن يوسف الحافظ ، ولد سنة ٤٠٧هـ ، وتوفي سنة ٤٧٧هـ . انظر : سير أعلام النبلاء : (٥٦٤/١٨) .

(٥) انظر : طبقات الشافعية ، للسبكي : (١٠٣/٤) .

وبعد المدة التي مكثها في طوس قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين وبرع في المذهب والخلاف والجدل والأصلين والمنطق ، وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك . وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدى للرد عليهم وإبطال دعاويهم وصنَّف في كل فن كتبًا .

وكان إمام الحرمين الجويني يصِفه ويقول : الغزالي بحر مغدق [١]. وارتفعت منزلته عند أستاذه الجويني فجعله نائبًا عنه ، يقوم مقامه إذا غاب .

وبعد موت إمام الحرمين عام ٤٧٨هـ خرج الغزالي وكان عمره ٢٨ سنة إلى العسكر [٢] قاصدًا الوزير نظام الملك حيث ولاه التدريس في النظامية ، وناظر فيها العلماء .

ثم قدم بغداد سنة ٤٨٤هـ وكان عمره ٣٤ سنة ، درَّس فيها وانتشر صيته وغلبت حشمته الأمراء والملوك [٣] ، واستمر يدرس في نظامية بغداد لمدة أربع سنوات حتى عام ٤٨٨هـ .

وخلال هذه الفترة عكف على دراسة الفلسفة ، وألَّف كتابه مقاصد الفلاسفة الذي وضَّح فيه أقوالهم دون نقد ، ثم ألَّف كتابه تهافت الفلاسفة والذي نقد فيه الفلسفة والفلاسفة وبيَّن تهافت أقوالهم . قال الغزالي : " ثم إني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة .... وعلمت أن ردّ المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في عماية[٤] . فشمرت عن ساق الجد، في تحصيل ذلك العلم من الكتب ، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ ،وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية .... فأطلعني الله تعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة ، على منتهى علومهم في أقل من سنتين . ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريبًا من سنة ، أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره ، حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتحقيق وتخييل ، اطلاعًا لم أشك فيه "[٥].

(١) انظر : إتحاف السادة المتقين ، للزبيدي : (١/٧-٨) .

(٢) عسكر نيسابور : مدينة مشهورة بخراسان ، فيها محلة تسمى العسكر . انظر : معجم البلدان : (٤/١٢٤) .

(٣) انظر : اتحاف السادة المتقين : (١/٧-٨) .

(٤) عماية : اللجاج في الباطل والغواية . انظر : المعجم الوسيط ، ص٦٢٩ ، مادة (عَمِيَ) .

قلت : وهذه لفتة هادفة من الغزالي يستفاد منها عدم التصدي لنقد ما لا يفهمه المرء ، كما هو واقع من بعض طلبة العلم .

(٥) المنقذ من الضلال ، ص (٦١-٦٢) .

وألّف في هذه الفترة أيضًا كتاب فضائح الباطنية بناءً على طلب من الخليفة المستظهر بالله .

قال الغزالي : " ثم اتفق أن ورد عليَّ أمر جازم من حضرة الخلافة ، بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم . فلم يسعني مدافعته " (١).

وتقلّب الغزالي – رحمه الله – بين هذه المذاهب الأربعة : المتكلمين ، الفلاسفة ، الباطنية ، ثم لما فرغ منها أقبل على طريق الصوفية .

ثم عزفت نفسه عن الرذائل ، ومرض مرضًا شديدًا منعه الطعام والشراب ، وقرر الخروج من بغداد إلى الشام ، ولم يدَّخر معه إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال .

قال الغزالي : " ثم دخلت الشام وأقمت به قريبًا من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة، والرياضة والمجاهدة ؛ اشتغالاً بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت قد حصلته من كتب الصوفية . فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي.

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسي . ثم تحركت فيَّ داعية فريضة الحج ..... فسرت إلى الحجاز " (٢).

ثم رجع إلى بغداد ومكث فيها فترة يسيرة ، ثم سافر إلى موطنه طوس ، واعتزل الناس ما يقارب عشر سنين ، وأخذ في هذه الفترة بتصنيف كتاب الإحياء (٣).

قال الغزالي : " ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه . وآثرت العزلة به أيضًا حرصًا على الخلوة، وتصفية القلب للذكر .... ودمت على ذلك عشر سنين ؛ وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي أذكره لينتفع به : أني علمت يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة " (٤).

---

(١) المنقذ من الضلال ، ص٧٣.

(٢) المنقذ من الضلال ، ص٨٢ ، وانظر: دمشق أيام الغزالي ، خالد معاذ ، ص (٤٨٦–٤٨٨) ، ضمن مهرجان الغزالي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، ١٩٦١م ، دمشق .

(٣) انظر : المنتظم ، لابن الجوزي : (١٢٥/١٧) .

(٤) المنقذ من الضلال ، ص (٨٢ –٨٣)

ثم بعد ذلك جاءه أمر من السلطان بالذهاب إلى نيسابور للتدريس في النظامية ، فخرج من عزلته .

قال الغزالي : " ويسَّر الله الحركة إلى نيسابور ، للقيام بهذه المهمة في ذي القعدة ، سنة تسعة وتسعين وأربع مائة . وكان الخروج من بغداد سنة ثمان وثمانين و أربع مائة . وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة " [(١)].

وظل يدرس بالمدرسة النظامية بنيسابور إلى عام ٥٠٣هـ .

بعدها ترك التدريس ورجع إلى بيته بطوس ، واتخذ بجواره مدرسة لطلبة العلم ، وخانقاه للصوفية ، ووزع أوقاته على وظائف الحاضرين من ختم القرآن ، ومجالسة الصوفية ، والقعود للتدريس [(٢)].

وذُكر عنه أن خاتمة أمره إقباله على طلب الحديث ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين ، ولو عاش لسبق في ذلك الفن بيسير من الأيام . وكانت وفاته يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة ، ودفن بظاهر قصبة طابران [(٣)] .

ثالثًا : شيوخه

تلقى الإمام الغزالي العلم منذ الصبا على عدد من الشيوخ في الفقه والأصول ، والكلام ، والتصوف . وسأذكر بعضًا منهم :

- شيوخه في علم الكلام:

أخذ أبو حامد الغزالي علم الكلام من شيخه أبي المعالي الجويني ، وقد كان أشعري المعتقد ، نقل ما يحكيه الناس من كلام الأشعري . [(٤)]

---

(١) المنقذ من الضلال ، ص٩٣.

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء : (٣٠٩/١٤) .

(٣) انظر : المنتخب من السياق ، ص (٧٤-٧٥) ، وانظر : درء التعارض : (١٦٢/١) و (٢١٠/٦) ، والرد على المنطقيين : (١٩٩/١) ، والتصوف في ميزان البحث والتحقيق ، عبد القادر سندي ، ص (٣١٠-٣٢٦) ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ، مكتبة ابن القيم – المدينة.

(٤) سيأتي تفصيل ذلك لاحقًا ، انظر: مصادر الغزالي الكلامية ، ص ٥٦-٥٧ من هذا البحث .

- شيوخه في الفقه [١] :

١- أبو حامد أحمد بن محمد الراذكاني الطوسي : [٢]

وهو أول مشايخه في الفقه بطوس .

٢- أبو القاسم إسماعيل بن مسعدة بن إسماعيل الإسماعيلي الجرجاني[٣]:

أخذ عنه الغزالي الفقه في جرجان ، وكتب عنه التعليقة التي سرقت منه .

٣- إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني النيسابوري [٤] :

قرأ عليه بنيسابور وأخذ عنه الفقه والأصول ، وعلم الكلام وفنونًا أخرى .

- شيوخه في التصوف :

١- أبو علي الفضل بن محمد بن علي الفارمذي الطوسي [٥]:

من أعيان تلامذة أبي القاسم القشيري ، أخذ عنه الغزالي التصوف ، وتأثر به وذكره في كتبه في أكثر من موضع [٦].

٢- يوسف النساج الطوسي [٧]:

أخذ الغزالي عنه التصوف ، وتأثر به أيضًا .

---

(١) انظر : إتحاف السادة المتقين ، (١/١٩) .

(٢) سبقت ترجمته ، ص ٢٩

(٣) سبقت ترجمته ، ص ٢٩

(٤) سبقت ترجمته ، ص ٢٠

(٥) الإمام الكبير ، شيخ الصوفية ، الفضل بن محمد الفارمذي ، الخورساني ، الواعظ ، ولد سنة ٤٠٧هـ ، توفي في ربيع الآخر سنة ٤٧٧هـ . انظر : سير أعلام النبلاء : (١٨/٥٦٥) ، وطبقات الأسنوي : (٢/٢٧١) .

(٦) انظر : المقصد الأسنى ، ص ١٥٠ ، وإتحاف السادة المتقين ، (١/١٩) .

(٧) يوسف النساج الطوسي ، صحبه الغزالي وأخذ عنه التصوف وأخذ عنه الطريقة . انظر : الطبقات العلية في مناقب الشافعية ، للواسطي ، ص١٩٣ ، تحقيق : عبد الأمير الأعسم ، ملحق ضمن : الفيلسوف الغزالي ، عبد الأمير الأعسم ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١م ، دار الأندلس - بيروت .

- شيوخه في الحديث : [١]

مما هو معروف أنه لم تكن للغزالي يد باسطة في الحديث ،وقد قال عن نفسه أن بضاعته في الحديث مزجاة ، وعامة مافي الإحياء من الأحاديث والآثار مبدد في كتب من سبقه من الصوفية، و لم يسند الغزالي الحديث . وقد ذكر عبد الغافر الفارسي أن الغزالي لم تتفق له الرواية[٢].

١- أبو سهل محمد بن أحمد بن عبد الله الحفصي المروزي[٣].

قيل أن الغزالي سمع منه صحيح البخاري ، وقدم دمشق سنة تسع وثمانين[٤].

٢- الحاكم أبو الفتح نصر بن علي بن أحمد الحاكمي الطوسي[٥].

ذكر عبد الغافر الفارسي أن الغزالي سمع من سنن أبي داود عن أبي الفتح ، ولكنه لم يعثر على سماعه ، وسمع أحاديث متفرقة[٦].

٣- الحافظ الفتيان عمر بن أبي الحسن الرؤاسي الدهستاني[٧].

٤- نصر بن إبراهيم المقدسي [٨].

(١) انظر : إتحاف السادة المتقين : (١٩/١) .

(٢) انظر : المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور ، ص ٧٤ ، وانظر: مصادر الغزالي الشرعية من هذا البحث، ص٦٠، والمصادر الصوفية،ص ٦٣-٦٥

(٣) أبو سهل ، محمد بن أحمد بن عبدالله بن عمر بن سعيد بن حفص المروزي ، الحفصي ، روى عنه : الشيخ أبو حامد الغزالي وغيره ، مات سنة خمسٍ وستين وأربع مئة . انظر : سير أعلام النبلاء : (٢٤٤/١٨) .

(٤) انظر : تاريخ الإسلام ، للذهبي ، ص ١٢٥

(٥) الفقيه نصر بن علي بن أحمد بن منصور بن شاذويه ، أبو الفتح الطوسي ، الحاكمي ، أحد المشاهير . انظر : سير أعلام النبلاء : (٥١٩/١٨) .

(٦) انظر : المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور ، ص ٧٤

(٧) عمر الرؤاسي شيخ مشهور ، عارف بالطرق ، حدث عنه أبو بكر الخطيب شيخه ، وأبو حامد الغزالي ، ولد سنة ٤٢٨هـ ، وعاش ٧٥سنة ، وتوفي سنة ٥٠٣هـ . انظر : سير أعلام النبلاء : (٣١٧/١٩) .

(٨) أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر بن إبراهيم بن داود النابلسي المقدسي الفقيه الشافعي ، ولد سنة ٤١٠هـ ، ولحقه أبو حامد الغزالي وتفقه به وناظره ، قدم دمشق سنة ٤٨٠هـ ، وكان فقيهاً إماماً زاهدًا ، توفي سنة ٤٩٠هـ . انظر : سير أعلام النبلاء : (١٣٦/١٩) .

رابعًا : تلاميذه :

درس على يد الغزالي – رحمه الله – كثير من التلاميذ ، بلغ عددهم ثلاث مئة طالب ، وذلك في بغداد [١]. وسأذكر بعضًا منهم :

١- القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري [٢] :

وهو من أشهر تلامذته وقد نقل عنه جوانب من حياته في أثناء مؤلفاته .

٢- أبو الفتح أحمد بن علي بن برهان بن الحمّامي [٣] .

٣- أبو سعد محمد بن يحيى بن منصور النيسابوري [٤] : من أشهر تلامذة الغزالي .

٤- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت ، الملقب بالمهدي[٥].

٥- مجد الدين أبو منصور محمد بن أسعد العطاري الطوسي الواعظ [٦] .

---

(١) انظر : المنقذ من الضلال ، ص ٦١ .

(٢) أبو بكر محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد ، المعروف بابن العربي المعافري الأندلسي الإشبيلي الحافظ المشهور ، له تصانيف كثيرة منها : كتاب عارضة الأحوذي في شرح الترمذي ، وتفقه على أبي حامد الغزالي والفقيه الشاشي وغيرهما . ولد سنة ٤٦٨هـ ، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٥٤٣هـ . انظر : وفيات الأعيان : (٢٩٦/٤) ، والوافي بالوفيات : (٣٣٠/٣) ، وسير أعلام النبلاء : (١٩٧/٢٠) .

(٣) أبو الفتح أحمد بن علي بن برهان بن الحمّامي ، كان بارعًا في المذهب الحنبلي وأصوله ، ومن أصحاب ابن عقيل الحنبلي ، ثم تحول إلى مذهب الشافعي ، ودرس بالنظامية، تفقه على الغزالي وغيره ، كان خارق الذكاء ، لا يكاد يسمع شيئًا إلا حفظه ، مات كهلاً سنة ٥١٨هـ . انظر : سير أعلام النبلاء : (٤٥٦/١٩) .

(٤) أبو سعد محمد بن أبي منصور النيسابوري ، الملقب محيي الدين ، الفقيه الشافعي ، تفقه على حجة الإسلام أبي حامد الغزالي ، وبرع في الفقه وصنف فيه وفي الخلاف ، وانتهت إليه رياسة الفقهاء بنيسابور ، واستفاد منه خلق كثير ، كانت ولادته سنة ٤٧٦هـ ، وتوفي مقتولاً على يد الغز سنة ٥٤٨هـ . انظر : وفيات الأعيان : (٢٢٣/٤) ، وسير أعلام النبلاء : (٣١٢/٢٠) .

(٥) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت ، الملقب بالمهدي ، صاحب دعوة عبد المؤمن بن علي بالمغرب ، رحل إلى المشرق في شبيبته طالبًا للعلم ، فانتهى إلى العراق ، واجتمع بأبي حامد الغزالي ، وحصل طرفًا من علم الشريعة والحديث وأصول الفقه ، كانت ولادته سنة ٤٨٥هـ ، وتوفي سنة ٥٢٤ هـ . انظر : وفيات الأعيان : (٤٥/٥) ، وسير أعلام النبلاء : (١٩/ ٥٢٩) ، وطبقات الشافعية ، للسبكي : (٣٦٤/٣) .

(٦) الشيخ الفقيه العلامة الواعظ الإمام مجد الدين أبو منصور ، محمد ابن أسعد بن محمد بن الحسين الطوسي العطاري الشافعي ، ولد سنة ٤٨٦هـ ، تفقه بطوس على أبي حامد الغزالي ، وكان فقيهًا واعظًا ، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٥٧١هـ . انظر : سير أعلام النبلاء : (٥٣٩/٢٠) .

خامسًا : آثاره العلمية ومؤلفاته

تعددت مشارب الغزالي وطلبه حقائق العلوم والمعارف ، مما كان له كبير الأثر في غـــزارة إنتاجه العلمي وكثرة مصنفاته في سائر العلوم .

ذكر ذلك عن نفسه حيث قال : " و لم أزل في عنفوان شبابي وريعان عمري ، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن عن الخمسين ، أقتحم لجة هـــذا البحـــر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمـــة ، وأهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشـــف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع .لا أغادر باطنيًا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ، ولا ظاهريًا إلا وأريد أن أعلم ظاهريته ، ولا فلسفيًا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلمًا إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صـــوفيًا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبدًا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقًا معطلاً إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وقد كـــان التعطش إلى درك حقـــائق الأمور دأبي وديدني مـــن أول أمـــــري وريعـــان عمري ، غريـــزة وفطـــرة من الله تعالى وضعتـــا في جبلتي ، لا باختيـــاري وحيلتي ، حـــتى انحلت عني رابطة التقليـــد ، وانكسرت علي العقـــائد المـــوروثة ، على قـــرب عهـــد ســـن الصبا " [1].

وقد أُلِّفَ كتاب جامع في مؤلفات الغزالي ، ذُكر فيه المطبـــوع والمخطـــوط ، وأمـــاكن وجوده، وذكر المقطوع بنسبته إلى الغزالي منها ، والمنحول والمشكوك في نسبته إليه ، وقد أفاض المؤلف في ذلك ، وشمل بحثه ٤٥٦ كتابًا ، وقطع بصحة ما يقارب ٧٢ كتابًا منـــها للغـــزالي ، وقسمها وفقًا لذلك ، بدءًا بالكتب صحيحة النسبة إلى الغزالي ، وجعلها مرتبة حسب تـــاريخ تأليفها بحسب اجتهاده وما توصل إليه [2].

---

(١) المنقذ من الضلال ، ص ٥٠ .

(٢) انظر : مقدمة كتاب مؤلفات الغزالي ، د. عبد الرحمن بـــدوي ، (٩-١٩) ، الطبعـــة الثانيـــة ، ١٩٧٧م ، وكالـــة المطبوعات – الكويت .

وقد ذكر الإمام الغزالي عددًا من مصنفاته في مقدمة كتابه المستصفى في علـــم الأصـــول ، فقال : " ..... ثم أقبلت على علم طريق الآخرة ، ومعرفة أسرار الدين الباطنة ، فصنفت فيـــه كتبًا بسيطة ككتاب إحياء علوم الدين ، ووجيزه ككتاب جواهر القرآن ، ووسيطه ككتـــاب كيمياء السعادة ..... " [١].

وهناك من قسم مؤلفات الغزالي إلى خمس مراحل بحسب الأطوار التي مرَّ بها الإمام الغزالي ، كما فعل موريس بويج سنة ١٩٥٩م حيث قدم بحثًا بعنوان : " الترتيب التـــاريخي لمؤلفـــات الغزالي " [٢] :

١- فترة التحصيل إلى وفاة شيخه إمام الحرمين الجويني سنة ٤٧٨هـــ .

مؤلفاته في هذه الفترة :

- التعليق في فروع المذهب (وهو ما علّقه عن شيخه الإسماعيلي في الفقه) .
- المنخول في أصول الفقه .

٢- خروجه سنة ٤٧٨هـــ إلى المعسكر قاصدًا الوزير نظام الملك ، وتدريسه في نظامية بغـــداد سنة ٤٨٤هـــ إلى اعتزاله التدريس بها سنة ٤٨٨هـــ .

ومن مؤلفاته في هذه الفترة :

- البسيط والوسيط والوجيز .
- مقاصد الفلاسفة ، وتهافت الفلاسفة .
- معيار العلم (في المنطق) .
- ميزان العمل (وهو من أهم كتبه في التصوف بعد الإحياء) [٣].
- المستظهري ، أو فضائح الباطنية .
- الاقتصاد في الاعتقاد .

---

(١) المستصفى في علم الأصول ، الغزالي : (٤/١) ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٢هـــ ، المطبعة الأميرية – مصر

(٢) انظر : الإمام الغزالي وأثره على علم الكلام والفلسفة ، محمود أحمد خفاجي ، ص (٥٨-٦١) ، رسالة دكتوراه ، جامعة الأزهر – مصر .

(٣) انظر : ميـــزان العمـــل ، الإمـــام الغزالي : ص (١٨٤-١٨٥) ، تحقيق : سليمان دنيـــا ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٤م، دار المعارف – مصر .

٣- من سنة ٤٨٨هـ - ٤٩٩هـ وهي مرحلة العزلة وتزهده واعتكافه وتنقله بين البلدان الإسلامية .

ومن مؤلفاته في هذه الفترة :

- إحياء علوم الدين .
- الأربعين في أصول الدين .
- المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى .

وقد ألَّف كتابه هذا على طريقة الصوفية ، حيث ذكر مصطلحاتهم وعباراتهم ، وذكر أقوال أئمتهم ، والاعتذار عنهم وعن أقوالهم المخالفة للشرع [١].

- كيمياء السعادة (في الفلسفة والمنطق) ، جواهر القرآن ، بداية الهداية ، المضنون به على غير أهله ، مشكاة الأنوار .

وهي كتب مختلف في نسبتها إليه ، حيث ينسبها إليه جماعة من العلماء [٢] ، وينكر هذه النسبة آخرون كابن الصلاح [٣] ، وقد رجّح الدكتور سليمان دنيا نسبة المضنون به إليه [٤].

ومثل هذه الكتب كانت من أعظم ما أُنكر عليه لما فيها من مخالفات للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة ، ولهذا طعن بعضهم في نسبة مثل هذه الكتب إليه ، والبعض قال برجوعه عنها ؛ لوجود نقيض ما يقوله في مواضع أخرى ثبتت عنه ، وموته على مطالعة الصحيحين .[٥]

- أيها الولد (وهو كتاب في الأخلاق والتربية) .

---

(١) انظر : أسماء الله الحسنى ، عبد الله صالح الغصن ، ص (٢٥٨) ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ، دار الوطن - الرياض.

(٢) انظر : نقض المنطق ، ابن تيمية ، ص (٥٣) ، صححه : محمد حامد الفقي ، الطبعة الأولى ،١٣٧٠هـ ، مطبعة السنة المحمدية — القاهرة ، ومناهج الأدلة ، ابن رشد ، ص (١٨٢) ، تحقيق : محمود قاسم ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٩م ، مكتبة الأنجلو — القاهرة .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء : (٣٢٩/١٩) .

(٤) انظر : الحقيقة في نظر الغزالي ، سليمان دنيا ، ص (٧٩-٨٠-٩٥) ، ١٩٦٥م ، دار المعارف — مصر .

(٥) انظر : مجموع الفتاوى : (٣٧٩/٢٩-٣٨٠) و (٢٣٨/١٣) و (١١٤/١٧-١٢٢) ، وانظر : موقف العلماء من الغزالي ، ص ٥٢-٥٣ من هذا البحث .

٤- عودته إلى التدريس في المدرسة النظامية بنيسابور من سنة ٤٩٩هـ -٥٠٣هـ .

ومن مؤلفاته في هذه الفترة :

- المنقذ من الضلال .
- المستصفى من علم الأصول .
- الإملاء على كتاب الإحياء .

وقد ردّ فيه على اعتراضات بعض المعاصرين له على مواضع من إحياء علوم الدين ، وقد طُبع مع الإحياء ، وأيضًا بهامش إتحاف السادة المتقين [١].

٥- السنوات الأخيرة من حياته من سنة ٥٠٣هـ إلى وفاته سنة ٥٠٥هـ .

ومن مؤلفاته في هذه الفترة :

- إلجام العوام عن علم الكلام .
- منهاج العابدين .

وهو كتاب في التصوف ومن آخر ما ألفه الغزالي [٢].

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين ، للغزالي ، ج٥ ، حرره وصححه : د. عبد المعطي أمين قلعجي ، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م ، دار صادر- بيروت ، وإتحاف السادة المتقين ، للزبيدي .

(٢) انظر : إتحاف السادة المتقين : (٢٧/١) ، ومؤلفات الغزالي : (٤٩٤-٤٩٥) ، وكشف الظنون : (١٨٧٦/٢) .

المبحث الثاني : آراء العلماء في الغزالي وكتابه إحياء علوم الدين

المطلب الأول : التعريف بكتاب إحياء علوم الدين

المطلب الثاني : موقف العلماء من الغزالي وكتابه إحياء علوم الدين

المطلب الثالث : مصادر الغزالي في إحياء علوم الدين وتقويم هذه المصادر.

المبحث الثاني

آراء العلماء في الغزالي وكتابه إحياء علوم الدين

المطلب الأول : التعريف بكتاب إحياء علوم الدين :

صنّف الغزالي كتابه الإحياء في الفترة مابين ٤٨٨هـ-٤٨٩هـ ، وهي الفترة التي آثر فيها العزلة ، وقضاها متنقلاً بين أماكن متعددة ، وامتدت قرابة عشر سنوات [١] .

قال ابن الجوزي : " وأخذ في تصنيف كتاب الإحياء في القدس ، ثم أتمه بدمشق ، إلا أنه وضعه على مذهب الصوفية " [٢].

ومما دفع الغزالي إلى تأليف هذا الكتاب ما كان يراه من انشغال الكثيرين بالدنيا عن الآخرة وطلب المباهاة .

قال الغزالي -رحمه الله- : " فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ، مما سماه الله سبحانه في كتابه فقهًا وحكمةً وعلمًا وضياءً ونورًا ، وهدايةً ورشدًا ، فقد أصبح بين الخلق مطويًا ، وصار نسيًا منسيًا .

ولما كان هذا ثلماً في الدين ملماً ، وخطباً مدلهماً ، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهماً ، إحياء لعلوم الدين ، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحاً لمنتهى العلوم النافعة عن النبيين والسلف الصالحين " [٣] .

ثم بيّن الغزالي – رحمه الله – منهجه في الكتاب إذ قسمه إلى أربعة أرباع وهي : ربع العبادات ، ربع العادات ، ربع المهلكات ، وربع المنجيات ، ويشمل كل ربع منها على عشرة كتب ، وكل كتاب يشمل عدداً من الأبواب ، وضحها الغزالي- رحمه الله - إجمالاً في مقدمة كتابه .

---

(١) انظر : نشأة ومسيرة الغزالي العلمية من هذا البحث ، ص٣١ .

(٢) المنتظم : (١٢٥/١٧).

(٣) إحياء علوم الدين : (١٦/١) .

حيث قال الغزالي :" فأما ربع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق سننها ، وأسرار معانيها ، ما يضطر العالم الكامل إليه ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه.....

وأما ربع العادات ، فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، وأغوارها ، ودقائق سننها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وهي مما لا يستغني عنها متدين .

وأما ربع المهلكات ، فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه . وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته ، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها تترتب ، ثم العلاقات التي بها تتعرف ، ثم طرق المعالجة التي بها منها يتخلص . كل ذلك مقرونًا بشواهد الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربع المنجيات ، فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين ، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها، وسببها الذي به تجتلب ، وثمرتها التي منها تستفاد ، وعلاماتها التي بها تتعرف ، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب ، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل [١]".

وقد صُنِّف في هذه المعاني كتب كثيرة ، ولكن الغزالي يرى أن لكتابه إحياء علوم الدين ميزة عن غيره حيث قال : " ويتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور :

الأول : حل ما عقدوه وكشف ما أجملوه .

الثاني : ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه .

الثالث : إيجاز ما طولوه وضبط ما قرروه .

الرابع : حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه .

الخامس : تحقيق أمور اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلاً ، إذ الكل وإن تواردوا على منهج واحد فلا مستنكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه

---

(١) إحياء علوم الدين : (١٧/١) .

ويغفل عنه رفقـــاؤه ، أو لا يغفل عن التنـــبيه ولكن يسهو عن إيراده في الكتب أو لا يسهو ، ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف . فهذه خواص هذا الكتاب ، مع كونـــه حاويًـــا لمجامع هذه العلوم " [(١)].

ثم بيّن ثمرة هذا العلم فقال : " فثمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح ، المتوصل بـــه إلى حياة تدوم أبد الآباد، فأين منه الطب الذي يعالج به الأجساد ، وهـــي معرضـــة بالضـــرورة للفســـاد في أقرب الآماد ؟ " [(٢)].

(١) إحياء علوم الدين : (١٧/١) .

(٢) المرجع السابق : (١٨/١) .

المطلب الثاني : موقف العلماء من الغزالي وكتابه إحياء علوم الدين

يعتبر الغزالي عالمًا من علماء عصره ، الذين تنوعت معارفهم واتسعت ثقافتهم ، فكان أحد العمالقة الذين عرفهم تاريخ العلم والثقافة .

وحياة الغزالي الفكرية والروحية قد كثرت فيها التموجات والاتجاهات ، فقد نشأ في عصر تعددت فيه النحل والمدارس العقلية ، وتصارعت فيه الاتجاهات الفكرية والدينية ، ووجد نفسه أمام بحر متلاطم الأمواج من اختلاف المذاهب والتيارات .

فلم يقف هكذا بل اقتحم لجة هذا البحر في شبابه ، محاولاً التعرف على كل طائفة ليكشف عن عقيدتها وأسرارها .

وكان لتصنيفاته في شتى المجالات والفنون ، أثر كبير في الحياة العلمية ، فكانت ثقافته ميدانًا رحبًا للباحثين ، يجد كل منهم فيه بغيته ، فقد كتب في العديد من فنون العلم .

فالفقهاء يبحثون في كتبه الفقهية في مذهب الإمام الشافعي ، وعلماء الأصول يدرسونه من خلال كتبه الأصولية ، والمشتغلون بالفلسفة والكلام والمنطق يبحثون في كتبه التي صنّفها في هذا المجال ، والباحثون في التصوف والأخلاق والتربية يدرسونه من خلال موسوعته الكبرى (إحياء علوم الدين) وغيره من الكتب ، والباحثون في الدراسات النفسية والاجتماعية يجدون مجالاً رحبًا لهم من خلال بعض كتبه وخصوصًا الإحياء [١].

وقد كتب عنه أساتذة من أعضاء هيئة التدريس بجامعة قطر ، وعن كتابه : أن من قرأ كتاب إحياء علوم الدين وحده ، وجد فيه من النظرات العميقة ، والتحليلات الدقيقة ، في نقد المجتمع وبيان نقاط الضعف فيه ، وعوامل الفساد في شتى نواحيه ، ما يشهد للغزالي بأنه - برغم نزعته الصوفية الزهدية — ناقد اجتماعي من الطراز الأول ، كما أنه عالم نفسي [٢].

---

(١) انظر : الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، يوسف القرضاوي ، ص (٢٠-٢٢) باختصار ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ ، مكتبة وهبة — القاهرة .

(٢) الإمام الغزالي " بحوث ومقالات بأقلام نخبة من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة " ، ص٦٤، ١٤٠٦هـ ، جامعة قطر.

ومن ثم لا نجد التاريخ يصنع لأبي حامد الغزالي صورة واحدة مستوية المعالم ، ولكنه يصوره في صور كثيرة تتجاذبها الآراء والمذاهب . فشخصيته كانت ولا زالت معترك الأقلام .

ذكر السبكي في الطبقات مما نقله عن عبد الغافر الفارسي[1] في ترجمته للغزالي ، قال : " فوقعت للغزالي اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة وملاقاة الخصوم اللد ، ومناظرة الفحول ومناقدة الكبار ، وظهر اسمه في الآفاق "[2].

قال الأصفهاني : " وفي سنة ٤٨٤هـ قدم الشيخ أبو حامد الغزالي إلى بغداد للتدريس في المدرسة النظامية ، وكان في العلم بحراً زاخراً ، وبدراً زاهراً ، وأشرقت غرائبه في المشرقين والمغربين "[3].

ومثل هؤلاء يختلف الناس في تقويمهم اختلافًا كبيرًا ، فمنهم من يعلو بهم إلى القمة ، ومنهم من يهوي بهم إلى الحضيض .

ونظرًا لأهمية كتاب الإحياء من بين مصنفات الغزالي ، ولما وقع من الإمام الغزالي في هذا الكتاب ؛ ما استدعى المواجهة بينه وبين علماء عصره ومن بعدهم ، فقد انقسم العلماء في موقفهم من كتاب إحياء علوم الدين إلى فريقين :

الفريق الأول : يرى في الكتاب أنه إحياء لعلوم الدين حقًا ، وأثنوا على الكتاب ، ومنهم مغالون . وقد تناسى هؤلاء أن الغزالي -رحمه الله- بشر يصيب ويخطئ ، ووقوع الخطأ منه لا ينقص من قدره وإمامته ، وهو مجتهد فإن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر .

الفريق الثاني : له رأي آخر ، وهؤلاء اختلفت مواقفهم بحسب الباعث الذي ينقدون الكتاب على أساسه .

(١) هو عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر بن محمد الشيخ الكبير أبي الحسين الفارسي ثم النيسابوري ، ولد سنة ٤٥١هـ وتفقه على إمام الحرمين وغيره وكان خطيبًا لنيسابور ، صنف كتاب السياق لتاريخ نيسابور ، وله أيضًا كتاب المفهم شرح صحيح مسلم ، توفي سنة ٥٢٩هـ. انظر: سير أعلام النبلاء : (١٦/٢٠) ، وطبقات الشافعية ، للسبكي : (١١١/٤) .

(٢) طبقات الشافعية : (١٠٧/٤) .

(٣) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص (٧٨-٧٩) .

ولكن ظهر فريق ثالث : أعطوا كل ذي حق حقه ، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته ، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول ، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح ، بل قبلوا ما يُقبل ، وردوا ما يُرد.

وهنا لا بد من استعراض أقوال المادحين والناقدين والمنصفين قديمًا وحديثًا .

أولاً : أقوال المادحين للغزالي وكتابه إحياء علوم الدين

– شيخه إمام الحرمين الجويني كان يقول عنه : الغزالي بحر مغدق [١].

– وقال تلميذه محمد بن يحيى : " الغزالي لا يعرف فضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله " [٢].

– عبد الغافر الفارسي قال عنه : " حجة الإسلام والمسلمين ، إمام أئمة الدين ، من لم تر العيون مثله لسانًا وبيانًا ونطقًا وخاطرًا وذكرًا وطبعًا " [٣].

– قال ابن النجار[٤] : " أبو حامد إمام الفقهاء على الإطلاق ، ورباني الأمة بالاتفاق ، ومجتهد زمانه ، وعين أوانه ، برع في المذهب والأصول والخلاف والجدل والمنطق ، وقرأ الحكمة والفلسفة ، وفهم كلامهم ، وتصدى للرد عليهم ، وكان شديد الذكاء ، قوي الإدراك ، ذا فطنة ثاقبة ، وغوص على المعاني " [٥].

– وقال الجيلي في تاريخه : " أبو حامد ... برع في الفقه ، وكان له ذكاء وفطنة وتصرّف ، وقدرة على إنشاء الكلام ، وتأليف المعاني ، ودخل في علوم الأوائل " [٦].

---

(١) انظر : طبقات الشافعية ، للسبكي : (١٠٣/٤) .

(٢) طبقات الشافعية ، للسبكي : (١٠٦/٤) .

(٣) المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور ، ص٧٣ .

(٤) ابن النجار : هو الإمام العالم الحافظ ، محدث العراق ومؤرخ العصر ، محب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود بن حسن بن هبة الله البغدادي ، ولد سنة ٥٧٨هـ ، له تاريخ بغداد الذي سماه التاريخ المجدد لمدينة السلام وأخبار فضلائها من الأعلام ، توفي سنة ٦٤٣هـ . انظر : سير أعلام النبلاء : (١٣١/٢٣) .

(٥) سير أعلام النبلاء : (٣١٨/١٤) .

(٦) المرجع السابق : (٣١٢/١٤) .

- وقال السبكي في ترجمته للإمام الغزالي : " حجة الإسلام ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام ، جامع أشتات العلوم ، والمبرز في المنقول منها والمفهوم ، جرت الأئمة قبله شأوا ولم تقع منه بالغاية ولا وقف عند مطلب وراءه مطلب لأصحاب النهاية والبداية ..... حتى أخمل من القرناء كل خصم بلغ مبلغ السها وأخمد من نيران البدع كل ما لا تستطيع أيدي المجالدين مسها ...... جاء والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء لمصابيح السماء ، وأفقر من الجدباء إلى قطرات الماء ، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيف بحلاوة مقاله، ويحمي حوزة الدين " (١).

- وقال الشيخ محمد مصطفى المراغي ، شيخ الأزهر في وقته ، في تقديمه لكتاب الدكتور: أحمد فريد رفاعي ، عن الغزالي :

" إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم ، وشعب المعرفة ، فإذا ذكر ابن سينا ، أو الفارابي خطر بالبال فيلسوفان من الفلاسفة ، وإذا ذكر البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ ، والصدق ، والأمانة ، والدقة ، ومعرفة الرجال ....

أما إذا ذكر الغزالي فقد تشعبت النواحي ، ولم يخطر بالبال رجل واحد ، بل يخطر بالبال رجال متعددون ، لكل واحد قدرته ، وقيمته ... يخطر بالبال الغزالي الأصولي الحاذق ، الماهر ، والغزالي الفقيه الحر ، والغزالي المتكلم ، إمام السنة وحامي حماها ، والغزالي الاجتماعي ، والغزالي الفيلسوف ، أو الذي ناهض الفلسفة ، وكشف عما فيها ، إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره ، رجل متعطش إلى معرفة كل شيء ، نهم إلى فروع المعرفة " (٢).

- وقال أبو الحسن الندوي : " وكأن - الغزالي- حاول أن يكون هذا الكتاب كمرشد ومرب مغنيًا عن غيره ، قائمًا مقام المكتبة الإسلامية ، لذلك جعله يحتوي على العقائد ، والفقه، وتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، والحصول على مرتبة الإحسان " (٣).

---

(١) طبقات الشافعية ، للسبكي : (٤/١٠١-١٠٢) .

(٢) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، القرضاوي ، ص (٢٣-٢٤) .

(٣) الإمام الغزالي ، صالح أحمد الشامي ، ص (١٥١-١٥٢) ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ ، دار القلم – دمشق .

ثانيًا : أقوال الناقدين للغزالي وكتابه إحياء علوم الدين

– قال أبو بكر الطرطوشي[١] : "شحن أبو حامد (الإحياء) بالكذب على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ، فلا أعلم كتابًا على بسيط الأرض أكثر كذبًا منه . ثم شبكه بمذاهب الفلاسفة، ومعاني رسائل إخوان الصفا[٢]، وهم قوم يرون النبوة مكتسبة ، وزعموا أن المعجزات حيل ومخاريق " [٣].

– وقال أيضاً في رسالة سُئل فيها عن الإحياء : " فأما ما ذكرت من أمر الغزالي فرأيت الرجل وكلمته ، ورأيته جليلاً من أهل العلم، قد نهضت به فضائله ، واجتمع فيه العقل والفهم ، وممارسة العلوم طول عمره . وكان على ذلك معظم زمانه ، ثم بدا له عن طريق العالم ، ودخل في غمار العمال ، ثم تصوف ، فهجر العلوم وأهلها ، ودخل في علوم الخواطر، وأرباب العقول، ووساوس الشيطان ، ثم شابها بآراء الفلاسفة ، ورموز الحلاّج[٤]، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين " [٥].

– ولأبي عبدا لله المازري[٦] كلام على (الإحياء) يقول فيه :" وبعد فقد تكررت مكاتبتكم في استعلام مذهبنا في الكتاب المترجم (بإحياء علوم الدين) ، وذكرتم أن آراء الناس فيه اختلفت، فطائفة انتصرت وتعصبت لإشهاره، وطائفة منه حذرت وعنه نفرت ، وطائفة لعيبه

---

(١) هو الإمام العلامة القدوة الزاهد شيخ المالكية ، أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الأندلسي ، وله كتاب سراج الملوك ، ولد سنة ٤٥١هـ ، وتوفي سنة ٥٢٠هـ . انظر : وفيات الأعيان : (٢٦٢/٤) ، سير أعلام النبلاء : (٤٩٠/١٩) . والطرطوشي نسبة إلى طرطوشة وهي آخر حد المسلمين في شمال الأندلس ، ثم استولى العدو عليها بعد ذلك ، ولها سور حصين ، واشتهرت بخشب الصنوبر . انظر : الروض المعطار ، ص ٣٩١ .

(٢) سيأتي التعريف بها ، انظر ص(٥٧) من هذا البحث .

(٣) سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ص٣١٨ .

(٤) الحسين بن منصور الحلاّج ، كنيته أبو مغيث . والناس فيه مختلفون ، رده أكثر المشايخ ، وأثنى بعضهم عليه ، قتل ببغداد سنة ٣٠٩هـ . انظر : طبقات الصوفية ، ص(٢٣٦) .

(٥) تاريخ الإسلام ، الذهبي ، ص١٢٢.

(٦) هو الشيخ الإمام العلامة البحر المتقن أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر المازري المالكي ، صنّف المعلم بفوائد شرح مسلم ، وإيضاح المحصول في الأصول ، ومات سنة ٥٣٦هـ وعمره ٨٣ سنة . انظر : وفيات الأعيان : (٢٨٥/٤) ، وسير أعلام النبلاء : (١٠٤/٢٠) .

أظهرت ، وكتبه حرقت[١] ، ولم ينفرد أهل المغرب باستعلام ما عندي ، بل كاتبني أهل المشرق مثل ذلك ، فوجب عندي إبانة الحق . ولم نتقدم إلى قراءة هذا الكتاب سوى نُبَذٍ منه ، فإن نفّس الله في العمر ، مددت في هذا الكتاب الأنفاس ، وأزلت عن القلوب الالتباس .
واعلموا أن هذا الرجل ، وإن لم أكن قرأت كتابه[٢] ، فقد رأيت تلامذته وأصحابه ، فكل منهم يحكي لي نوعاً من حاله وطريقته ، استلوح منها من مذاهبه وسيرته ، ما قام لي مقام العيان، فأنا أقتصر في هذا الإملاء على ذكر حال الرجل ، وحال كتابه ، وذكر جمل من مذاهب الموحدين ، والفلاسفة ، والمتصوفة وأصحاب الإشارات . فإن كتابه متردد بين هذه الطرائق الثلاث ، لا تعدوها ، ثم أُتبع ذلك بذكر حيل أهل مذهب على أهل مذهب آخر ، ثم أبين عن طرق الغرور ، وأكشف عما فيه خيال الباطل ، ليحذر من الوقوع في حبائل صائده"[٣].

ثم أثنى المازري على أبي حامد في الفقه فقال : " هو بالفقه أعرف منه بأصوله ، وأما علم الكلام الذي هو أصول الدين ، فإنه صنف فيه أيضًا ، وليس بالمستبحر فيها ، ولقد فطنت لسبب عدم استبحاره ، وذلك لأنه قرأ علوم الفلسفة قبل استبحاره في فن الأصول ، فأكسبته قراءة الفلسفة جرأة على المعاني ، وتسهلاً للهجوم على الحقائق ، لأن الفلاسفة تمر على خواطرها ، وليس لها حكم شرع يترعها ولا يخاف من مخالفة أئمة تتبعها .

وعرفني بعض أصحابه أنه كان له عكوف على رسائل إخوان الصفا ، وهي إحدى وخمسون رسالة ، ومصنفها فيلسوف قد خاض في علم الشرع والنقل ، فخرج ما بين العلمين ، وذكر الفلسفة ، وحسَّنَها في قلوب أهل الشرع بآيات يتلو عندها ، وأحاديث يذكرها . ثم كان في هذا الزمان المتأخر رجل من الفلاسفة

(١) يشير إلى حادثة إحراق كتب الغزالي وكتابه إحياء علوم الدين في المغرب في عهد على بن يوسف بن تاشفين . انظر : الغزالي والمغرب ، محمد المنتصر الكتاني : ص٧٠١ ضمن مهرجان الغزالي في دمشق .
(٢) يظهر أن العبارة وإن لم أكن قرأت كتابه كله ، يؤكد ذلك ما ذكره المازري سابقًا حيث قال : " ولم يتقدم لي قراءة هذا الكتاب سوى نبذ منه ، فإن نفّس الله في العمر مددت فيه الأنفاس . مما يؤكد سقوط كلمة (كله) .انظر : المعلم بفوائد مسلم ، للمازري ، بتحقيق : محمد النيفر .
(٣) تاريخ الإسلام ، الذهبي ، ص١٢٠ .

يعرف بابن سينا[1] ، ملأ الدنيا تواليف في علوم الفلسفة ، وهو فيها إمام كبير ، وقد أداه قوته في الفلسفة إلى أن حاول رد أصول العقائد إلى علم الفلسفة ، وتلطف جهده حتى تم له ما لم يتم لغيره ، وقد رأيت جملاً من دواوينه ، ووجدت هذا الغزالي يعول عليه في أكثر ما يشير إليه من علوم الفلسفة " [2].

ثم ذكر المازري توهنه أكثر ما في الإحياء من الأحاديث وقال : " عادة المتورعين أن لا يقولوا : قال مالك ، قال الشافعي. فيما لم يثبت عندهم . وفي كتابه مذاهب وآراء في العمليات هي خارجة عن مذاهب الأئمة . واستحسانات عليها طلاوة .

وقد رأيت له في الجزء الأول أنه ذكر أن في علومه هذه ما لا يسوغ أن تودع في كتاب فليت شعري، أحق هو أو باطل ؟ فإن كان باطلاً فصدق، وإن كان حقًا ، وهو مراده بلا شك، فلم لا يودع في الكتب، ألغموضه ودقته ؟ فإن كان هو فهمه، فما المانع لأن يفهمه غيره"[3] .

– قال أبو عبدا لله بن حمدين القرطبي[4] : " إن بعض من يعظ ممن كان ينتحل رسم الفقه ، ثم تبرأ منه شغفًا بالشرعة الغزالية ، والنحلة الصوفية ، أنشأ كراسة تشمل على معنى التعصب لكتاب أبي حامد إمام بدعتهم ، فأين هو من شنع مناكيره ، ومضاليل أساطيره المباينة للدين وزعم أن هذا من علم المعاملة المفضي إلى علم المكاشفة الواقع بهم على سر الربوبية الذي لا يسفر عن قناعه ، ولايفوز باطلاعه إلا من تمطى[5] إليه ثَبَجَ[6] ضلالته التي رفع لهم أعلامها ، وشرع أحكامها " [7] .

---

(١) سيأتي التعريف به ، انظر ص(٥٧) من هذا البحث .

(٢) تاريخ الإسلام ، الذهبي ، ص (١٢٠ – ١٢١) .

(٣) المرجع السابق ، ص (١٢١– ١٢٢) .

(٤) العلامة قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين الأندلسي المالكي ، صاحب فنون ومعارف وتصانيف ، ولي القضاء ليوسف بن تاشفين الملك ، توفي سنة ٥٠٨هـ ، وعمره ٦٩ سنة . انظر : سير أعلام النبلاء : (١٩/٣٣٤) .

(٥) تمطى : امتد وطال . انظر : المعجم الوسيط ، ص٨٧٦ ، مادة : (مطا) .

(٦) ثبج : ثبج الكلام تبجًا أي : عمّاه و لم يبينه . انظر : المعجم الوسيط ، ص٩٣ ، مادة : (ثَبَج) .

(٧) سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، ص٣١٦ .

- وقال ابن الجوزي : " قد جمعت أغلاط الكتاب — أي الإحياء - وسميته (إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء) وأشرت إلى بعض ذلك في كتابي المسمى (تلبيس إبليس) .

ثم قال : ثم إنه -أي الغزالي- نظر في كتاب أبي طالب المكي ، وكلام المتصوفة القدماء فاجتذبه ذلك بمرة عما يوجبه الفقه ، وذكر في كتاب الإحياء من الأحاديث الموضوعة وما لا يصح غير قليل ، وسبب ذلك قلة معرفته بالنقل ، فليته عرض تلك الأحاديث على من يعرف ، وإنما نَقَلَ نقْل حاطب ليل "[١].

ثالثًا : أقوال المنصفين

- شيخ الإسلام ابن تيمية :

قال : " وتجد أبا حامد الغزالي مع أن له من العلم بالفقه والتصوف والكلام والأصول وغير ذلك ، مع الزهد والعبادة وحسن القصد ، وتبحره في العلوم الإسلامية أكثر من أولئك يذكر في كتاب (الأربعين) ونحوه ، كتابه (المضنون به على غير أهله) ، فإذا طلبت ذلك الكتاب واعتقدت فيه أسرار الحقائق وغاية المطالب ، وجدته قول الصابئة المتفلسفة بعينه ، قد غيرت عباراتهم وترتيباتهم ، ومن لم يعلم حقائق مقالات العباد ومقالات أهل الملل ، يعتقد أن ذاك هو السر الذي كان بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وأبي بكر ، وأنه هو الذي يطلّع عليه المكاشفون الذين أدركوا الحقائق بنور إلهي .

فإن أبا حامد كثيرًا ما يحيل في كتبه على ذلك النور الإلهي ، وعلى ما يعتقد أنه يوجد للصوفية والعباد ، برياضتهم وديانتهم من إدراك الحقائق وكشفها لهم ، حتى يزنوا بذلك ما ورد به الشرع "[٢].

وذكر الأسباب التي أدت بالغزالي إلى ذلك فقال : " وسبب ذلك أنه كان قد علم بذكائه وصدق طلبه ، ما في طريق المتكلمين والمتفلسفة من الاضطراب وآتاه الله إيمانًا مجملاً - كما أخبر به عن نفسه - وصار يتشوف إلى تفصيل الجملة ، فيجد في كلام المشايخ والصوفية ما هو

(١) المنتظم ، ص (١٢٥- ١٢٦) .

(٢) مجموع الفتاوى : (٤ / ٦٣ - ٦٤) .

أقرب إلى الحق ، وأولى بالتحقيق من كلام الفلسفة والمتكلمين ، والأمر كما وجده ، لكن لم يبلغه من الميراث النبوي الذي عند خاصة الأمة من العلوم والأحوال ، وما وصل إليه السابقون الأولون من العلم والعبادة ، حتى نالوا من المكاشفات العلمية والمعاملات العبادية ما لم ينله أولئك . فصار يعتقد أن تفصيل تلك الجملة يحصل بمجرد تلك الطريق ، حيث لم يكن عنده طريق غيرها ، لانسداد الطريقة الخاصة السنية النبوية عنه بما كان عنده من قلة العلم بها ، ومن الشبهات التي تقلدها عن المتفلسفة والمتكلمين ، حتى حالوا بها بينه وبين تلك الطريقة .

ولهذا كان كثير الذم لهذه الحوائل ولطريقة العلم ، وإنما ذاك لعلمه الذي سلكه ، والذي حُجب به عن حقيقة المتابعة للرسالة ، وليس هو بعلم ، وإنما هو عقائد فلسفية وكلامية . ولهذا صار طائفة ممن يرى فضيلته وديانته يدفعون وجود هذه الكتب عنه " [1].

ثم بيّن ابن تيمية - رحمه الله — مضمون كتب الغزالي التي يُكذب بثبوتها بعض العلماء فقال:

" وأما المضنون به على غير أهله ، فقد كان طائفة أخرى من العلماء يكذبون ثبوته عنه، وأما أهل الخبرة به وبحاله ، فيعلمون أن هذا كله كلامه ، لعلمهم بمواد كلامه ومشابهة بعضه بعضًا ، ولكن كان هو وأمثاله مضطربين لا يثبتون على قول ثابت ، لأن عندهم من الذكاء والطلب ما يتشوفون به إلى طريقة خاصة الخلق ، ولم يُقدَّر لهم سلوك طريق خاصة هذه الأمة ، الذين ورثوا عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - العلم والإيمان ، وهم أهل حقائق الإيمان والقرآن ، وأهل الفهم لكتاب الله والعلم والفهم لحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وإتباع هذا العلم بالأحوال والأعمال المناسبة لذلك ، كما جاءت به الرسالة " [2] .

ثم بيّن الموقف الصحيح من كتب الغزالي فقال :

" فأما هذه الكتب - يعني المخالفة للحق- فلا يُلتفت إليها ، وأما الرجل فيسكت عنه ، ويفوض أمره إلى الله ومقصوده أنه لا يذكر بسوء ؛ لأن عفو الله عن الناسي والمخطئ وتوبة المذنب تأتي على كل ذنب ، وذلك من أقرب الأشياء إلى هذا وأمثاله ، ولأن مغفرة الله

---

(١) مجموع الفتاوى : (٤/ ٦٤-٦٥) .

(٢) المرجع السابق : (٤/٦٥) .

بالحسنات منه ومن غيره ، وتكفيره الذنوب بالمصائب تأتي على محقق الذنوب ، فلا يقدم الإنسان على انتفاء ذلك في حق معين إلا ببصيرة ، لاسيما مع كثرة الإحسان والعلم الصحيح ، والعلم الصالح والقصد الحسن ، وهو يميل إلى الفلسفة ، لكنه أظهرها في قالب التصوف والعبارات الإسلامية . ولهذا فقد رد عليه علماء المسلمين ، حتى أخص أصحابه أبو بكر بن العربي قال : " شيخنا أبو حامد دخل في بطن الفلاسفة ، ثم أراد أن يخرج منه فما قدر "[1].

وقال ابن تيمية أيضاً : " والإحياء فيه فوائد كثيرة ، لكن فيه مواد مذمومة ، فإن فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد ، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدوًا للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين . وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هذا في كتبه ، وقالوا : أمرضه (الشفاء) – يعني كتاب شفاء ابن سينا في الفلسفة – .

وفيه — أي الإحياء – أحاديث وآثار ضعيفة ، بل موضوعة كثيرة. وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم . وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة ، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة ، ما هو أكثر مما يرد منه ، فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه "[2].

– أبو العباس القبّاب[3] :

قال ضمن إجابته عن سؤال وُجَّه إليه عن التصوف وطرقه :" ومازلت أتمنى أن لو قيّض الله تعالى رجالاً لهم حظ من العلوم وعناية بهذه الطريقة إلى تلخيص كتاب (الإحياء) فإنه كتاب جمع من العلوم المحتاج إليها ما لا يوجد في غيره ، لاسيما الدواخل والشواغل المفسدة للمعاملات ، ومعرفة عيوب النفس ، وكيفية مداواتها ، فهو فيها غاية المطلوب .

لكنه يشوبه من الاستشهاد بالأحاديث الواهية الإسناد ما يضر بالجاهل إذا لقي الله ، فإنه يعتقد جميع ما فيه صحيحاً لا مطعن فيه . وأشدها عليّ أيضاً من هذا ،

(١) مجموع الفتاوى : (٤/٦٥-٦٦) .

(٢) مجموع الفتاوى : (١٠/٥٥١-٥٥٢) .

(٣) لم أقف على ترجمته .

ما شحنه به من العلم الذي يسميه المكاشفة ، .... فإن فيه أموراً يخفى غورها على كثير "[١].

- الإمام الذهبي :

قال : " قد ألّف الرجل في ذم الفلاسفة كتاب (التهافت) ، وكشف عوارهم ، ووافقهم في مواضع ظناً منه أن ذلك حق ، أو موافق للملة ، و لم يكن له علم بالآثار ولا خبرة بالسنن النبوية القاضية على العقل ، وهو داء عضال ، وجرب مرد ، وسم قاتل ، ولولا أن أبا حامد من كبار الأذكياء ، وخيار المخلصين ، لتلف .

فالحذار من هذه الكتب ، واهربوا إلى دينكم من شبه الأوائل ، وإلا وقعتم في الحيرة ، فمن رام النجاة والفوز فليلزم العبودية ، وليدمن الاستغاثة بالله ، وليبتهل إلى مولاه في الثبات على الإسلام وأن يتوفى على إيمان الصحابة ، وسادة التابعين ، والله الموفق ، فبحسن قصد العالم يغفر له وينجو بإذن الله "[٢].

وقال: " رحم الله الإمام أبا حامد ، فأين مثله في علومه وفضائله ، ولكن لا ندّعي عصمته من الغلط والخطأ "[٣].

(١) إحياء علوم الدين في ميزان العلماء والمؤرخين ، علي حسن علي عبد الحميد ، ص (٢٨- ٢٩) ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ ، مكتبة ابن الجوزي – الأحساء .

(٢) سير أعلام النبلاء : ص (٣١١ – ٣١٢) .

(٣) المرجع السابق : ص ٣٢٦.

المطلب الثالث : مصادر الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين وتقويم هذه المصادر :

لـــمّا كان لكتاب إحياء علوم الدين من مكانة عند كثير من المثقفين ، وخاصة المتصوفة في كثير من أنحاء العالم الإسلامي . ولما تناوله العلماء قديمًا وحديثًا من مدح أو نقد لهذا الكتاب . ولأن الإمام الغزالي استقى فكره من مصادر مختلفة ، وموارد متباينة ، وثقافات متعددة ، تبعًـــا للعصر الذي عاش فيه من اصطراع المذاهب والعقائد ، مما كان له كبير الأثر في ظهـــور ذلـــك على مؤلفاته بصفة عامة ، وكتابه الإحياء بصفة خاصة .

فإن من المناسب ذكر المصادر التي اعتمد عليها الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الـــدين عامة، وفي ربع المنجيات منه خاصة .

وقد تنوعت مصادر الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين مابين شـــرعية ، كلاميـــة ، فلسفية ، وصوفية .

أولاً : المصادر الشرعية

فقد أشار إليها في مقدمته لكتاب الإحياء حيث قال :" وأما ربع المهلكات ، فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه .....كل ذلك مقرونًـــا بشواهد الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربع المنجيات ، فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها ..... مع مـــا ورد فيها من شواهد الشرع والعقل " [(١)].

وقد تبين أن الغزالي يكثر من ذكر الآيات القرآنية والأحاديث والآثار ، ولكنه في بعـــض مـــا يستدل به – كما قال المازري في نقده للإحياء أنه – : " يستحسن أشياء مبناها علـــى مـــا لا حقيقة له "[(٢)].

(١) إحياء علوم الدين : (١/١٧).

(٢) طبقات الشافعية ، السبكي : (٤/١٢٣).

أضف إلى ذلك قلة معرفته بالحديث ، وقد أخبر الغزالي بذلك حيث قال : " وبضـــاعتي في الحديث مزجاة [١] " [٢].

وأشار إلى ذلك ابن الجوزي في المنتظم فقال :" وذكر في كتاب الإحياء مـــن الأحاديـــث الموضوعة وما لا يصح غير قليل ، وسبب ذلك قلة معرفته بالنقل ، فليته عرض تلك الأحاديث على من يعرف " [٣].

ويعتذر ابن تيمية – رحمه الله – لأبي حامد فيقول : " وأبو حامد ليس له من الخبرة بالآثار النبوية والسلفية ما لأهل المعرفة بذلك ، الذين يميزون بين صحيحه وسقيمه، ولهـــذا يـــذكر في كتبه من الأحاديث والآثار الموضوعة والمكذوبة ما لو علم أنها موضوعة لم يذكرها " [٤].

وذكر عبد الغافر الفارسي إقبال الغزالي – رحمه الله – على طلب الحديث في آخر حياتـــه فقال : " وكانت خاتمة أمره إقباله على طلب حديث المصطفى – صلى الله عليـــه وســـلم – ومجالسة أهله ، ومطالعة الصحيحين – البخاري ومسلم – اللذين هما حجة الإسلام . ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام " [٥].

ثانيًا : المصادر الكلامية

فقد أشار إليها ابن تيمية – رحمه الله – حيث قال :

" وأبو حـــامد مادته الكلامية من كلام شيخه في الإرشاد والشامل ونحوهما ..... وأما شيخه – أبو المعالي – فمادته الكلامية أكثرها من كلام القاضي أبو بكر الباقلاني[٦] واستمد من كلام

(١) مزجاة : تدل على خلط الشيء بغيره . انظر : معجم مقاييس اللغة ، الرازي : (٢/٥٠٨) ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـــ ، دار الكتب العالمية-بيروت .

(٢) قانون التأويل ، للإمام الغزالي ، ص١٣٢، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ، دار الكتب العلمية – بيروت.

(٣) المنتظم : (١٧/١٢٦) .

(٤) درء تعارض العقل والنقل : (٧/١٤٩).

(٥) المنتخب من السياق ، ص٧٤ .

(٦) هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر الملقب بالباقلاني ، من كبـــار المتكلمين على طريقة الأشـــعري ، لـــه مؤلفات كثيرة في الكلام والأصول توفي عام٤٠٣هـــ . انظر : سير أعلام النبلاء : (١٧/١٩٠) .

أبي هاشم الجبائي[(١)] على مختارات له . وكان قد فسر الكلام علي أبي قاسم الإسكافي[(٢)] عن إسحاق الاسفراييني[(٣)] ، ولكن القاضي هو عندهم أولى ، ولقد خرج عن طريقة القاضي وذويه في مواضع إلى طريقة المعتزلة. وأما كلام أبي الحسن الأشعري نفسه فلم يكن يستمد منه وإنما ينقل كلامه مما يحكيه عنه الناس " [(٤)].

ثالثًا : المصادر الفلسفية

ذكرها الإمام ابن تيمية فقال : " ومادة أبي حامد في الفلسفة من كلام ابن سينا [(٥)] ، ولهذا يقال : أبو حامد أمرضه الشفاء [(٦)] ، ومن كلام أصحاب رسائل إخوان الصفا [(٧)] ورسائل أبي حيان التوحيدي [(٨)] " [(٩)].

(١) عبد السلام بن أبي علي محمد بن عبد الوهاب أبو هاشم الجبائي هو وأبوه من نظار المعتزلة وأكابرهم وإليه تنسب فرقة البهشمية من فرق المعتزلة ، ولد سنة ٢٤٧هـ ومات عام٣٢١هـ .انظر:تاريخ بغداد : (٥٥/١١) ، ووفيات الأعيان : (١٨٣/٣) وسير أعلام النبلاء (٦٣/١٥) .

(٢) هو عبد الجبار بن علي بن محمد الإسكافي ، أستاذ الجويني في علم الكلام ، فيه ميل إلى الاعتزال ، صنف في الفقه والأصول والكلام ، مات سنة٤٥٢هـ . انظر : طبقات الشافعية ، للسبكي : (٢٢٠/٣) .

(٣) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران أبو إسحاق الاسفراييني ، فقيه أصولي متكلم على المذهب الأشعري ، مات سنة٤١٨هـ .انظر : طبقات الشافعية : (١١١/٣) .

(٤) بغية المرتاد ، لابن تيمية ، ص ٤٧٧ ، تحقيق : موسى الدرويش ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٥هـ ، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة .

(٥) ابن سيناء : الحسين بن عبد الله أبو علي الفيلسوف ، برع في الطب والفلسفة، وله فيها مؤلفات كثيرة وله القانون في الطب ، كفره الغزالي لآرائه في المعاد وغيرها ، ووصفه الذهبي بالضلال ، مات عام٤٢٨هـ . انظر. سير أعلام النبلاء : (٥٣١/١٧) .

(٦) أي : كتاب الشفا لابن سيناء .

(٧) إخوان الصفا : جمعية فلسفية تنتهج نهج الباطنية الإسماعيلية ، نشأت في البصرة في القرن الرابع هجري وعقائدها ملفقة من الأديان والفلسفات اليونانية ، وهي منظمة سرية قد انطوى تحت لوائها كثير من الكتاب والمفكرين . انظر : تاريخ الفلسفة العربية ، د.جميل صليبا ، ص ٣١٧ .

(٨) علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي ، فيلسوف متصوف معتزلي ، وله مصنفات ، ووصفه الذهبي بالضلال ، وقد دافع عنه السبكي . انظر : سير أعلام النبلاء : (١١٩/١٧) ، وطبقات السبكي : (٢٤٧/٣) .

(٩) بغية المرتاد ، لابن تيمية ، ص ٤٤٩.

وقد نصّ أبو بكر ابن العربي تلميذ الإمام الغزالي على تأثر الغزالي بالفلسفة فقال : " شيخنا أبو حامد دخل في بطون الفلاسفة ، ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر " .[١]

وذكر الأعسم : أن كتاب الإحياء كان ولا يزال يثير نزعة عميقة إلى محاسبة النفس بروح باطنية طاعنة الغور في نفس الغزالي . ولعل أساس هذا الاستبطان بمنهج إخوان الصفا ، حتى بدا كلامه في كثير من الأحيان كأنه من جنس كلام الباطنية ، بل إنه لم يتخلص فيه بعد من آثار الفلسفة التي اقتحمها اقتحامًا ، حتى تأصلت فيه [٢].

ومن أبرز مظاهر تأثر الغزالي بالفلسفة في كتابه الإحياء ما يسميه بالكشف أو علم المكاشفة.

وسيأتي الحديث عن ذلك في مبحث المآخذ العامة على ربع المنجيات .

رابعًا : المصادر الصوفية

من أهم تلك المصادر التي شملت ربع المهلكات والمنجيات من كتاب إحياء علوم الدين ، وأبواب متفرقة من ربع العبادات ، وربع العادات كالسماع والوجد والأذكار والأوراد وغيرها مما للصوفية فيه من آراء يخالفون بها غيرهم من أهل العلم .

فقد صرّح الغزالي – رحمه الله –بمصادره في علم التصوف قائلاً : " فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي[٣] ، وكتب الحارث المحاسبي[٤] ،

---

(١) درء تعارض العقل والنقل : (١/٥).

(٢) انظر : الفيلسوف الغزالي ، عبد الأمير الأعسم ، ص (٩٢-٩٣) ، الطبعة الثانية ، دار الأندلس – بيروت

(٣) أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي ، شيخ الصوفية وإمامهم في عصره صاحب رياضة صوفية شاقة ، له مؤلفات من أشهرها قوت القلوب في علوم الصوفية ، مات سنة٣٨٦هـ في بغداد. انظر : سير أعلام النبلاء : (١٦/٥٣٦) ووفيات الأعيان : (٤/٣٠٣) .

(٤) الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبدالله ،سمي المحاسبي لكثرة محاسبة نفسه ، كان صوفيًا متكلمًا ، له مؤلفات منها : كتاب الرعاية ، مات سنة٢٤٣هـ ببغداد . انظر : طبقات الشافعية ، السبكي : (١/٤٧٢) ، وطبقات الصوفية ، ص٥٨، ووفيات الأعيان : (٢/٥٧) .

والمتفرقات المأثورة عن الجنيد[١] والشبلي[٢] وأبي يزيد البسطامي[٣] ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصّلت ما يمكن أن يحصل من علومهم من طريقهم بالتعلم والسماع" [٤].

أما قوت القلوب لأبي طالب المكي ، فيعتبر من أهم مصادره ، ويكاد أن يكون الغزالي قد ضمّن كتابه إحياء علوم الدين كتاب قوت القلوب كله ، وخاصة في ربع المنجيات ، فمادة هذا الربع جُلّها من قوت القلوب ، ويظهر ذلك جليًا من المقارنة بين الكتابين وعلى سبيل المثال: كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب التوكل .

وقد قال ابن الجوزي في ترجمته للغزالي : " ثم إنه نظر في كتاب أبي طالب المكي ، وكلام المتصوفة القدماء ، فاجتذبه ذلك بمرة " [٥].

وأما الحارث المحاسبي فقد كانت له مكانة عالية عند الغزالي والناظر في إحياء علوم الدين يجد أن الغزالي قد أفرغ جُلّ كتب المحاسبي فيه . ولذا قال الكوثري : " لقد كان أثر الإمام المحاسبي على الإمام الغزالي كبيرًا ، لقد تبطّن الإمام الغزالي كتاب الرعاية في كتابه الإحياء " [٦].

وأشار إلى ذلك الإمام ابن تيمية – رحمه الله – عندما سئل عن إحياء علوم الدين وقوت القلوب فأجاب : " أما كتاب قوت القلوب وكتاب الإحياء تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب : مثل الصبر والشكر ، والحب والتوكل ، والتوحيد ونحو ذلك . وأبو طالب أعلم

---

(١) الجنيد أبو القاسم محمد بن الجنيد الخزاز ،كان زاهدًا عابدًا عالمًا ، تفقه على أبي ثور صاحب الشافعي ، وصحب المحاسبي والسري والسقطي ، وقد أثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية في عدة مواضع وكذا ابن القيم ، توفي سنة٢٩٧هـ .
انظر : طبقات الصوفية ، للسلمي ، ص١٢٩ ، وطبقات الشافعية ، للسبكي : (٤٦٠/١) ، وسير أعلام النبلاء : (٦٦/١٤) .

(٢) دلف بن جحدر ،أبو بكر الشبلي البغدادي ،خراساني الأصل صاحب رياضة وتصوف ، وله شطحات وعجائب تحكى عنه ، مات سنة٣٣٤هـ ببغداد . انظر : طبقات الصوفية ، ص٢٥٧ .

(٣) أبو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشان البسطامي ، من بلاد خراسان ، اشتهر بالشطح ومنكرات الأقوال ، وهو معدود من كبار الصوفية ، مات سنة ٢٦١هـ . انظر : طبقات الصوفية ص٦٧ .

(٤) المنقذ من الضلال ، ص٧٩.

(٥) المنتظم : (١٢٦/١٧) .

(٦) الرعاية لحقوق الله عز وجل ، المحاسبي ، تحقيق : عبد الحليم محمود ، طه سرور ، المقدمة ص١٤ ، دار الكتب الحديثة — القاهرة .

بالحديث والأثر، وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم ، من أبي حامد الغزالي ، وكلامه أسدّ وأجود تحقيقًا ، وأبعد عن البدعة ، مع أن في قوت القلوب أحاديث ضعيفة وموضوعة ، وأشياء كثيرة مردودة .

وأما ما في الإحياء من الكلام في المهلكات مثل الكلام على الكبر ، والعجب والرياء ، والحسد ونحو ذلك ، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية ، ومنه ما هو مقبول ومنه ما هو مردود ، ومنه ما هو متنازع فيه "[١] .

ومن الكتب التي استقى منها الإمام الغزالي مصادره في التصوف ، كتاب الرسالة لأبي القاسم القشيري[٢] ، حيث اعتمد في رسالته حكاية أقوال وأحوال الصالحين والعباد وأئمة الصوفية وبيان ما كانوا عليه ، وتعريف وشرح المصطلحات الصوفية وبيان حقيقتها ومدلولاتها والمعاني المرادة منها .

وقد ذكر ابن تيمية استمداد أبي حامد من رسالة القشيري فقال :

" وإنما كان غالب استمداد أبي حامد من كتاب أبي طالب المكي ، الذي سماه قوت القلوب ، ومن كتب الحارث المحاسبي ، وغيرها ، ومن رسالة القشيري ، ومن منثورات وصلت إليه من كلام المشايخ "[٣].

وقال ابن تيمية : " وما يذكره أبو القاسم في رسالته عن النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة والتابعين والمشائخ وغيرهم ، تارة يذكره بإسناد ، وتارة يذكره مرسلاً ، وكثيرًا ما يقول : وقيل كذا ، ثم الذي يذكره بإسناد تارة يكون إسناده صحيحًا ، وتارة يكون ضعيفًا ، بل موضوعًا "[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى : (٥٥١/١٠) .

(٢) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري ، ولد سنة٣٧٦هـ ، وكانت إقامته بنيسابور ، كان فقيهًا متكلمًا ، وله تصانيف منها الرسالة ، وتوفي سنة٤٦٥هـ . انظر : تاريخ بغداد : (٨٣/١١)، طبقات الشافعية ، للسبكي : (١٥٠/٣) .

(٣) شرح العقيدة الأصفهانية ، ابن تيمية ، ص٢٢٢ ، تحقيق : سعيد بن نصر بن محمد ، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ، مكتبة الرشد — الرياض.

(٤) مجموع الفتاوى : (٦٧٨/١٠-٦٧٩).

ومن الكتب التي تأثر بها أبو حامد الغزالي أيضًا كتاب الحلية لأبي نعيم [١] ويعتبر من أهم الكتب في معرفة تراجم الزهاد والعباد والصالحين ، ومعرفة أقوالهم وأحوالهم .

وكان كتاب الحلية المرجع الأساس لأبي حامد فيما ذكره من حكايات الصالحين ومأثوراتهم المتفرقة . ومما يدل على عظيم تأثره بالحلية أنه حضَّ على المواظبة على مطالعته فقال : " فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين ، لينبعث نشاطك ، ويزيد حرصك ، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك ، فأنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله . وحكايات المجتهدين غير محصورة ، وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر . فإن أردت مزيدًا فعليك أن تواظب على مطالعة كتاب (حلية الأولياء) ، فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين من بعدهم ، وبالوقوف عليه يستبين لك بُعدك وبُعد أهل عصرك من أهل الدين " [٢].

وقد سئل ابن تيمية – رحمه الله – عن كتاب الحلية لأبي نعيم فقال :

" وكتابه كتاب الحلية من أجود الكتب المصنفة في أخبار الزهاد ، والمنقول فيه أصح من المنقول في رسالة القشيري ومصنفات أبي عبد الرحمن شيخه ، ومناقب الأبرار لابن خميس وغير ذلك ، فإن أبا نعيم أعلم بالحديث وأكثر حديثًا وأثبت رواية ونقلاً من هؤلاء ، ولكن كتاب الزهد للإمام أحمد، والزهد لابن المبارك ، وأمثالهما أصح نقلاً من الحلية " [٣].

ومن أهم مصادر التصوف التي استقى منها الغزالي :

شيوخه الذين أخذ منهم وتأثر بهم ، وقد سبق بيان ذلك في ترجمته وذكر شيوخه في التصوف ، وهنا أورد ما يدل على أخذه منهم وتأثره بهم :

أولاً : أبو علي الفارمذي

ذكر السبكي فيما ينقله عن الغافر الفارسي أن الغزالي : " ابتدأ بصحبة الفارمذي وأخذ منه

---

(١) أبو نعيم : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق ، الإمام الحافظ ، الثقة ، الأصبهاني ، الشافعي الصوفي ، ولد سنة ٣٣٦هـ بأصبهان ، وتوفي سنة ٤٣٠هـ ، له مصنفات كثيرة من أشهرها الحلية ، وتاريخ أصبهان وغيرها . انظر : سير أعلام النبلاء (٤٥٣/١٧) ، وشذرات الذهب (١٤٩/٥) ، وطبقات الشافعية ، للسبكي : (٣٥٥/٢) .

(٢) إحياء علوم الدين : (١٥٢/٥) .

(٣) مجموع الفتاوى : (٧١/١٨-٧٢).

استفتاح الطريقة ، وامتثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والإمعان في النوافل، واستدامة الأذكار ، والجد والاجتهاد طلبًا للنجاة " [١].

ثانيًا : يوسف النسّاج

قال الواسطي في طبقاته : " رأيت في بعض المجاميع ما صورته أن الإمام الغزالي قال : كنت في بدايتي متوقفًا بعض توقف في أحوال الصالحين ، ومقامات العارفين ، حتى صحبت شيخي يوسف النسّاج بطوس . فلم يزل يصقلني [٢] بالمجاهدة ، حتى حظيت بالواردات [٣] " [٤].

ثالثًا : أردشير العبادي [٥]

ذكر ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٨٦هـ من المنتظم : " أنه كان قد قدم إلى بغداد في شوال سنة خمس وثمانين رجل من أهل مرو واسمه أردشير بن منصور أبو الحسين العبادي، ثم خرج إلى الحج ، فلما قدم جلس في النظامية سنة ست ، وحضره أبو حامد الغزالي المدرس بها ، وكان الغزالي يحاضره ويسمع كلامه منذ قدم بغداد " [٦].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ، السبكي : (١٠٩/٤).

(٢) يصقلني : يتعهده بالتربية . انظر : المعجم الوسيط ، مادة : (صقله) ، ص ٥١٨ .

(٣) الواردات : أي الجادَّة ، وهي الطريق . انظر : المعجم الوسيط ، مادة : (ورد) ص ١٠٢٤ ، ومادة : (جدّ) ، ص١٠٩ .

(٤) الطبقات العلية في مناقب الشافعية ، للواسطي ، ص (١٩٣) ، وانظر : إتحاف السادة المتقين : (٩/١و١٩).

(٥) أردشير بن منصور أبو الحسين العبادي الواعظ الأستاذ ، كان يخاطب بالأمير قطب الدين ، وكان يحضر مجلسه من الرجال والنساء ثلاثون ألفًا ، توفي سنة ٤٩٦هـ . انظر : النجوم الزاهرة : (١٨٦/٥) .

(٦) المنتظم : (٣/١٧) .

المبحث الثالث : تزكية النفس.

المطلب الأول : مفهوم تزكية النفس عند السلف.

المطلب الثاني: تزكية النفس عند الصوفية عامة وموقف السلف منهم.

المطلب الثالث: تزكية النفس عند الغزالي خاصة وموقف السلف منه.

المبحث الثالث

تزكية النفس

لما كان سبب تأليف الإمام الغزالي لكتابه الإحياء هو تزكية النفس وإصلاح القلب ، كما قال في مقدمة كتابه : " ... العمل بمقتضى العلم ، طمعًا في نيل ما تعبَّده الله تعالى من تزكية النفس وإصلاح القلب ، وتداركًا لبعض ما فرط من إضاعة العمر ... " [١].

وأسّس كتابه على أربعة أرباع منها : ربع المهلكات والمنجيات والذي قال فيه : " وأما ربع المهلكات ، فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه ... وأما ربع المنجيات ، فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين " [٢].

فإن من المناسب الحديث عن تزكية النفس ومعناه ، وبيان الطريق الصحيح في تزكية النفس ، والتلازم بين السلوك والاعتقاد .

ثم بيان أسباب الانحراف عن السلوك وتزكية النفس على الوجه الصحيح ، عند الصوفية عامة والإمام الغزالي خاصة .

لذا سيكون الحديث عن : تزكية النفس وفيه مطالب :

- المطلب الأول : تزكية النفس عند السلف .
- المطلب الثاني : تزكية النفس عند الصوفية عامة وموقف السلف منهم .
- المطلب الثالث : تزكية النفس عند الغزالي خاصة وموقف السلف منهم .

---

(١) إحياء علوم الدين : (١٥/١) .

(٢) المرجع السابق : (١٧/١) .

المطلب الأول : تزكية النفس عند السلف

أولاً : مفهوم تزكية النفس :

زكّى الشيء : أزكاه وأصلحه وطهره .[١]

قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة ١٠٣].

قال ابن تيمية رحمه الله : " والزكاة في اللغة : النماء والزيادة في الصلاح ، يقال : زكا الشيء : إذا نما في الصلاح ، فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح ، كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له ، ولا بد مع ذلك من منع ما يضره ، فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره ، كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره "[٢].

وقد عقد ابن تيمية فصلاً في تزكية النفس ، وكيف تزكو بترك المحرمات مع فعل المأمورات، قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩-١٠].

قال سفيان بن عيينة [٣] ، وقتادة [٤] وغيرهما : قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله ، وصالح الأعمال [٥].

---

(١) المعجم الوسيط ، ص٣٩٦ ، مادة : (زكا).

(٢) مجموع الفتاوى : (٩٦/١٠).

(٣) سفيان بن عيينة ابن أبي عمران ميمون مولى محمد ابن مزاحم : الإمام الحافظ ، أحد أعلام الإسلام ، ولد سنة ١٠٧، عاش٩١ سنة ومات سنة ١٩٨هـ ، قال فيه الشافعي : لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز ، طلب الحديث وهو غلام ، وكان متقنًا ، انتهى إليه علو الإسناد ، حج سبعين سنة . انظر: طبقات ابن سعد : (٤٩٧/٥) ، وسير أعلام النبلاء: (٤٥٤/٨) .

(٤) قتادة ابن دعامة ابن قتادة ابن عزيز السدوسي البصري ، حافظ العصر وقدوة المفسرين ، ولد سنة٦٠ وكان من أوعية العلم وممن يضرب بهم المثل في قوة الحفظ مات سنة ١١٨هـ ، انظر : طبقات ابن سعد : (٢٢٩/٧) ، وسير أعلام النبلاء: (٢٦٩/٥) .

(٥) تزكية النفس ، ابن تيمية ، ص (٣٧-٣٨) ، دراسة وتحقيق : محمد سعيد القحطاني ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ، دار المسلم-الرياض.

وقال ابن تيمية أيضًا : " ولن ينمو الخير إلا بترك الشر ، كالزرع الذي لا يزكو حتى يزال عنه الدغل[١].

فكذلك النفس والأعمال لا تزكوا حتى يزال عنها ما يناقضها ولا يكون الرجل متزكيًا قد زكى إلا مع ترك الشر ، ومن لم يترك الشر لا يكون زاكيًا البتة فإن الشر يدنس النفس ، ويدسيها . قال الزجّاج : معنى (داسها) جعلها ذليلة حقيرة خسيسة " [٢].

وتزكية النفس البشرية ، وتنقيتها من قبائحها ، وتصفيتها من أدرانها ، والسمو بها إلى مكارم الأخلاق وصالحها إحدى المهمات التي بعث الله من أجلها محمداً صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل [٣].

وإن أعظم ما تزكوا به النفس هو تطهيرها من الشرك إلى التوحيد .

قال السعدي في تفسير قوله تعالى : ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة : ١٥١] يزكيكم : " أي يطهر أخلاقكم ونفوسكم ، بتربيتها على الأخلاق الجميلة ، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتهم من الشرك إلى التوحيد ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة ، ومن الكبر إلى التواضع ، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق ، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحاب والتواصل والتوادد ، وغير ذلك من أنواع التزكية " [٤].

---

(١) الدغل : هو الشجر الملتف الذي يكمن أهل الفساد فيه . انظر : النهاية في غريب الحديث ، ابن الأثير ، (١٢٣/٢) تحقيق : محمود الطناحي ، والمعجم الوسيط ، ص (٢٨٨) ، مادة : (دغل) .

(٢) تزكية النفس ، لابن تيمية ، ص٤٣.

(٣) انظر : منهج الأنبياء في تزكية النفوس ، سليم عبد القادر الهلالي ، ص٢١ وما بعدها ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ ، دار ابن عفان – مصر .

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ص (٧٤) ، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ، مؤسسة الرسالة–لبنان .

فالسلوك الصحيح وتزكية النفس من أعظم أمور الدين ، وقد اهتم السلف الصالح بالسلوك الشرعي والأخلاقي علمًا وعملاً ، فالسلوك الظاهر ملازم للإيمان الباطن ، وصلاح الظاهر ناشئ عن صلاح الباطن .

ويطلق السلوك على سيرة الإنسان ، ومذهبه واتجاهه .

يقال : فلان حسن السلوك ، أو سيء السلوك [١].

فالسلوك وما يتعلق بالصفات الأخلاقية من شعب الإيمان وخصاله .

قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – : " الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان " [٢].

قال ابن تيمية – رحمه الله – : " اسم الإيمان يستعمل مطلقًا ، ويستعمل مقيدًا ، وإذا استعمل مطلقًا فجميع ما يحبه الله ورسوله من أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة ، يدخل في مسمى الإيمان عند عامة السلف والأئمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين يجعلون الإيمان قولاً وعملاً ... ودخل في ذلك ما قد يسمى مقامًا وحالاً ، مثل : الصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والرضا ، والخشية ، والإنابة ، والإخلاص والتوحيد وغير ذلك " [٣].

وقال الإمام الشاطبي – رحمه الله – : " الأعمال الظاهرة في الشرع دليل على ما في الباطن ، فإن كان الظاهر منخرمًا ، حكم على الباطن بذلك ، أو مستقيمًا حكم على الباطن بذلك أيضًا" [٤].

لذا أورد السلف الجوانب السلوكية ضمن كتب العقيدة ، اهتمامًا منهم بتزكية النفوس . فإنهم يرون مجانبة البدعة والآثام ، والفخر ، والتكبر ، والعجب ، والخيانة ، والدغل ، ويرون كف الأذى ، وترك الغيبة " .

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ، ص٤٤٥ ، مادة : (سلك) .

(٢) أخرجه البخاري ، في كتاب الإيمان ، باب أمور الإيمان ، رقم ٩.

(٣) مجموع الفتاوى : (٦٤٢/٧) .

(٤) الموافقات ، الإمام الشاطبي : (٢٣٣/١) ، تعليق : عبد الله دراز ، دار المعرفة – بيروت .

قال قوام السنة الأصفهاني : " ومن مذهب أهل السنة التورع في المآكل والمشارب والمناكح ، والتحرر من الفواحش والقبائح ، والتحريض على التحاب في الله عز وجل ، واتقاء الجدال والمنازعة في أصول الدين ، ومجانبة أهل الأهواء والضلالة ، وهجرهم ومباينتهم ، والقيام بوفاء العهد والأمانة ، والخروج من المظالم والتبعات ، وغض الطرف عن الريبة والحرمات ، ومنع النفس عن الشهوات ، وترك شهادة الزور ، وقذف المحصنات ، وإمساك اللسان عن الغيبة والبهتان ، والفضول من الكلام ، وكظم الغيظ والصفح عن زلل الإخوان ، والمسابقة إلى فعل الخيرات ، والإمساك عن الشبهات وصلة الأرحام ، ومواساة الضعفاء ، والنصيحة في الله والشفقة على خلق الله ، والتهجد لقيام الليل ولاسيما لحملة القرآن ، والبدار إلى أداء الصلوات ".[١]

وذكر ابن تيمية – رحمه الله – جملة من الصفات السلوكية والأخلاقية لأهل السنة ، ومن ذلك قوله :

" يأمرون بالصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمر القضاء ، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ويعتقدون معنى قوله – صلى الله عليه وسلم- : " أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا " [٢]، ويندبون أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، ويأمرون ببر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل والرفق بالمملوك ، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق ، ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفاسفها " [٣].

(١) الحجة في بيان المحجة ، قوام السنة إسماعيل الأصفهاني ، ٥٢٨/٢ ، تحقيق : محمد أبو رحيم ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ ، دار الراية.

(٢) أخرجه الترمذي ، في كتاب الرضاع ، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها ، رقم (١١٦٢) ، وأخرجه أبو داوود ، في كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، رقم (٤٦٨٢) ، وأحمد : (٤٧٢/٢) . قال الألباني : حسن صحيح .

(٣) شرح العقيدة الواسطية ، لابن تيمية ، تأليف صالح الفوزان ، ص١٦٣-١٦٦ ، الطبعة الثانية ، ١٤١٧هـ ، دار لفيحاء – دمشق ، دار السلام – الرياض .

ثانيًا : منهج السلف في تلقي السلوك والأخلاق

١- مصدر تلقي السلوك والأخلاق عند السلف هو الكتاب والسنة [١] :

قال الله تعالى :﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩].

وقال الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء: ٥٩]

وعن أبي ذر – رضي الله عنه – قال : " لقد تركنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا " [٢].

بيّن ابن تيمية – رحمه الله – أن السلوك هو بالطريق التي أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات والعبادات والأخلاق ، وهذا كله مبين في الكتاب والسنة ، فإن هذا بمترلة الغذاء الذي لا بد للمؤمن منه .

ولهذا كان جميع الصحابة يعلمون السلوك بدلالة الكتاب والسنة والتبليغ عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، ولم يحصل بينهم نزاع في ذلك ، وإن كان في السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ ، لكن يوجد في الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين ، فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة في الكتاب والسنة[٣].

وقال الإمام أحمد – رحمه الله – : " أصول السنة عندنا :

التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والاقتداء بهم " [٤].

---

(١) انظر : معالم في السلوك وتزكية النفوس ، عبد العزيز محمد آل عبد اللطيف ، ص١٥ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ ، دار الوطن – الرياض .

(٢) أخرجه أحمد : (١٥٣/٥) .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى : (٢٧٣/١٩-٢٧٤) .

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، هبة الله اللالكائي ، (١٧٦/١) ، تحقيق : أحمد سعد بن حمدان الغامدي ، الطبعة الثامنة ، ١٤٢٣هـ ، دار طيبة–الرياض.

٢- الوسطية :

إن منهج أهل السنة وسط في جميع مسائله ، من غير غلو أو تقصير ، وهذه الوسطية استفادوها من اعتمادهم الكتاب والسنة . فهم وسط في باب الأسماء الصفات ، وفي باب القدر، وغيره ، وكذلك هم وسط في باب السلوك لا إفراط ولا تفريط .

قال ابن تيمية – رحمه الله – : " وكذلك أهل السنة في سائر أبواب السنة هم وسط ؛ لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان " (١).

٣- موافقة النصوص الشرعية لفظًا ومعنى :

فإن السلف يتأدبون مع المصطلحات الشرعية الدينية ، ويتمسكون بألفاظها ويحققون معانيها علماً وعملاً .

قال ابن تيمية : " الألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة علينا أن نتبع ما دلت عليه ، مثل : لفظ الإيمان ، والبر ، والتقوى ، والصدق ، والعدل ، والإحسان ، والصبر ، والشكر ، والتوكل، والخوف ، والرجاء ، والحب لله ، والطاعة لله وللرسول ، وبر الوالدين ، والوفاء بالعهد ونحو ذلك ما يتضمن ذكر ما أحبه الله ورسوله من القلب والبدن ، فهذه الأمور التي يحبها الله ورسوله هي الطريق الموصل إلى الله ، فعلى كل مسلم أن ينظر فيما أمر الله به ورسوله فيفعله ، وما نهى الله عنه ورسوله فيتركه ، هذا هو طريق الله وسبيله ودينه الصراط المستقيم"(٢).

٤- مراعاة أحوال المكلفين ، وتفاوت قدراتهم وطبائعهم :

قال تعالى :﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سددوا وقاربوا ، واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة ، والقصد القصد تبلغوا " (٣).

---

(١) مجموع الفتاوى : (٣٧٥/٣) .

(٢) المرجع السابق : (٢٦/١١) ، وسيأتي بيان ذلك في المآخذ العقدية على كتاب الفقر والزهد .

(٣) أخرجه البخاري ، في كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل ، رقم (٦٤٦٣) .

قال الحافظ ابن حجر : " قوله "سددوا " معناه : اقصدوا السداد أي الصواب ، وقولـــه : " وقاربوا " : أي لا تفرطوا فتجهدوا أنفسكم في العبادة لئلا يفضي بكـــم ذلـــك إلى المـــلال فتتركوا العمل فتفرطوا " [١].

وقال ابن تيمية رحمه الله : " وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفـــرائض ، فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم ، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد " [٢].

وقال أيضًا : " فالمشروع لكل إنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير " ، كما قال تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [التغابن : ١٦] ، وإذا ازدحمت شعب الإيمان قدم ما كان أرضى لله وهو عليه أقدر " [٣].

وذُكر في تفسير قوله تعالى :﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] ، أنه لما كان قوله : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج : ٧٨] ، ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق ، أو تكليف ما يشـــق ، احتـــرز منه بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٍ ﴾ أي : مشقة وعسر ، بل يسّره غاية التيسير ، وسهّله بغاية السهولة [٤].

وقال ابن القيم : " فالأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال ، والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه . وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق ... وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضـــاة الله أينمـــا كانت " .[٥]

---

(١) فتح البـــاري بشرح صحيح البخـــاري ، ابن حجر : (٢٩٧/١١) ، قرأ أصله تصحيحاً وتحقيقاً : الشيخ عبد العزيز بن باز ، ١٣٧٩هـــ ، دار الفكر.

(٢) مجموع الفتاوى : (٦٦٠/١٠) .

(٣) المرجع السابق : (٦٥١/٧) .

(٤) تيسير الكريم الرحمن ، ص ٥٤٧.

(٥) مدارج السالكين ، (١٨٦/١) .

المطلب الثاني : تزكية النفس عند الصوفية وموقف السلف منهم :

إذا كان عامة من ضل في باب الاعتقاد بسبب الإعراض عما جاء في الكتاب والسنة ، فكذلك الضلال في باب السلوك نشأ بسبب الإعراض عن النصوص الشرعية ، كما هو ظاهر عند متأخري الصوفية . فالكتب التي صنفها متأخروا الصوفية في السلوك غلب عليها قلة العلم بالسنن والآثار ، وكثرة الموضوعات ، والتعويل على أخبار متأخري الزهاد [(١)].

وقد تكلم ابن الجوزي – رحمه الله – عن بداية الانحراف عند الصوفية ، في السلوك وتزكية النفوس فقال :

" والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي ثم ترخّص المنتسبون إليها بالسماع والرقص فمال إليها طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد ، ومال إليها طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب ..... ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة ، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس . ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الأخرى .....

وعلى هذا كان أوائل القوم فلبّس إبليس عليهم في أشياء ثم لبّس على من بعدهم من تابعيهم فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن " [(٢)].

ثم بيّن أن أصل تلبيس إبليس عليهم كان بصدهم عن العلم فتخبطوا في الظلمات :
فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة فرفضوا ما يصلح أبدانهم . وشبهوا المال بالعقارب ، ونسوا أنه خلق للمصالح وبالغوا في الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع . وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة .وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري .

---

(١) انظر تفصيل ذلك في مصادر التلقي عند الإمام الغزالي من هذا البحث ، ص ٥٥

(٢) تلبيس إبليس ، ص ١٥٦-١٥٨

ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات وصنفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي . وجاء آخرون فهذبوا التصوف وأفردوه بصفات ميزوه بها من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق [١].

وإن ما أوقع الصوفية في الانحراف عن الطريق الصحيح لتزكية النفس ، اعتمادهم على مواجيدهم وذوقهم وكشفهم والهاماتهم ومناماتهم ، مما أدى إلى حصول الاضطراب والضلال عن الطريق الحق .

قال الحافظ بن رجب : " ومما أحدث من العلوم ، الكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك ، بمجرد الرأي والذوق أو الكشف وفيه خطر عظيم ، وقد أنكره أعيان الأئمة كالإمام أحمد وغيره " [٢].

وقال ابن تيمية – رحمه الله – : " والمنتسبون إلى بعض المشايخ إذا حصل له وجد سماعي ، وعند سماع المكاء والتصدية ، منهم من يصعد في الهواء ، ويقف على زج الرمح ، ويدخل النار، ويأخذ الحديد المحمى بالنار ثم يضعه على بدنه ، وأنواع من هذا الجنس ، ولا تحصل له هذه الحال عند الصلاة ، ولا عند الذكر ، ولا عند قراءة القرآن ؛ لأن هذه عبادات شرعية إيمانية إسلامية نبوية محمدية ، تطرد الشياطين ، وتلك عبادات بدعية شركية شيطانية فلسفية تستجلب الشياطين .

فقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم – في الحديث الصحيح : " ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا غشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده " [٣] [٤].

---

(١) انظر : تلبيس إبليس ، ص ١٥٨.

(٢) بيان فضل علم السلف على علم الخلف ، الحافظ ابن رجب الحنبلي ، ص٦٨ ، تحقيق : محمد ناصر العجمي ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٢هـ ، دار الصميعي-الرياض .

(٣) أخرجه مسلم ، في كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ، (٢٦٩٩) .

(٤) مجموع الفتاوى : (١١/٥٧٥-٥٧٦) .

وقال شيخ الإسلام أيضًا : " ومنهم طائفة يغترون بما يحصل لهم من خرق عادة مثل مكاشفة ، أو استجابة دعوة مخالفة العادة العامة ، ونحو ذلك ، فيشتغل أحدهم عما أمر به من العبادة ، والشكر ، ونحو ذلك . فهذه الأمور ونحوها كثيرًا ما تعرض لأهل السلوك والتوجه ، وإنما ينجو منها بملازمة أمر الله الذي بعث به رسوله في كل وقت . كما قال أحد السلف : كان من مضى من سلفنا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة . وذلك أن السنة -كما قال مالك رحمه الله - مثل سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق "[1].

ثم بيّن ابن تيمية - رحمه الله - المنهج الصحيح في التلقي عن سلف الأمة فقال :

" المذكور عن سلف الأئمة وأئمتها من المنقولات ، ينبغي للإنسان أن يميز بين صحيحه وضعيفه ، كما ينبغي مثل ذلك في المعقولات ، فإن كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة ، فيها حق وباطل ، ولا بد من التمييز في هذا وهذا " [2] .

ثم بين شيخ الإسلام ابن تيمية شرطي صحة العبادة وهما :

الإخلاص والمتابعة ، فإن جماع الدين : ألا نعبد إلا الله ، ولا نعبده إلا بما شرع ، ولا نعبده بالبدع ، كما قال تعالى :﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك : ٢].

قال الفضيل بن عياض[3] : أخلصه ، وأصوبه ، قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصًا ، ولم يكن صوابًا ، لم يقبل . وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا ، لم يقبل . حتى يكون خالصًا صوابًا ، والخالص : أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السنة . وهذا الذي ذكره الفضيل مما اتفق عليه أئمة المشايخ ،

---

(١) مجموع الفتاوى : (١٠/١٧٢) .

(٢) المرجع السابق : (١١/٥٨٢) .

(٣) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر ، التميمي ، ثم اليربوعي ، ولد بسمرقند ، حدث عنه ابن المبارك ويحيى القطان، وتوفي في محرم سنة ١٨٧هـ . انظر : طبقات الصوفية ، ص ٢٢ ، وسير أعلام النبلاء : (٨/٤٢١) ، ووفيات الأعيان : (٤/٤٧) . وسمرقند : بلد معروف مشهور ، قيل : إنه من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر . انظر : معجم البلدان : (٣/٢٤٦) .

كما قال أبو سليمان الداراني[1] : إنه لتمر بقلبي النكتة من نكت القوم ، فلا أقبلها إلا بشاهدين اثنين : الكتاب والسنة ، وقال أيضًا : ليس لمن أُلْهم شيئًا من الخير أن يفعله ، حتى يسمع فيه بأثر ، فإذا سمع بأثر كان نورًا على نور .

وقال الجنيد : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث ، لم يصح له أن يتكلم في علمنا هذا . وقال سهل بن عبد الله التستري [2] : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل ، وكل عمل على ابتداع فإنه عذاب على النفس ، وكل عمل بلا اقتداء فهو غش النفس [3].

وإذا علمنا أن العبادة تقوم على هذين الأصلين : الإخلاص والمتابعة ، تبعًا لما جاء به الكتاب والسنة ، وأن الدين جاء بالتيسير على الناس ومراعاة أحوالهم وتفاوت قدراتهم . فإن بعض الصوفية قد خالفوا في ذلك ، واتخذوا لهم طريق غير طريق أهل السنة ، آخذين بطريق الوجد والذوق والكشف ، وتكليف النفس ما لا تطيق .

قال ابن القيم – رحمه الله – : " ومن الناس من هو مخلص في أعماله ، لكنها على غير متابعة الأمر ، كجهال العُبّاد ، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر ، وكل من عبد الله بغير أمره ، واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله . كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة ، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة ، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة ، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة . وأمثال ذلك " [4].

---

(١) أبو سليمان عبدالرحمن بن أحمد ، وقيل : عبد الرحمن بن عطية . وقيل : ابن عسكر العنسي الداراني ، وهو من أهل داريا ، ولد في حدود الأربعين ومئة ، توفي سنة ٢١٥هـ وقيل ٢٠٥هـ . انظر : سير أعلام النبلاء : (١٨٢/١٠) ، وطبقات الصوفية : ص٧٤. وداريا : قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة ، والنسبة إليها داراني على غير قياس . انظر : معجم البلدان : (٤٣١/٢) .

(٢) سهل بن عبدالله التستري ، وهو سهل بن عبدالله بن يونس ين عيسى بن عبدالله بن رفيع ، كنيته أبو محمد ، الصوفي الزاهد ، توفي في المحرم سنة ٢٨٣هـ وعاش ثمانين سنة أو أكثر . انظر : سير أعلام النبلاء : (٣٣٠/١٣) ، وطبقات الصوفية : ص١٦٦ .

(٣) انظر مجموع الفتاوى : (٥٨٥/١١-٥٨٦) .

(٤) مدارج السالكين ، لابن القيم : (١٧٨/١) ، تحقيق : عبد العزيز ناصر الجليل ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ ، دار طيبة-الرياض .

ثم ذكر ابن القيم – رحمه الله – أصناف الناس في اعتبارهم أفضل العبادة وأنفعها :

صِنف عندهم أنفع العبادات وأفضلها : أشقها على النفوس وأصعبها .

فقد قالوا : لأنه أبعد الأشياء عن هواها ، وهو حقيقة التعبد ..... وهؤلاء : هم أهل المجاهدات والجور على النفوس ، فإنهم يرون أن النفوس تستقيم بذلك ، إذ طبعها الكسل والمهانة ، والإخلاد إلى الأرض ؛ فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق [١].

قال أحد السلف : " إن هذا الدين دين واصب ، وإنه من لا يصبر عليه يدعه، وإن الحق ثقيل ، وإن الإنسان ضعيف ، وكان يقال : ليأخذ أحدكم من العمل ما يطيق ، فإنه لا يدري ما قدر أجله ، وإن العبد إذا ركب بنفسه العنف ، وكلف نفسه ما لا يطيق أوشك أن يسيب ذلك كله ، حتى لعله لا يقيم الفريضة ، وإذا ركب نفسه التيسير والتخفيف وكلف نفسه ما تطيق كان أكيس ، وأمنعها من هذا العدو " [٢].

وقد عقد إحسان إلهي ظهير فصلاً في كتابه بيّن فيه تطرف الصوفية في الجوع والتعري والتقشف وتعذيب النفس وتكليفها ما لا يطاق[٣] ، وجلب الأذى للنفس .

ونقل بعض الأقوال عنهم ، منها قول أحدهم : أن الجوع أحد الأركان الأربعة للتصوف ، والبقية هي : الصمت والخلوة والسهر ، ومن حصل عليها فقد حصل على كلية الدواء ، والتحق بزمرة الأولياء والبدلاء . وقال الآخر : كل فقير لا يحصل له جوع ولا عري فهو من أبناء الدنيا ، ليس له في طريق الفقراء نصيب [٤].

---

(١) انظر : مدارج السالكين : (١٧٩/١)

(٢) الزهد ، لعبد الله بن المبارك ، ص٤٦٨ ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي ، دار الباز – مكة .

(٣) انظر تفصيل ذلك في الفصل الثامن : المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب المراقبة والمحاسبة ، من هذا البحث .

(٤) انظر : دراسات في التصوف ، إحسان إلهي ظهير ، ص ٤٣وما بعدها ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٩ هـ ، دار ابن حزم – القاهرة.

المطلب الثالث : تزكية النفس عند الإمام الغزالي وموقف السلف منه :

أقبل الغزالي – رحمه الله – بهمته على طريق الصوفية وابتدأ بتحصيل علومهم من مطالعة كتبهم فقال : " وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله "(١).

وقال أيضًا : " وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن سر ذلك كله ، قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق " (٢).

ثم إنه آثر العزلة حرصًا منه على الخلوة وتصفية القلب ، ودام على ذلك عشر سنين ، فقال : " وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي أذكره لينتفع به ، أني علمت يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق .... ومن أول الطريق تبتدئ المكاشفات والمشاهدات " (٣).

وحرصًا من الغزالي – رحمه الله – على تزكية النفس فقد أفرد كتابًا في ربع المهلكات من كتاب الإحياء عن رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، بيّن فيها – حسب قوله – ما يمنع المريد من الحق أربعة أمور هي : المال ، والجاه ، والتقليد ، والمعصية . ثم احتياجه بعد ذلك لشيخ يقتدي به ويدفع عنه قواطع الطريق : بالخلوة ، والصمت ، والجوع ، والسهر .

---

(١) المنقذ من الضلال ، ص٧٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص٨٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص٨٣ .

قال – رحمه الله – : " فإن مقصود المريد إصلاح قلبه ، ليشاهد به ربه ، ويصلح لقربه . أما الجوع ففائدته تنوير القلب ، وأما السهر فإنه يجلو القلب ويصفيه ، وأما الصمت فإنه يسهل له العزلة ، وأما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل " [١].

كما أنه عقد كتابًا في ذم الدنيا وذم حب المال وذم الجاه ، وكذلك في ربع المنجيات عقد كتابًا عن الفقر والزهد وفضل كلاً منهما ، وكتابًا في مراقبة النفس ومحاسبتها ومعاتبتها ، ونحو ذلك .

لكنه جانب بعض الصواب كغيره من المتصوفة في عدم الأخذ من الطريق الصحيح –طريق الكتاب والسنة– وعوّل على أخبار متأخري الصوفية التي استقاها من كتبهم ، كما أنه كان مزجي البضاعة في الحديث فأورد من الأحاديث الضعيفة وما لا أصل له الشيء الكثير.

قال ابن تيمية في معرض حديثه عن الغزالي وعدم معرفته لمنهج أهل السنة : " لكن هو – أي الغزالي– لم يعرف طريقة أهل السنة والحديث من العارفين ..... وهي الطريقة المحمدية المحضة " [٢].

قال القرضاوي : " هكذا كان دخول الغزالي إلى التصوف دخول المحب العاشق ، لا دخول الفاحص الناقد ، فلم ينظر إلى علوم الصوفية وتراثهم بعين النقد التي نظر بها إلى علوم الفلاسفة والمتكلمين والباطنية ، بل بعين الرضا والحب .

وسرّ هذا أنه تعامل مع التصوف بقلبه قبل عقله ، وبذوقه قبل فقهه ، وهذا ما جعله يقبل أشياء مما أُخذ على القوم في الفكر ، وفي السلوك ، دون أن يعرضها على قانون الفقه ، أو منطق العقل . ومع هذا لا يُنكر مُنصفٌ دارسٌ للغزالي ولكتبه ولإحيائه خاصة أنه لم يقبل التصوف بعجره وبجره " [٣].

ومما يُؤخذ على الإمام الغزالي قوله بالكشف والذوق والوجد ، والإلهام وضرورة الخلوة ، والعزلة ، وغير ذلك .

---

(١) إحياء علوم الدين : (٣/٩٣-٩٤) .

(٢) مجموع الفتاوى : (٢/٥٧) .

(٣) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، ص١٣٧-١٣٨-١٣٩باختصار يسير.

وقد ردّ ابن تيمية – رحمه الله – على مسألة الخلوة فقال : " ثم صار أصحاب الخلوات فيهم من يتمسك بجنس العبادات الشرعية ، الصلاة والصيام ، والقراءة والذكر . وأكثرهم يخرجون إلى أجناس غير مشروعة ، فمن ذلك طريقة أبي حامد ومن تبعه ، وهؤلاء يأمرون صاحب الخلوة ألا يزيد على الفرض ، لا قراءة ولا نظر في حديث نبوي ، ولا غير ذلك ، بل قد يأمرونه بالذكر ، ثم قد يقولون ما يقوله أبو حامد : ذكر العامة : لا إله إلا الله ، وذكر الخاصة : الله ، الله ، وذكر خاصة الخاصة : هو ، هو "[١].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال : " أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر "[٢].
وفي حديث آخر : " أفضل الذكر لا إله إلا الله "[٣]. وقال : " أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير "[٤].

ثم قال – رحمه الله – : " ومنهم من يزعم أنه حصل له أكثر مما حصل للأنبياء ، وأبو حامد يُكثر من مدح هذه الطريقة في "الإحياء" وغيره ،كما أنه يبالغ في مدح الزهد ، وهذا من بقايا الفلسفة عليه "[٥].

وسيأتي الحديث في المبحث التالي عن بعض المآخذ العقدية التي أُخذت على الغزالي – رحمه الله – عامة في ربع المنجيات.

---

(١) مجموع الفتاوى : (٣٩٦/١٠) .
(٢) أخرجه البخاري معلقًا في الفتح (٥٦٦/١١) ، وأخرجه مسلم ، في كتاب الآداب ، باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة، وبنافع ونحوه ، رقم (٢١٣٧) .
(٣) أخرجه الترمذي ، في كتاب الدعوات ، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ، رقم (٣٣٨٣) وقال : –حديث حسن غريب– ، وأخرجه ابن ماجه ، في كتاب الأدب ، باب فضل الحامدين ، رقم (٣٨٠٠) . قال الألباني : حديث حسن .
(٤) أخرجه الترمذي ، في كتاب الدعوات ، باب في دعاء يوم عرفة ، رقم (٣٥٨٥) ، وقال : حديث غريب من هذا الوجه . قال الألباني : حديث حسن .
(٥) مجموع الفتاوى : (٣٩٨/١٠) .

المبحث الرابع :

المآخذ العقدية على كتاب إحياء علوم الدين.

المطلب الأول : الكشف.

المطلب الثاني : قوله :

" ليس في الإمكان أبدع مما كان "

المبحث الرابع :
المآخذ العقدية العامة على كتاب إحياء علوم الدين

المطلب الأول : الكشف

سبق معنا أنه مما يُؤخذ على الغزالي– رحمه الله – قوله بالكشف ، أو ما يسميه – علوم المكاشفة – الأمر الذي كان سببًا في إنكار كثير من أهل العلم عليه وعلى كتابه إحياء علوم الدين . فالعلم الذي يُتوصل به إلى الآخرة عند الغزالي ينقسم إلى قسمين :
علم المعاملة ، وعلم المكاشفة .

أما علم المعاملة : هو علم أحوال القلب ، وأما علم المكاشفة فهو الذي سنقف عنده ، ونتعرف على حقيقة ومفهوم الكشف عند الغزالي ، وموقف أهل السنة والجماعة منه .

أولاً : مفهوم الكشف عند الغزالي

عرّفه الغزالي فقال : " هو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من الصفات المذمومة ، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات ، وبأفعاله " [(١)].

والكشف بهذا المعنى يعد من طرق المعرفة عند الغزالي ، حيث أنه يثبت ثلاثة أنواع من المعرفة :
- معرفة حسية : تُدرك بها المحسوسات ، ولا تفيد العلم اليقيني .
- معرفة عقلية : تُدرك بها المعقولات ، وتكون عن طريق العقل . وقد تفيد اليقين إذا اقترنت بالدليل البرهاني .
- معرفة إشراقية : يُدرك بها العلم اليقيني الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم . وهذه المعرفة تكون بنور يقذفه الله في الصدر ،

---
(١) إحياء علوم الدين : (٣٨/١)

وهو مفتاح أكثر المعارف [١].

أكـــدّ على ذلك ما ذكره في الإحيـــاء حيث قال : " وحدّ الاقتصاد بين هذا الانحـــلال كله- يعني إسراف الفلاسفة وغيرهم في تأويل الصفات- وبين جمود الحنابلـــة- يعـــني منـــع التأويل- دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الموفقون بنور إلهي لا بالسماع . ثم إذا انكشفت لهـــم أسرار الأمور على ما هي عليه نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة ، فما وافق ما شاهدوه بنـــور اليقين قرروه ، وما خالف أوّلوه ، فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد فلا يستقر له فيها قدم ، ولا يتعين له موقف ." [٢]

وقال الغزالي : " ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم في يقظتـــهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء يسمعون منهم أصواتًا يقتبسون منهم فوائـــد . ثم يترقـــى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة ، ينتهي الأمر إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول ، وطائفـــة الاتحـــاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ . وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب " المقصد الأسنى " ، بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر !

وبالجملة ، فمن لم يرزق منه شيئًا بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبـــوة إلا الاســـم ، وكرامات الأولياء هي على التحقيق بدايات الأنبياء " [٣].

ولذلك قال الغزالي : " وهذه هي العلوم – أي علوم المكاشفة – التي لا تسطر في الكتـــب ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله ، وهو المشارك فيـــه ، علـــى ســـبيل المذاكرة وبطريق الإسرار " [٤].

---

(١) انظر : المنقذ من الضلال ، ص٨٥-٨٦ ، ودراسات في تاريخ الفلسفة العربية ، د. كامل حمـــود ، ص١٧٥-١٧٦ ، دار الفكر ، اللبناني – بيروت .

(٢) إحياء علوم الدين : (١/١٤٣-١٤٤) .

(٣) المنقذ من الضلال : ص٨٣-٨٤

(٤) إحياء علوم الدين : (١/٣٩) ، وانظر : نفس المرجع : (٤/٣٠٤)

والغزالي – رحمه الله – يبين أن الطريق للآخرة وانكشاف عالم الغيب هو من خلال علم المكاشفة[١] ، ولا يكون ذلك إلا بطريق : الرياضة والتفكر .

فقال : " اعلم أن العلم اللدني وهو سريان نور الإلهام يكون بعد التسوية ، ويكون بثلاثة أوجه : أحدها : تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها .

الثاني : الرياضة الصادقة ، والمراقبة الصحيحة .

الثالث : التفكر ، فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ، ثم تتفكر في معلوماتها بشروط الفكر ، ينفتح عليها باب الغيب " [٢].

وقال أيضًا : " والعلم اللدني : هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري ، وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف " [٣].

وقد أكّد الغزالي على ارتباط السعادة الأبدية – بلقاء الله تعالى – بعلم المكاشفة فقال : " فالسعادة الأبدية معلقة بلقاء الله تعالى وهي معلقة بعلم المكاشفة ، وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة الذي هو قطع عقبات الصفات ، وعلم قطع العقبات وراء علم سلامة البدن وانتظام أسباب المعيشة في الدنيا التي هي الزاد إلى طريق الآخرة " [٤].

ثانيًا : طرق الوصول إلى الكشف ، وأنواعه :

ذكر الغزالي أن من بداية سلوك طريق التصوف تبدأ المكاشفات ، فقال : " الطريق في ذلك أولاً بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل شيء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه في زاوية ، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب

---

(١) انظر : مصادر التلقي عند الصوفية ، هارون بشير صديقي ، ص٧٧ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، دار الراية – الرياض .

(٢) الرسالة اللدنية ، أبو حامد الغزالي ، ص٧٣-٧٤ ، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ، دار الكتب العلمية – بيروت .

(٣) المرجع السابق ، ص٧٠

(٤) موسوعة مصطلحات الغزالي ، د. رفيق العجم ، ص ٥١٥ ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م ، مكتبة لبنان – بيروت.

ويجلس فارغ القلب ، مجموع الهم ، ولا يفرق فكره بقراءة القرآن ، ولا بالتأمل في تفسير ، ولا بكتب حديث ولا غيره ، بل يجتهد ألا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى . فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه الله الله على الدوام ، مع حضور القلب " (١).

ثم بيّن ما يترتب على ذلك الانقطاع والمواظبة بعد ذلك فقال :

" بل هو بما فعله صار متعرضًا لنفحات رحمة الله . فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق . وعند ذلك إذا صدقت إرادته ، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، فلم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ، تلمع لوامع الحق في قلبه ، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود وقد يتأخر ، وإن عاد فقد يثبت ، وقد يكون مختطفًا وإن ثبت قد يطول ثباته ، وقد لا يطول ، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق ، وقد يقتصر على فن واحد . ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر ، كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك ، وتصفية وجلاء ، ثم استعداد وانتظار فقط " (٢).

وقال أيضًا : " فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وفاض على صدورهم النور ، لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد بالدنيا والتبري من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى " (٣).

ثم بعد ذلك ذكر الغزالي – رحمه الله – أنواع حصول الكشف :

- فتارة يكون على سبيل الإلهام ، بأن يخطر على سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون .
- وتارة على سبيل الرؤية الصادقة .
- وتارة يكون في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة كما يكون في المنام ، وهي أعلى الدرجات ، وهي من درجات النبوة . (٤)

---

(١) إحياء علوم الدين : (٢٣/٣) ، وانظر نفس المرجع : (٩٦/٤) .

(٢) إحياء علوم الدين : (٢٣/٣-٢٤) .

(٣) المرجع السابق : (٢٣/٣) ، وانظر : نفس المرجع : (٣٢٧/٤) ، ومقارنة بين الغزالي وابن تيمية ، ص٦٥، د. محمد رشاد سالم ، ١٤٠٠هـ ، دار القلم – الكويت .

(٤) انظر : إحياء علوم الدين : (١١٥/١) .

ثالثًا : الرد على الغزالي في استدلاله على صحة طريق الكشف :

في بداية الأمر لا بد أن نقرر عدة أمور :

- أنه ليس من شرط ولي الله أن يكون معصومًا لا يغلط ولا يخطئ ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين .

- إذا كان يجوز على الولي من أولياء الله وقوع الخطأ منه ، فلا يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله لأنه ليس نبيًا .

- لا يجوز أن يعتمد ذلك الولي على ما يُلقى إليه في قلبه ، ما لم يكن موافقًا للشرع . بل يجب عليه أن يعتصم بالكتاب والسنة ويعرض جميع ذلك على ما جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – فإن كان موافقًا قبله ، وإن كان مخالفًا لم يقبله ، وإن لم يعلم موافقته أو مخالفته توقف فيه .[١]

قال الإمام الطحاوي – رحمه الله – : " ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام . فمن رام[٢] علم ما حظر عنه علمه ، ولم يقنع بالتسليم فهمه ، حجبه مرامه عن خالص التوحيد ، وصافي المعرفة " [٣].

وقال ابن تيمية – رحمه الله – : " وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم – يعني أهل السنة– اعتصامهم بالكتاب والسنة ، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان : أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن ، لا برأيه ولا ذوقه ، ولا معقوله ، ولا قياسه ، ولا وجده ، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم " [٤].

(١) انظر : مجموع الفتاوى : (٢٠٣/١١) ، والموافقات في أصول الشريعة ، للشاطبي : (٨٣/٤-٨٤) ، تصحيح : محمد عبدالله دراز ، المكتبة التجارية الكبرى–مصر .

(٢) رَامَ : أي طلب . انظر : المعجم الوسيط ، مادة (رامه) ، ص٣٨٣ .

(٣) العقيدة الطحاوية ، للإمام أبي جعفر الطحاوي ، ص٥٩-٦١ ، سلسلة متون طالب العلم ، مراجعة : أحمد الطويان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ ، دار طويق – الرياض .

(٤) مجموع الفتاوى : (٢٨/١٣) .

فإذا تقرر هذا ، فإن بعض الصوفية ، قد خالفوا هذا الأصل ، حيث اعتبروا الإلهام حجة ، واستندوا إلى الكشف والإلهام والرؤى دون تمييز ، وجعلوا ذلك أصل طريقتهم ومصدر تلقيهم ، وقبول النصوص الشرعية إذا وافقت الكشف ، أما إذا خالفته فلا بد من تأويلها .[1]

قال الشيخ الشنقيطي : " المقرر في الأصول أن الإلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به على شيء لعدم العصمة ، وعدم الدليل على الاستدلال به ، بل ولوجود الدليل على عدم جواز الاستدلال به .

وما يزعمه بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام في حق الملهم دون غيره ... باطل لا يعول عليه ، لعدم اعتضاده بدليل ، وغير المعصوم لا ثقة بخواطره ، لأنه لا يأمن من دسيسة الشيطان .

وقد ضمنت الهداية في اتباع الشرع ، ولم تضمن في اتباع الخواطر والإلهامات ... أما ما يلهمه الأنبياء مما يلقيه الله في قلوبهم فليس كإلهام غيرهم لأنهم معصومون بخلاف غيرهم " [2].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : " وأهل المكاشفات والمخاطبات يصيبون تارة ، ويخطئون أخرى ، ولهذا وجب عليهم أن يعتصموا بكتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وأن يزنوا مواجيدهم ومجاهداتهم وآراءهم ومعقولاتهم بكتاب الله وسنة رسوله ، ولا يكتفوا بمجرد ذلك " [3].

وأما الاستدلال بحديث : " لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون ، فإن يك في أمتي منهم أحد فإنه عمر " [4] .

---

(١) انظر : المعرفة في الإسلام ، مصادرها ومجالاتها ، د. عبد الله القرني ، ص٧٢-٧٣ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ ، دار عالم الفوائد – مكة المكرمة .

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، الشيخ محمد الأمين الشنقيطي : (١٥٩/٤-١٦٠) ، ١٣٨٦هـ ، مطبعة المدني .

(٣) مجموع الفتاوى : (٦٥/١١) .

(٤) أخرجه البخاري : في كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر ابن الخطاب ، رقم (٣٦٨٩) ، وأخرجه مسلم : في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر ، رقم (٢٣٩٨) .

فإن المعروف عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -أنه قد وافق ربه - عز وجل- في عدة أشياء ، ومع ذلك فإنه كان يعتصم بما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، وكان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يبين له أشياء خفيت عليه ، كما جرى يوم الحديبية، ويوم مات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وغير ذلك .

فكل من كان من أهل الإلهام والمكاشفة فإنه لم يكن أفضل من عمر ، فإنه لم يجعل ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - تبعًا لما ورد عليه .(١)

قال أبو سليمان الداراني : إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين الكتاب والسنة . وقال أيضًا : ليس لمن أُلهم شيئًا من الخير أن يفعله حتى يسمع فيه بأثر فإذا سمع فيه بأثر كان نورًا على نور .(٢)

المطلب الثاني : قول الغزالي : " ليس في الإمكان أبدع مما كان "

جاء في كتاب التوكل من إحياء علوم الدين ما نصه : " وكل ما قسم الله بين عباده من رزق وأجل ، وسرور وحزن ، وعجز وقدرة ، وإيمان وكفر ، وطاعة ومعصية ، فكله عدل محض لا جور فيه ، وحق صِرف لا ظلم فيه ، بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي، وكما ينبغي ، وبالقدر الذي ينبغي .

وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ، ولو كان وادخره مع القدرة و لم يتفضل بفعله ، لكان بخلاً يناقض الجود ، وظلمًا يناقض العدل ، ولو لم يكن قادرًا لكان عجزًا يناقض الإلهية " (٣).

التعليق :

اختلف العلماء في هذه المقالة التي ذكرت عن أبي حامد الغزالي على ثلاث طوائف :

(١) انظر : مجموع الفتاوى : (١٣/٧٣-٧٤) .

(٢) مجموع الفتاوى : (١١/٢١٠) ، والصفدية لابن تيمية : (١/٢٥٢) ، تحقيق : د. محمد رشاد سالم ، ١٣٩٦هـ ، الرياض .

(٣) إحياء علوم الدين : (٤/٣١٩-٣٢٠) .

فطائفة أوّلتها ، وطائفة أنكرتها ، وطائفة كذّبت النسبة إلى الغزالي .[١]

وقد سُئل الغزالي نفسه عن مضمون هذه العبارة ضمن أسئلة متعددة وُجّهت إليه عن الإشكالات التي وقعت في كتابه إحياء علوم الدين ، وقد ردّ عليها الغزالي بكلام لم يكن أوضح من سابقه ، وأشار إلى أن هذا الكلام إذا كُشف لمن رُزق العلم كان بطلان العلم في حق المخبر إذ أفشاه لغير أهله ، وأهداه لمن لا يستحقه .[٢]

يلاحظ أن الغزالي يعوّل مرة أخرى على الكشف باعتباره مصدرًا للمعرفة ، وأن هذا من العلوم التي لا ينبغي أن يعلمها كل أحد . وقد سبق مناقشة ذلك في المطلب السابق .

وسأعرض عرضًا موجزًا لأقوال الطوائف الثلاث وأذكر بعض أصحابها ، ومستند كل طائفة منهم .

الطائفة الأولى : الذين صححوا هذا القول بتأويله وانتصروا للغزالي :

منهم الحافظ السيوطي في ردّه على كتاب : تهديم الأركان من ليس في الإمكان أبدع مما كان[٣] ، قال – رحمه الله – : " وقد استنكر ذلك بعض العلماء الموجودين ، وادعى أن ذلك، إما مدسوس في كلام حجة الإسلام ، أو زلة صدرت من عالم ، وأن هذا الكلام يفهم منه استعجاز القدرة الإلهية واستقصارها ، كما تقول الفلاسفة ، أو وجوب الأصلح على الله كما تقول المعتزلة " [٤].

وعلى ذلك ألف السيوطي كتابه : تشييد الأركان فقال فيه : أول ما يجب أن تعلم أمرين :

---

(١) انظر : الغزالي ، أحمد فريد رفاعي : (٧٧/٢ وما بعدها) ، مطبعة عيسى البابي الحلبي – مصر ، وما للغزالي وما عليه في القول المنسوب إليه " ليس في الإمكان أبدع مما كان " ، حسن عبد اللطيف الفيومي ، ص٨٧ و١١١ و١١٩ ، الإسكندرية .

(٢) انظر : الإملاء في إشكالات الإحياء ، أبو حامد الغزالي ، ص٣٤٧ ، ملحق مع إحياء علوم الدين ، تصحيح : عبدالمعطي أمين قلعجي ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٤م ، دار صادر–بيروت .

(٣) صاحب هذا الكتاب هو البرهان البقاعي .

(٤) تشييد الأركان في ليس في الإمكان أبدع مما كان ، جلال الدين السيوطي ، ص٣٧١ ، مطبوع مع كتاب إحياء علوم الدين ، المجلد الخامس ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٤م ، دار صاد–بيروت .

أحدهما : أن المجمع عليه عند أهل السنة والجماعة أن القدرة إنما تتعلق بالممكن دون المستحيل .
الثاني : أن النفي في كلام حجة الإسلام ، ليس منصبًا على إمكان وجود شيء غير الموجود ، إنما ينصب على كونه أبدع من الموجود ، فنفى حجة الإسلام كون الشيء مما يمكن وجوده أبدع مما وجد .[(١)]

وقال برهان الدين بن أبي شريف : " ليس في مقال حجة الإسلام - الغزالي - إيجاب شيء على الله ، ولا نفي لقدرته على غير هذا العالم ، بل هو قادر على إبداع عوالم لا منتهى لها " [(٢)].

قلت : إن الله قادر على جعل الموجود أبدع وأحسن مما هو موجود .

الطائفة الثانية : الذين أبطلوا هذا القول وأنكروه ، وقالوا إنه زلّة :

منهم أبو بكر بن العربي فيما نُقل عنه قال : " قال شيخنا أبو حامد قولاً عظيمًا انتقده عليه العلماء فقد قال : ليس في قدرة الله أبدع من هذا العالم في الإتقان والحكمة ، ولو كان في القدرة أبدع أو أحكم منه ولم يفعله ، لكان ذلك منافيًا للجود ، وذلك محال . ثم قال : والجواب أنه باعد في اعتقاد عموم القدرة ونفى النهاية عن تقدير المقدورات المتعلقة بها ، ولكن في تفاصيل هذا العالم المخلوق ، لا في سواه ، وهذا رأي فلسفي قصدت به الفلاسفة قلب الحقائق" [(٣)].

الطائفة الثالثة : الذين لم يرضوا نسبة هذا القول إلى الغزالي وقالوا إنه مدسوس عليه :

وحجة هؤلاء أنهم عرضوا العبارة على كلامه في كتبه الأخرى ، فوجدوها مع كلامه على طرفي نقيض.[(٤)] ومن هؤلاء البرهان البقاعي في رسالته : تهديم الأركان من ليس في الإمكان أبدع مما كان ، السابقة الذكر .

---

(١) تشييد الأركان في ليس في الإمكان أبدع مما كان : ص ٣٧١ .

(٢) ما للغزالي وما عليه ، حسن الفيومي ، ص ٩١ .

(٣) سير أعلام النبلاء : (٣١٩/١٤) .

(٤) انظر : الغزالي ، أحمد رفاعي ، (٨٣/٢) ، وما للغزالي وما عليه ، حسن الفيومي ، ص ١١٩ .

بعد عرض الأقوال في المسألة السابقة تبين أنه لا يمكن الرد على الإجمال بل لا بد من التفصيل فهي من المسائل التي اختلفت فيها الآراء ، وسأردّ إجمالاً على هذه المسألة بما قاله ابن تيمية – رحمه الله – : " وفي هذا المقام تاهت عقول كثير من الخلائق ، وفيه ضّل من ضل ، وقولهم أنه ليس في الإمكان أبدع مما صنع ، ودبّ بعض هذا الداء إلى بعض أهل الكتاب وأتباع الرسل ، فقد قرروا انحصار الممكن في الموجود وكل ذلك طلبًا للاستراحة من مؤَمّنة تعليل الأفعال الإلهية ، ووجود الأسباب الحادثة للأمور الحادثة ، وعلله أهل القدر بعللهم العائلة في التعديل والتجويز ووجوب رعاية الصالح ، أو الأصلح ، ولم يستقم لواحد من الفريقين أصلهم،ولم يَطّرد لهم".(١)

وأما على التفصيل : فإن قول الغزالي : (على الترتيب الواجب الحق) فيه إجمال ، فإن كان يقصد الواجب على الله فهذا كقول المعتزلة بأنه يجب على الله العدل ، وهذا ضلال .

وإن كان يقصد الترتيب الواجب أي الترتيب المحقق للعدل فهذا ثابت لله . فهو – سبحانه – لا يظلم أحدً ، لكن استعمال هذا اللفظ لا يقبل من الغزالي ولا من غيره ولو استعمله أحد فلا بد من الاستفصال السابق .

وأما قوله : (على ما ينبغي) : فهذا فيه إجمال وإيهام أيضًا . ويستعمل في حق المخلوق لا الخالق — سبحانه – فإذا استعمله أحد قلنا له : ما مرادك بقولك (على ما ينبغي) أتريد به أن الأمر على التمام والنهج المستقيم المعبر به عن كمال عدل الله فهذا ثابت لله تعالى.

أم تريد أن الأمر مما ينبغي على الله فعله فهذا أيضًا يكون بمعنى الوجوب على الله ، وهذا ضلال كما سبق .

أما قوله : " ليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ... "

فهذا فيه إيهام بالعجز عن الكمال المطلق ونفي القدرة الكاملة والمشيئة الشاملة عن الله تعالى. وهو ما انتهى إليه مذهب التعطيل – تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا – ، ونحن نحسن الظن بالغزالي – رحمه الله — فإنه يثبت صفة القدرة لله تعالى ، ولا يوجب فعل الأصلح على الله – عز وجل – .

---

(١) مجموع الفتاوى : (٣٩٩/٨-٤٠٠)


الفصل الأول

الفصل الأول

المآخذ العقدية على كتاب التوبة

المبحث الأول : مفهوم التوبة عند السلف.

المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب التوبة والرد عليها على ضوء عقيدة السلف.

المبحث الأول

مفهوم التوبة عند السلف

التوبة لغة :

مصدر قولك تاب يتوب وهو مأخوذ من مادة (ت و ب) التي تدل على الرجوع، يقال : تاب من ذنبه ، أي رجع عنه توبة ومتاباً ، والوصف منه تائب .[1]

التوبة في الشرع :

ترك الذنب لقبحه ، والنّدم والعزيمة على ترك المعاودة ، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة .[2]

والتوبة منـزلة عظيمة من منازل الدين، والله- عز وجل- يفرح بتوبة العبد ويحب التوابين ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢]، فالله يحب من فعل ما أمر به . وتَرَك ما نهى عنه .

فإذًا التوبة هي الرجوع عما يكره الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا .

حكم التوبة :

هي واجبة على كل عبد في كل حال .[3] فقد أمر الله – عز وجل – بالتوبة وحث عليها ورغب فيها ، قال تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

والتوبة سبب لغفران الذنوب وعدم المؤاخذة بها ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الزمر : ٥٣]. وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم : ٨] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] .

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة : (٣٥٧/١) ، ولسان العرب : (٤٥٤/١) .

(٢) مفردات الراغب ، ص٧٦

(٣) انظر : مجموع الفتاوى : (٣٣٠/١٠) .

وليست العبرة بنقص البدايات ، ولكن العبرة بكمال النهايات ، وهذا الكمال إنما يحصل بالتوبة والاستغفار .

ففي الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قـال : " قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن العبد إذا أخطأ نكتت في قلبه نكتةٌ سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيه حتى تعلوا قلبه وهو الرّان الذي ذكر الله : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] " [١].

وعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال : قال رسـول الله – صـلى الله عليـه وسلـم – : " إن الله – عز وجل – يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسـط يـده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها " [٢].

والتوبـة يجب أن تكـون خالصـة لله تعـالى ، فإن أعـرض المرء عن الذنب لكـونه لم يخطـر ببالـه أو لعجـزه عنه ، أو لعـدم إرادته له بسبب غـير ديني ، فإن هـذا لـيس بتوبة . بل لابـد أن يعتقـد أنه هذا الذنب سيئـة ويكـره فعلـه لنهي الله عنه ، فيدعـه لله . [٣]

والتوبة منهـج الأنبيـاء – صلوات الله عليهم- فإنهم كانوا لا يؤخـرون التوبـة ، بـل يسـارعون إليهـا ، ولا يصـرون على الذنب ، فهم معصومـون من ذلك . وقد غفـر الله لهم . [٤]

فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – ، أن رسـول الله – صلى الله عليه وسلم — كـان يقول في سجوده : " اللهم ! اغفـر لي ذنبي كله ، دقه وجلـه ، وأوله وآخره ، وعلانيته وسره " [٥].

---

(١) أخرجه الترمذي : في كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة ويل للمطففين ، رقم (٣٣٣٤) . وقال:حسن صحيـح، وأخرجه ابن ماجه : في كتاب الزهد ، باب ذكر الذنوب ، رقم (٤٢٤٤) . قال الألباني : حديث حسن .

(٢) أخرجه مسلم : في كتاب التوبة ، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة ، رقم (٢٧٥٩) .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى : (١٠/٣١٨) .

(٤) سيأتي الحديث عنه في المبحث الثاني من هذا الفصل .

(٥) أخرجه مسلم : في كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود ، رقم (٤٨٣) .

وعن النبي – صلى الله عليه وسلم – : أنه كان يدعو بهذا الدعاء : " رب اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري كله ، وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي خطاياي ، وعمدي وجهلي وهزلي ، وكل ذلك عندي . اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير " [(١)].

(١) أخرجه البخاري : في كتاب الدعوات ، باب قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت " ، رقم (٦٣٩٨) ، وأخرجه مسلم : في كتاب الذكر والدعاء ، باب التعوذ من شر ما عُمِل ومن شر ما لم يُعمَل، رقم (٢٤١٩) .

المبحث الثاني
المآخذ العقدية على كتاب التوبة
والرد عليه على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

قد حصرت المآخذ على كتاب التوبة في المسائل الآتية :

المسألة الأولى :

ذكر الإمام الغزالي – رحمه الله تعالى – في معرض حديثه عن دواء التوبة ، وطرق العلاج لحل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب أربعة أنواع منها : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين ، وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم ، وأورد بعض قصص الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – ، منها قصة سليمان عليه السلام عندما سُلب ملكه ، وقصة يوسف عليه السلام عندما قال لصاحبه : ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف:٤٢] ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف:٤٢] .

فقال الغزالي : " وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر . ولم يرد بها القرآن ولا الأخبار ورود الأسمار ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ، لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار ، فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار ؟ " [(١)].

التعليق :

الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم — صفوة الخلق ، اصطفاهم الله تعالى لحمل رسالته وتبليغها إلى الناس ، فعصمهم فيما يخبرون به عن الله تعالى . وقد أفرط قوم في أن ذكروا عن الأنبياء ما دل القرآن على براءتهم منه ، وأضافوا إليهم ذنوباً نزههم الله عنها ، مستدلين بالإسرائيليات المخالفة للشرع . وكلام الغزالي هنا احتوى على أمرين :

الأمر الأول : مسألة عصمة الأنبياء .

الأمر الثاني : استشهاد الغزالي بالإسرائيليات لتقرير حكم ما .

---

(١) إحياء علوم الدين : (٤/٦٥-٦٦).

فأما الأمر الأول : وهو عصمة الأنبياء من الذنوب فالناس فيها على قولين :

قال ابن تيمية – رحمه الله– : " منهم من يقول بالعصمة من فعلها ، ومنهم من يقول بالعصمة من الإقرار عليها ؛ لاسيما في ما يتعلق بتبليغ الرسالة ، فإن الأمة متفقة على أن ذلك معصوم أن يقر فيه على خطأ ، لمناقضته مقصود الرسالة ، ومدلول المعجزة ، والله – عز وجل– لم يذكر في كتابه عن نبي من الأنبياء ذنبًا إلا ذكر توبته منه ، كما ذكر في قصة آدم وموسى ، وداود وغيرهم من الأنبياء – صلوات الله عليهم –".(1)

وذكر شيخ الإسلام بعض الآيات القرآنية الدالة على أن الخطأ جائز عليهم لبشريتهم ، ولكن الله تاب عليهم وعصمهم من البقاء عليه كما في قول الله تعالى فيما حكاه عن آدم وزوجته : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

وقوله عن نوح – عليه السلام – : ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٧] .

وقوله عن الخليل– عليه السلام – : ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٤١] ، وقوله : ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٨٢] .

وقوله عن موسى – عليه السلام – : ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف : ١٥٥-١٥٦] ، وقوله : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي ﴾ [القصص : ١٦] ، وقوله : ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

وقوله تعالى عن داود – عليه السلام – : ﴿ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ۩ ٢٤ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ [ص : ٢٤-٢٥] .

وقوله تعالى عن سليمان – عليه السلام – : ﴿ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص : ٣٥] .

(١) انظر : مجموع الفتاوى : (١٥/١٤٧-١٤٨)

ثم بيّن ابن تيمية – رحمه الله – أن المنحرفين في مسألة عصمة الأنبياء من الذنوب على طرفي نقيض ، كلاهما مخالف لكتاب الله – عز وجل – من بعض الوجوه فقال :

" قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب ، حتى حرّفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب ، ومغفرة الله لهم ، ورفع درجاتهم بذلك . وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دلّ القرآن على براءتهم منه ، وأضافوا إليهم ذنوبًا وعيوبًا نزّههم الله عنها .

وهؤلاء مخالفون للقرآن ، وهؤلاء مخالفون للقرآن ، ومن اتّبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف ، كان من الأمة الوسط ، مهتديًا إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين " . (1)

وأما العصمة في غير ما يتعلق بالرسالة ففيها نزاع :

هل العصمة من الكبائر والصغائر أو من بعضها ؟ أم هل العصمة إنما هي في الإقرار عليها لا في فعلها ؟ أم لا يجب القول بالعصمة إلا في التبليغ فقط ؟

قال ابن تيمية : " والقول الذي عليه جمهور الناس ، وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقًا ، والرد على من يقول إنه يجوز إقرارهم عليها ".(2)

فإذا عُلم أن الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه وتعالى وفي تبليغ رسالته باتفاق الأمة ؛ فإنه يجب الإيمان بكل ما أوتوه كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، وقال تعالى :﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

فإن الأنبياء –صلوات الله عليهم– معصومون من الإقرار على الذنوب مطلقًا ، بل كانوا لا يؤخرون التوبة ، بل يسارعون إليها ، ولا يصرون على الذنب بل هم معصومون من ذلك .

---

(١) مجموع الفتاوى : (١٥/١٥٠) .

(٢) المرجع السابق : (١٠/٢٩٣) .

وقد أشكل وقوع الاستغفار من النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو معصوم ، والاستغفار يستدعي وقوع معصية . وذكر ابن حجر عدة أجوبة عن ذلك الإشكال :

– منها ما جاء في تفسير الغَيْن .

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إنه لَيُغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة " .[١]

وقيل : المراد بالغَيْن فترات عن الذكر الذي شأنه أن يداوم عليه فإذا فتر عنه لأمر ما عدّ ذلك ذنبًا فاستغفر عنه .

وقيل هو شيء يعتري القلب مما يقع من حديث النفس ، وقيل هو السكينة التي تغشى قلبه. والاستغفار لإظهار العبودية لله والشكر لما أولاه ، وقيل هي حالة خشية وإعظام والاستغفار شكرها .

– ومنها قول ابن الجوزي : هفوات الطباع البشرية لا يسلم منها أحد ، والأنبياء وإن عُصموا من الكبائر فلم يُعصموا من الصغائر . وقد ذكر ابن حجر أنه قول مفرّع على خلاف المختار، كما ، والراجح عصمتهم من الصغائر أيضًا.[٢]

– ومنها قول ابن بطّال [٣] :" الأنبياء أشد الناس اجتهادًا في العبادة لما أعطاهم الله تعالى من المعرفة ، فهم دائبون في شكره معترفون له بالتقصير . ومحصل جوابه أن الاستغفار من التقصير في أداء الحق الذي يجب لله تعالى ، ويحتمل أن يكون لاشتغاله بالأمور المباحة من أكل أو شرب أو جماع أو نوم أو راحة ، أو مخاطبة الناس والنظر في مصالحهم ، ومحاربة عدوهم تارة ومداراته أخرى ، وتأليف المؤلفة وغير ذلك مما يحجبه عن الاشتغال بذكر الله والتضرع إليه ومشاهدته ومراقبته ، فيرى ذلك ذنبًا بالنسبة للمقام العلي ، ومنها أن استغفاره تشريع لأمته " [٤].

---

(١) أخرجه مسلم في : كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ، رقم (٢٧٠٢) .

(٢) انظر : فتح الباري : (١٠١/١١) .

(٣) العلامة أبو الحسن علي بن خلف بن بطال البكري ، القرطبي ، ثم البلنسي ، ويعرف بابن اللّجام ، كان من أهل العلم والمعرفة واعتنى بالحديث وشرح الصحيح ، توفي في صفر سنة ٤٤٩هـ . انظر : سير أعلام النبلاء : (٤٧/١٨) .

(٤) فتح الباري : (١٠١/١١-١٠٢) .

والتوبة من الذنوب أمر واجب على كل مسلم ، والتوكل على الله تعالى من أجلّ القربات التي يتوسل بها إلى الله في تحقيق المطالب الدينية والدنيوية ، ومن مظـاهر العبوديـة والافتقـار والانكسار بين يديه تعالى. وقد أمر الله بتعاطي الأسباب مع صدق اعتماد القلب على الله تعالى.

فإذا باشر العبد الأسباب مع صدق توكله على الله لا يكون فعله قادحاً ، ولا يترتب عليـه ذنب يستلزم منه توبة .

واسشهاد الغزالي بقصة يوسف – عليه السلام- لحمل الناس على ترك الـذنوب لـيس صحيحاً ، لأنه لم ينسى ذكر الله تعالى فيترتب عليه ذنب ، ولم ينسى التوكل على الله . وفيما يأتي بيان وتوضيح فيما يتعلق بقصة يوسف عليه السلام .

ذكر ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره أنه لما ظن يوسف عليه السلام أن الساقي نـاج ، قال له يوسف ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ أي اذكر قصتي عند ربك ، وهو الملك ، فنسي ذلـك الموصى أن يذكر مولاه الملك بـذلك ، وهذا هو الصواب أن الضـمير في قولـه : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ عائد على الناجي ؛ كما قال مجاهد[1] وغير واحد ، ويقال إن الضـمير عائد على يوسف – عليه السـلام – رواه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعًا ، قـال : قـال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " ولو لم يقل – يعني يوسف – الكلمة التي قال ، ما لبـث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله " . وهذا الحديث ضعيف جدًا .

ثم ذكر ابن كثير –رحمه الله– تفسير قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : ٤٥] : أي تذكر الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف ، وكان الشيطان قد أنسـاه ما وصـاه به يـوسف من ذكـر أمـره للملك ، فعند ذلك تذكر بعد أمـة ، أي مـدة ، فقال للملك ومن معه : أنا أنبـئكم بتأويل هذا المنام فابعثون إلى يوسـف الصديق في السجن [2].

---

(١) مجاهد بن موسى بن فروخ أبو علي الخوارزمي ، نزيل بغداد ، حدث عن سفيان ابن عيينة والوليد ابن مسلم وحدث عنه الجماعة سوى البخاري وأبو زرعة ، عاش ٨٦سنة ، مات في ربيع الأول سنة ٢٤٤هـ . انظر : سير أعلام النبلاء : (٤٩٥/١١) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير : (٧٤١/٢-٧٤٣).

وقال ابن تيمية في تفسير قوله تعالى :﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٤٢] : " قيل أُنسي يوسف ذكر ربه ، لما قال : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾. وقيل : بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه ، وهذا هو الصواب ، فإنه مطابق لقوله :﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، قال تعالى : ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ والضمير يعود إلى القريب ، إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك ؛ ولأن يوسف لم ينس ذكر ربه ، بل كان ذاكرًا لربه " [(١)] .

ثم بيّن شيخ الإسلام ما يدل على عدم نسيان يوسف – عليه السلام – لربه – عز وجل – فذكر أنه – عليه السلام – دعاهما قبل تعبير الرؤيا إلى الإيمان بربه ، وقال لهما :

﴿ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٣٩-٤٠] . ثم بعد هذا عبّر الرؤيا فقال : ﴿ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾ [يوسف : ٤١]، ثم لما قضى تأويل الرؤيا قال للذي نجا منهما : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ . وعلى هذا كيف يكون قد أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه ؟ وإنما أنسى الشيطان الناجي ذكر ربه .[(٢)]

وأما إذا قيل أن يوسف – عليه السلام – نسِي ربه وكان الأولى أن يتوكل على الله ، ولا يقول اذكرني عند ربك ، فلما نسي أن يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين .

فقد بين ابن تيمية أنه ليس في قوله : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ما يناقض التوكل ، بل قد قال يوسف– عليه السلام– : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إلا لله ﴾ [يوسف : ٤٠] ،كما أن قول أبيه :﴿ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ [يوسف:٦٧] ، لم يناقض توكله ، بل قال : ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف : ٦٧] .

وقد شهد الله ليوسف– عليه السلام – أنه من عباده المخلصين ، والمخلص لا يكون مخلصًا

---

(١) مجموع الفتاوى : (١١٢/١٥) .

(٢) انظر : المرجع السابق : (١١٣/١٥) .

مع توكله على غير الله ، فإن ذلك شرك ، ويوسف- عليه السلام- لم يكن مشركًا لا في عبادته ولا توكله ، بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٣] ، فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده .وأما قوله : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ، مثل قوله لربه : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] ، فلمّا سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضًا للتوكل ، ولا هو من سؤال الإمارة المنهي عنه ، فكيف يكون قوله للفتى : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ مناقضًا للتوكل وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به ؛ ليعلم حاله ليتبين الحق . فلم يكن في قوله له ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ترك لواجب ، ولا فعل لمحرم ، حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن ، وكان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين ، قبل هذا ظلمًا له ، مع علمهم ببراءته من الذنب [1].

ثم بيّن ابن تيمية : أن يوسف – عليه السلام – لم يفعل ذنبًا ذكره ربه عنه فقال: " والمعلوم أن الله – عز وجل – لا يذكر عن أحد من الأنبياء ذنبًا إلا ذكر استغفاره منه ، و لم يذكر عن يوسف استغفارًا من هذه الكلمة، كما لم يذكر عنه استغفارًا من مقدمات الفاحشة ، فعُلم أنه لم يفعل ذنبًا في هذا ولا هذا ، بل همَّ همًا تركه لله ، فأُثيب عليه حسنة ..... وأما ما يكفّره الابتلاء من السيئات ، فذلك جوزي به صاحبه بالمصائب المكفرة ، كما في قوله – صلى الله عليه وسلم – : " ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا غم ولا أذى ، إلا كفر الله به خطاياه" [2] ، ولما أنزل الله هذه الآية: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء : ١٢٣] ، قال أبو بكر : يا رسول الله ، جاءت قاصمة الظهر ، وأينا لم يعمل سوءًا ؟ فقال : " ألست تحزن ؟ ألست تنصب ؟ ألست تصيبك اللأواء[3] ؟ فذلك مما تجزون به "[4].

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى : (١٥/١١٣-١١٥).

(٢) أخرجه البخاري : في كتاب المرضى . باب : ما جاء في كفارة المرض ، رقم (٥٦٤١-٥٦٤٢) ، ومسلم في : كتاب البر والصلة . باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها ، رقم (٢٥٧٣).

(٣) اللأواء : الشدة والضيق المعيشة . انظر : النهاية في غريب الحديث : (٤/٢٢١) .

(٤) أخرجه أحمد ... ١/١١ ، وأخرجه الحاكم في المستدرك : (٣/٧٤ – ٧٥) ، حديث رقم (٤٤٥٠) وقال : " حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه " ووافقه الذهبي .

وأما الأمر الثاني : وهو استشهاد الغزالي رحمه الله تعالى بالإسرائيليات لتقرير حكم ما .
فقد استشهد الغزالي بقصص بعض الأنبياء كقصة سليمان – عليه السلام – عندما سُلب ملكه مبينًا أن سرد قصص الأنبياء وما حلّ بهم من المصائب بسبب ذنوبهم ، يعتبر من طرق العلاج في حمل الناس على ترك الذنوب وعدم الإصرار عليها .

وفي بيان صحة هذا الاستشهاد قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : " الترغيب والترهيب بالإسرائيليات ، والمنامات ، وكلمات السلف والعلماء ، ووقائع العلماء ، ونحو ذلك ، مما لا يجوز بمجرده إثبات حكم شرعي ، لا استحباب ولا غيره " [1].

وقد أورد ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ ﴾ [ص : ٣٤] أي اختبرناه بأن سلبناه الملك ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ [ص :٣٤] قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : يعني شيطانًا . وقوله – عز وجل – : ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾[ص :٣٤] أي رجع إلى ملكه وسلطته وأبهته .

ثم ذكر ابن كثير – رحمه الله – بعد عرضه للقصص المروية في تفسير هذه الآية عن نبي الله سليمان– عليه السلام –: أنها كلها من الإسرائيليات ،وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب [2].

قال ابن تيمية رحمه الله : " والإسرائيليات يجوز أن يروى منها ما لم يعلم أنه كذب ، للترغيب والترهيب " [3].

فإذا عُلم كذبها أومخالفتها للشرع الصحيح فإنه لا يصح روايتها .

---

(١) مجموع الفتاوى : (٦٦/١٨).
(٢) انظر : تفسير ابن كثير : (٥٣/٤–٥٥).
(٣) مجموع الفتاوى : (٢٥١/١).

المسألة الثانية :

يرى بعض الصوفية أن الغفلة من الأمور التي ينبغي أن يتاب عنها. وفي ذلك يقول الغـــزالي – رحمه الله – : " أن الإنسان إذا بلغ مسلمًا تبعًا لأبويه ، غافلاً عن حقيقة إســـلامه ، فعليـــه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام .

وأن الإنسان لا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله ، وصفاته ، وأفعاله . وكـــل ذلـــك نقص، وله أسباب ، وأنه لا يتصور خلو الآدمي عن هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير "(١).

التعليق :

وردت آيات كثيرة في ذم الغفلة ، منها :

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٦]

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [يونس : ٧-٨]

قال ابن كثير في تفسير الآية : " غافلون(٢) عن آيات الله الكونية فـــلا يتفكـــرون فيهـــا ، والشرعية فلا يأتمرون بها ، بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاءً بما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر "(٣).

وقال الله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٧]

وقال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾[الأعراف : ١٣٦]

قال ابن كثير :" فغرقوا عن آخرهم وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم(٤) عنها "(٥).

فهذه غفلة الكافرين وهي كفر صريح .

وهناك غفلة أخرى وهي غفلة المؤمنين . وهي تدخل في عموم ما رفع عن الأمة من الخطأ

---

(١) إحياء علوم الدين : (١٢/٤) .

(٢) غفل الشيء : تركه إهمالاً من غير نسيان . انظر : المعجم الوسيط ، مادة : (غفل) ، ص ٦٥٧ .

(٣) تفسير ابن كثير : (٦٣٢/٢) .

(٤) تغافل : تعمد الغفلة . انظر : المعجم الوسيط ، مادة : (غفل) ، ص٦٥٧ .

(٥) تفسير ابن كثير : (٣٨٦/٢).

والنسيان ، وليس فيها إنكـــار ولا تكذيب بآيات الله. فإن هذه الغفـــلة بمعنى : السهو من قلة التحفظ والتيقظ (١) .

وهناك آيات تشير إلى أن الغفلة لا تكون ذنبًا في حد ذاها . ومن ذلك قوله تعـــالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [النور : ٢٣]

وقال تعالى : ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣].

قال الشيخ السعدي في تفسيرهذه الآية : " أي ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبـــل أن يوحي الله إليك ، ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا " (٢) . يقال : غَفَّلَ فلانًا : أي كفاه وهو غافل لا يُعنى بشيء (٣) .

وعليه إذا أريد بالغفلة اعتبارها من الأمور التي يجب التوبة منها كالزنا وشـــــرب الخمـــر وغير ذلك فهذا غير مُسلّم به .

وإذا أريد بذلك شدة حرص المؤمن على وقته وعدم تطرق الغفلة إليه حتى أنه يعتبر الغفلـــة كالذنب سواء بسواء ، فهذا تعبير جميل على ما فيه من المبالغة (٤).

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ، مادة : (غفل) ، ص٦٥٧.

(٢) تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص٣٩٣.

(٣) المعجم الوسيط ، مادة : (غفل) ، ص٦٥٧.

(٤) انظر : موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ، أحمد محمد بناني ، ص١٤٢، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٦هـ، دار طيبة – مكة المكرمة .

الفصل الثاني

الفصل الثاني

المآخذ العقدية على كتاب الصبر والشكر

المبحث الأول : مفهوم الصبر والشكر عند السلف.

المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب الصبر والشكر والرد عليها على ضوء عقيدة السلف.

المبحث الأول

مفهوم الصبر والشكر عند السلف

الصبر لغة :

مصدر صبر يصبر . يقال صبرت نفسي على ذلك الأمر أي حبستها .[١]

الصبر اصطلاحاً :

حبس النفس عن الجـــزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن التشويش .[٢] وقال الراغب : هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع .[٣]

حكم الصبر :

واجب بإجماع الأمة ، وهو نصف الإيمان ، فالإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر . وقد ذكر في القرآن في نحو تسعين موضعًا .[٤]

فقد جاء الأمر في كتاب الله ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] ، وقوله : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة :٤٥] ، وقوله : ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ، وقوله : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

فالحياة لا تستقيم إلا بالصبر ، فهو دواء المشكلات لدار الابتلاء ، والصبر زاد المجاهد إذا أبطأ النصر ، وزاد الداعية إذا أبطأ عنه الناس بالإجابة ، وزاد العالم في زمن غربة العلم ، بل هو زاد الكبير والصغير ، والرجل والمرأة .

أنواع الصبر :

وهو ثلاثة أنواع : صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على امتحان الله.[٥]

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ

---

(١) انظر : لسان العرب : (٤٣٨/٤) ، ومعجم مقاييس اللغة : (٣٢٩/٣) .

(٢) انظر : مدارج السالكين : (٤٢٦/٢) .

(٣) مفردات الراغب (٥٢٧٣) .

(٤) انظر : مدارج السالكين : (٤٢٠/٢) ، ومجموع الفتاوى : (٣٩/١٠) .

(٥) انظر : مدارج السالكين : (٤٢٧/٢) .

وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر : ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت : ٣٣-٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر : ١-٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

الشكر لغة :

مصدر شكر يشكر . قال ابن منظور : الشكر عرفان الإحسان ونشره . ورجل شكور : كثير الشكر ، وهو الذي يجتهد في شكر ربه بطاعته .[١]

الشكر اصطلاحًا :

قال ابن القيم : الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده : ثناءً واعترافًا ، وعلى قلبه شهودًا ومحبة ، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعةً .[٢]

العلاقة بين الصبر والشكر :

يرتبط الصبر بالشكر ارتباطًا وثيقًا ، وكل منهما يستلزم الآخر . وضح تلك العلاقة الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – حيث قال :

"الشكر يتضمن الصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية وقال بعض الأئمة : الصبر يستلزم الشكر ولا يتم إلا به ، وبالعكس فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر . فمن كان في نعمة ففرضه الشكر والصبر . وأما الشكر فواضح ، وأما الصبر فعن

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة : (٢٠٧/٣) ، ولسان العرب : (٢٣٠٥/٤-٢٣٠٨) .

(٢) انظر : مدارج السالكين : (٥٧٥/٢) .

المعصية ، ومن كان في بلية ففرضه الصبر والشكر ، أما الصبر فواضح ، وأما الشكر فالقيام بحق الله في تلك البلية ، فإن لله على العبد عبودية في البلاء ، كما له عبودية في النعماء". [١]

فالشكر من كمال الإيمان وحسن الإسلام فهو نصف والنصف الآخر الصبر . والشكر اعتراف بالمنعم والنعمة ، وسبب من أسباب حفظ النعمة ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر : ٢٩-٣٠] .

والإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال لأنه يتقلب بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه ، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه ، وقدر يجري عليه ، ونعمة يجب شكر المنعم بها عليه ، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه ؛ فالصبر لازم له إلى الممات .

---

(١) فتح الباري : (١١/٣١١) .

المبحث الثاني
المآخذ العقدية على كتاب الصبر والشكر
والرد عليه على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

علمنا مسبقًا أن الغزالي- رحمه الله – ألّف كتابه الإحياء للوصول إلى تزكية النفس وإصلاح القلب للتقرب إلى رب العالمين ، ولكنه أسسه على منهج الصوفية الذي يعتمد على قطع العلائق بالبعد عن الدنيا والإعراض عن المال والجاه . وهذا كما يرى الغزالي أنه يتحقق للفقير أكثر من غيره لأنه ليس عنده إلا الكفاف ، ويرى أن للفقر مزية على الغنى – كما سيأتي بيان ذلك في كتاب الفقر والزهد – .

وهو في هذا الفصل يتحدث عن الصبر ويربطه بالفقر باعتبار أن الصبر حال الفقير الذي عليه أن يزهد في هذه الدنيا وأن الصبر له أفضل ، فيصبر على الجوع والسهر والخلوة والصمت حتى تنكشف له الأمور فتحصل له المعرفة الحقيقية بالله تعالى . كل ذلك كان على منهج المتصوفة وذلك لقلة معرفة الغزالي بالحديث الصحيح وطريقة أهل السنة والحديث .

وقد اشتمل كتاب الصبر والشكر من إحياء علوم الدين على عدد من المآخذ ، وقد حصرتها في المسائل الآتية :

المسألة الأولى :

ذكر الإمام الغزالي – رحمه الله – : " قول ابن عباس رضي الله عنهما : " الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة ، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة " .

ثم قال : " وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل ، على ما قبلها وهي من الفرائض ، لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم . فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين ، فإن ذلك شديد على النفس " [(١)].

(١) إحياء علوم الدين : (٨٩/٤).

التعليق :

هذه المسألة احتوت أمرين :

الأمر الأول :

ما ذكره الإمام الغزالي عن ابن عباس – رضي الله عنه – من تقسيم الدرجات لكل وجه من أوجه الصبر ، غير صحيح لسببين :

السبب الأول :

أن ما ذكره عن ابن عباس – رضي الله عنه – لم أجد له أصلاً ، سوى ما نقله عن شيخه أبي طالب المكي في كتابه " قوت القلوب" [١]. فلا اعتبار لهذا التقسيم بدون مستند شرعي .

السبب الثاني :

أن الرواية التي وقفت عليها بأسانيدها عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – ، مع اختلاف في الترتيب ، حيث روي من حديث علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– مرفوعاً : " إن الصبر على المصيبة يكتب به للعبد ثلاث مئة درجة ، وإن الصبر على الطاعة يكتب له به ست مئة درجة ، وإن الصبر عن المعاصي يكتب له به تسع مئة درجة "[٢].

ذكر ابن الجوزي نحو هذا الحديث ، وقال : حديث موضوع . [٣] .

ويعود ذلك الأمر إلى قله خبرة الغزالي – رحمه الله – بالحديث ، وتمييز الصحيح من غيره – كما سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن مصادره الشرعية من هذا البحث – مما ترتب عليه نسبة شيء إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – وإلى الدين وهو ليس منه .

---

(١) انظر : قوت القلوب ، أبو طالب المكي : (٥٤٨/٢) ، تحقيق : محمود إبراهيم الرضواني ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ، مكتبة دار التراث–القاهرة .

(٢) الصبر والثواب عليه ، لابن أبي الدنيا : (٢٥/١) ، حديث رقم ٢٤

(٣) الموضوعات ، لابن الجوزي : (١٨٢/٣ – ١٨٤) ، وانظر : تنزيه الشريعة المرفوعة ، لابن العراق الكناني : (٣٣٩/٢-٣٤٠) ، وانظر : اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، للسيوطي : (٣١٣/٢) .

الأمر الثاني :

قرر الغزالي – رحمه الله – أن الصبر على بلاء الله تعالى ، أفضل من الصبر على الطاعات ، والصبر عن المحرمات ، معللاً قوله هذا بأن الصبر على البلاء لا يقدر عليه إلا الأنبياء ، وأنه شديد على النفس [1].

التعليق :

أما من حيث أن الصبر على البلاء شديد على النفس ، وأن الأنبياء أشد بلاءً فقد جاء في الحديث : قلت يا رسول الله : أي الناس أشد بلاءً ؟ قال : " الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلبًا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة "[2] .

ففي الحديث دلالة على أن أعظم الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، و جاء في شرح الترمذي : " أن الأنبياء لو لم يبتلوا لتوهم فيهم الألوهية ، وليتوهن على الأمة الصبر على البلية"[3] .

وجاء في شرح سنن ابن ماجه : ولأن من كان أشد بلاءً كان أشد تضرعاً والتجاءً إلى الله تعالى ، فلا يلهو عن ذكر الله تعالى[4].

قلت : وليس في الحديث ما يدل على تقديم هذه الرتبة على الصبر على الطاعات أو الصبر عن المحرمات. ولا دليل على أن الابتلاء لا يقدر عليه إلا الأنبياء ، فإنه إن لم يكن ممكنًا لغير الأنبياء لكان تكليفًا بما لا يطاق – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين : (٨٩/٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في :كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء ، رقم (٢٣٩٨) ، وأخرجه ابن ماجه في : كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء ، رقم (٤٠٢٣) ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه : (١٦١/٧) . قال الشيخ الألباني : حديث حسن صحيح .

(٣) تحفة الأحوذي ، حديث رقم (٢٣٩٨) ، ص ٦٦١٧.

(٤) شرح سنن ابن ماجه : كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء ، رقم (٤٠٢٣) ، (٢٩١/١) .

وأما من حيث أي الصبرين أحب إلى الله تعالى : الصبر على الأوامر أم الصبر عن المحارم ؟ فهذا موضع تنازع فيه الناس .

فقالت طائفة : الصبر عن المخالفات أفضل ؛ لأنه أشق وأصعب ، فإن أعمال البِر يفعلها البَرُّ والفاجر ، ولا يصبر عن المخالفات إلا الصديقون . ولأن الصبر عن المحرمات صبر على مخالفة هوى النفس ، وهو أشق شيء وأفضله .

وقالوا : ليس العجب ممن يصبر على الأوامر ، فإن أكثرها محبوبات للنفوس السليمة لما فيها من العدل والإحسان والإخلاص والبر ، وهذه محاب للنفوس الفاضلة الزكية ، بل العجب ممن يصبر عن المناهي التي أكثرها محاب للنفوس، فيترك المحبوب العاجل في هذه الدار للمحبوب الآجل في دار أخرى ، والنفس الموكلة بحب العاجل فصبرها عنه مخالف لطبعها [١].

ونقل ابن القيم – رحمه الله – كلاماً للإمام ابن تيمية في هذه المسألة قال :

" سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : كان صبر يوسف – عليه السلام – عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها ، أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب ، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها ، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر. وأما صبره عن المعصية : فصبر اختيار ورضى محاربة للنفس" [٢].

وقالت طائفة أخرى : بل الصبر على فعل المأمور أفضل وأجل من الصبر على ترك المحظور؛ لأن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحظور ، والصبر على أحب الأمرين أفضل وأعلى [٣].

قال ابن تيمية فيما نقله عنه ابن القيم : " الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه من مفسدة وجود المعصية " [٤].

---

(١) انظر : عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، لابن القيم الجوزية ، ص (٣٦-٣٧) ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـ ، دار ابن كثير-دمشق .

(٢) مدارج السالكين ، ابن القيم : (٤٢٧/٢) ، وانظر : مجموع الفتاوى ، لابن تيمية : (٣٢٥/١٠).

(٣) انظر : عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، ص٣٨ .

(٤) مدارج السالكين ، (٤٢٨/٢) ، وانظر : جامع العلوم والحكم ، لابن رجب الحنبلي : (٢٥/٢) ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، وإبراهيم باجس ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٢هـ ، مؤسسة الرسالة-بيروت .

وقال أهل العلم : والصبر ثلاثة أنواع ؛ وأخذوا هذا التقسيم من الاستقراء ؛ فالصبر على الطاعة هو أشقها وأفضلها ؛ لأن الصبر على الطاعة يتضمن فعلاً وكفّاً اختيارياً : فعل الطاعة ، وكفّ النفس عن التهاون بها . وأما الصبر عن المعصية ليس فيه إلا كفّ فقط . لكنه أحياناً يكون شديداً على النفس [(١)].

قال ابن القيم : " فإذا تبين أن فعل المأمور أفضل فالصبر عليه أفضل أنواع الصبر ؛ وبه يسهل عليه الصبر عن المحظور والصبر على المقدور ، فإن الصبر الأعلى يتضمن الصبر الأدنى دون العكس ، وقد ظهر من هذا أن الأنواع الثلاثة متلازمة ، وكل نوع منها يعين على النوعين الآخرين ، وإن كان من الناس من قوة صبره على المقدور ، فإذا جاء الأمر والنهي فقوة صبره هناك ضعيفة ، ومنهم من هو بالعكس من ذلك ، ومنهم من قوة صبره في جانب الأمر أقوى ، ومنهم من هو بالعكس " [(٢)] .

قلت : ويظهر من هذا كله أن الصبر على الطاعات أفضل ثم الصبر عن المحظورات أو المعاصي ، وأن الصبر على قضاء الله وقدره يتضمنها ، فقد يتعلق بالطاعات ، فيكون قضاء شرعيًا وكونيًا فيكون الصبر هنا أفضل من الصبر عن المعاصي .

وقد يتعلق بالمعصية فيكون صبرًا عنها شرعيًا مأمورًا به ، وقدريًا يرضى به كونه من قدر الله تعالى .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم "سورة البقرة" ، لابن عثيمين : (١١٢/٣) ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ ، دار ابن الجوزي–الدمام .

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، ص ٤٤.

المسألة الثانية :

في بيان الأفضل من الصبر والشكر فقد ذكر الغزالي – رحمه الله – أن الناس اختلفوا في ذلك .

فمن قائل أن الصبر أفضل من الشكر ، وقال آخرون : الشكر أفضل ، وقال آخرون : هما سيان ، وقال آخرون : يختلف ذلك باختلاف الأحوال . واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب .

ثم ذكر في بيان ذلك مقامين فقال :

" المقام الأول : البيان على سبيل التساهل . وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ، ولا يطلب التفتيش بحقيقته . وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق ؛ لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة . فإن هذا المقام مقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضي تفضيل الصبر . فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله ، فإذا أضيف إليه ما ورد في فضيلة الصبر ، كانت فضائل الصبر أكثر ، بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل ، كقوله – صلى الله عليه وسلم – :" من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر "[(١)].

وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر ، لأن الصبر حال الفقير ، والشكر حال الغني .

المقام الثاني : هو البيان الذي نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور ، بطريق الكشف والإيضاح ، فنقول فيه :

كل أمرين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الإبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما . وكل مكشوف يشتمل على أقسام ، لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة ، بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان ، والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة ، فلا يتبين حكمهما في الرجحان والنقصان مع الإجمال" [(٢)].

---

(١) قال الحافظ العراقي : لم أقف له على أصل . انظر : المغني عن الأسفار بذيل الإحياء : (١٠٣/١) .

(٢) إحياء علوم الدين : (١٦٦/٤ – ١٦٧) .

ثم ذكر كلامًا مطولاً بيّن فيه فضل علوم المكاشفة على علوم المعاملة ، وأنه بالكشف يتبين أن الجواب المطلق في أيهما أفضل الصبر أم الشكر ، خطأ فقال : " إذ لو قال لنا قائل : الخبز أفضل أم الماء ، لم يكن فيه جواب حق ، إلا أن الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل . فإن اجتمعا فلينظر إلى الأغلب ، فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل ، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، فإن تساويا فهما متساويان "(١). ثم ذكر أمثلة في حالات يفضل الصبر فيها على الشكر ، والعكس .

التعليق :

هذه المسألة احتوت عدة أمور :

الأمر الأول : ما ذكره الغزالي رحمه الله من اختلاف الناس في بيان الأفضل من الصبر والشكر، هو نزاع وارد بين الفقهاء والصوفية وغيرهم ، وقد ذكر ذلك الإمام بن تيمية في الفتاوى حيث بيّن أنه قد كثر تنازع الناس في أيهما أفضل : الفقير الصابر أو الغني الشاكر ، وأن أكثر كلامهم فيها مشوب بنوع من الهوى ، أو بنوع من قلة المعرفة . وهذا التنازع إنما كان من متأخري المسلمين(٢).

وقد رّجح ابن تيمية – رحمه الله – قولاً ثالثاً في هذه المسألة وهو الصواب فقال : " ليس الصبر أفضل من الشكر مطلقاً ، ولا الشكر أفضل من الصبر مطلقاً ، بل أفضلهما أتقاهما. كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، كما أنه لم ينقل عن الصحابة والتابعين تفضيل أحدهما على الآخر"(٣) . وفي قوله تعالى :﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ [النساء : ١٣٥] ، ما يبين أن الغنى قد يكون أفضل لقوم في بعض الأحوال ، والفقر أفضل لقوم في بعض الأحوال ، فإن استويا في سبب الكرامة استويا في الدرجة ، وإن فضل أحدهما الآخر في سببها ترجح عليه ، هذا هو الحكم العام .

(١) إحياء علوم الدين : (١٦٩/٤).

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : (٧١/١١) .

(٣) مجموع الفتاوى : (٧٣/١١).

فقد كان في الأنبياء والسابقين الأولين من الأغنياء من هو أفضل من أكثر الفقراء : كإبراهيم الخليل ، وأيوب ، وداود وسليمان – عليهم السلام – ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف – رضوان الله عليهم – ، ونحوهم .

وكان فيهم من الفقراء من هو أفضل من أكثر الأغنياء : كالمسيح عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا – عليهم السلام – ، وعلي بن أبي طالب ، وأبي ذر الغفاري – رضي الله عنهما – ، ونحوهم .

والكمال أن يقوم بالمقامين ، فيقوم بالشكر والصبر على التمام . كحال نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – ، وحال أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – [1].

وقد وردت نصوص عن النبي – صلى الله عليه وسلم – دلت على تفضيل هؤلاء تارة ، وهؤلاء تارة فإنه قد روي : أن الفقراء قالوا له : يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضول أموال يتصدقون بها ولا نتصدق . فقال : " ألا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه أدركتم به من سبقكم، ولم يلحقكم من بعدكم إلا من عمل مثل عملكم ؟ " فعلمهم التسبيح المائة في دبر كل صلاة. فجاؤوا إليه فقالوا : إن إخواننا من الأغنياء سمعوا ذلك ففعلوه ، فقال : " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ".[2]

قال ابن تيمية – رحمه الله – في بيان الحديث : " فهذا فيه تفضيل للأغنياء الذين عملوا مثل عمل الفقراء من العبادات البدنية وزادوا عليهم بالإنفاق في سبيل الله تعالى " [3] .

وثبت عنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم " [4].

قال شيخ الإسلام : " فهذا فيه تفضيل الفقراء المؤمنين بدخول الجنة قبل الأغنياء المؤمنين . وكلاهما حق ، فإن الفقير ليس معه مال كثير يحاسب على قبضه وصرفه ، فلا يؤخر عن دخول

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى : (١١/١٢٠-١٢٣)

(٢) أخرجه البخاري : في الأذان ، باب الذكر بعد الصلاة : (٨٤٢) .

(٣) مجموع الفتاوى : ابن تيمية : (١١/١٢٧).

(٤) أخرجه الترمذي : في الزهد ، باب ما جاء أن الفقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل الأغنياء ، رقم (٢٣٥٣) ، قال الشيخ الألباني : "حسن صحيح ".

الجنة لأجل الحساب ، فيسبق في الدخول ، وهو أحوج إلى سرعة الثواب ، لما فاته من الطيبات في الدنيا . والغني يحاسب ، فإن كان محسناً في غناه غير مسيء وهو فوقه ، رفعت درجته عليه بعد الدخول ، وإن كان مثله ساواه ، وإن كان دونه نزل عنه . وليست حاجته إلى سرعة الثواب كحاجة الفقير " (١) .

ونظير هذا قوله – صلى الله عليه وسلم – في حوضه : " أول الناس علي وروداً فقراء المهاجرين ، الدنسين ثياباً ، والشعث رؤوساً ، الذين لا ينكحون المتنعمات ، ولا تفتح لهم أبواب الملوك ، يموت أحدهم وحاجته تختلج في صدره لا يجد لها قضاء " (٢).

قال ابن تيمية – رحمه الله – : " وليس في المسألة عن النبي صلى الله عليه وسلم أصح من هذين الحديثين وفيها الحكم الفصل : إن الفقراء لهم السبق والأغنياء لهم الفضل ، وهذا قد يترجح تارة " (٣).

قلت : وإنما ذكرت هذه المسألة ذلك أن الغزالي –رحمه الله– يبني تفضيل الصبر على الشكر وذلك بربطه بتفضيل الفقر ، وأن الفقر له مزية على الغنى مستشهدًا على ذلك بأحاديث غالبها غير صحيح أو مما لا أصل له .

وسيأتي تفصيل ذلك في المآخذ العقدية على كتاب الفقر والزهد .

الأمر الثاني :

ما ذكره الغزالي – رحمه الله – من أن موارد الشرع تقتضي تفضيل الصبر ، وأن هناك ألفاظًا صريحة في التفضيل ومنها الحديث الذي استشهد به " من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر " (٤).

---

(١) مجموع الفتاوى : (١١/٧٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه : في الزهد ، باب ذكر الحوض ، رقم (٤٣٠٣) ، وأخرجه الترمذي : في صفة القيامة ، باب ما جاء في صفة أواني الحوض ، رقم (٢٤٤٤) ، وقال أبو عيسى : " هذا حديث غريب من هذا الوجه " . وقال الألباني : صحيح المرفوع منه .

(٣) مجموع الفتاوى : (١١/٧٦) .

(٤) سبق تخريجه : ص ١١٦

فإنه على ضوء ما تقدم من كلام ابن تيمية – رحمه الله – لم ترد نصوص صريحة في تفضيل الصبر على الشكر مطلقاً ، والحديث الذي ذكره الغزالي – رحمه الله – لتأكيد قوله ، ليس لـــه أصل ، فقد ذكر ذلك الحافظ العراقي ، وذكره كذلك السبكي حيث صنف الحديث ضـــمن الأحاديث التي لم يجد لها إسناداً [(١)].

وكذلك الحال في أغلب الأحاديث التي استشهد بها الغزالي – رحمه الله – لهذا الغـــرض ، هي أحاديث في جملتها ليس لها أصل أو أحاديث ضعيفة ، كما بيّن ذلك الحـــافظ العراقـــي في تخريجه للأحاديث .

وهذا حـــال الغـــزالي – رحمه الله – في أكثر ما يرويه في الإحيـــاء ، فقد قال عن نفسه : " وبضاعتي في الحديث مزجاة " [(٢)].

وقال ابن النجار عنه : " ولم يكن له أستاذ ولا طلب شيئاً من الحديث " [(٣)].

قلت : وعليه فإن قول الغزالي بأن موارد الشرع تقتضي تفضيل الصبر ، لا دليل عليه . ومما هو معلوم من الدين بالضرورة أنه لا يجوز إثبات شيء إلا بدليل صحيح ، كما لا يجوز نفـــي شيء إلا بدليل .

الأمر الثالث :

قول الغزالي – رحمه الله – في بيانه للمقام الأول : " وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق ، لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة " [(٤)].

التعليق :

إن الله تعالى قد خاطب الناس بالقرآن الكريم ليس فيه حقائق غامضة ، وليس فيه ألغـــاز

---

(١) انظر : طبقات الشافعية الكبرى : (١٧١/٤) .

(٢) قانون التأويل ، للغزالي ، ص ١٣٢، ضمن رسائل الغزالي .

(٣) طبقات الشافعية ، للسبكي : (١٠٥/٤) .

(٤) إحياء علوم الدين : (١٦٦/٤) .

ولا أحاجي وإنما أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين .

وأما تقسيم الغزالي - رحمه الله – للناس فيعود لكونه يرى أن الإنسان الكامل له ثلاثة آراء :

١- رأي بحسب التقليد . ٢- رأي بحسب الشائع أو المذهب الذي ينسب إليه .

٣- رأي بحسب اعتقاده هو بينه وبين نفسه أو بينه وبين خاصته .

وعلى أساس ذلك التقسيم فإن الغزالي -رحمه الله- يكتب لثلاث طوائف ، كل بحسبه وما يليق به . وهذا من الأمور التي اعترض بها عليه ألا وهو وجود التعارض والتناقض في كتبه .[١]

ولكن الذي يدرس الغزالي وينظر في مختلف كتبه يعلم عدم وجود تناقض فيما يكتبه[٢] تبعًا لتقسيمه الناس إلى ثلاث فئات كما تقدم .

فهو يخاطب العوام ، والخواص عندما يتكلم عن علوم المعاملة .

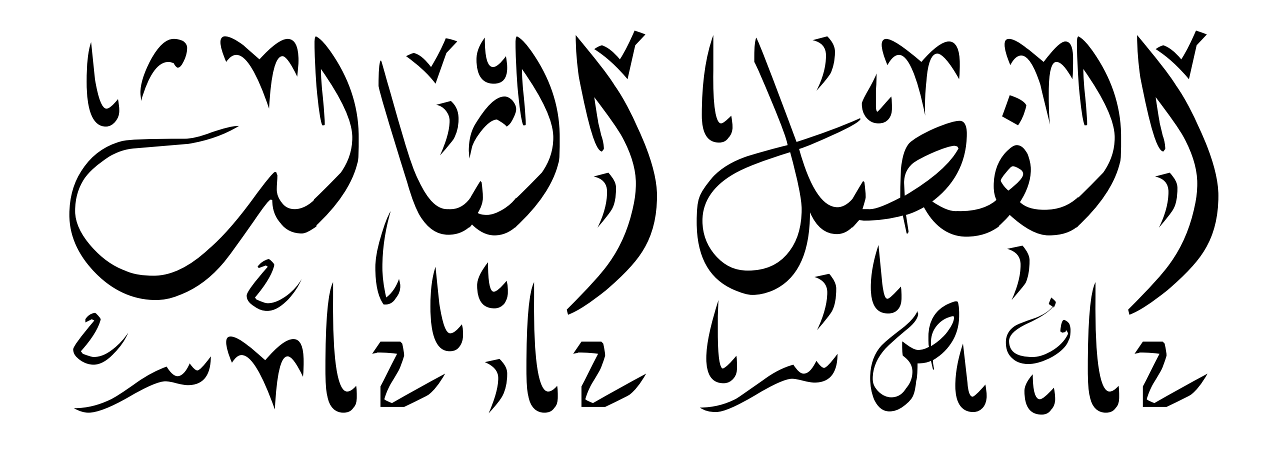
ويخاطب خواص الخواص عند حديثه عن علوم المكاشفة .[٣]

---

(١) انظر : أصول الدين عند أبي حامد الغزالي : د. أحمد الحربي ، ص ٧٧ وما بعدها .

(٢) انظر : مقارنة بين الغزالي وابن تيمية ، ص١٦-١٧ ، والحقيقة في نظر الغزالي ، سليمان دنيا ، ص٧٦-٨٢ .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين : (١٩٦/٤) .


الفصل الثالث

الفصل الثالث

المآخذ العقدية على كتاب الخوف والرجاء

المبحث الأول : مفهوم الخوف والرجاء عند السلف.

المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب الخـــوف والرجاء والرد عليها على ضوء عقيدة السلف.

المبحث الأول

مفهوم الخوف والرجاء عند السلف

الخوف لغة :

تدل مادة (خ و ف) على الذعر والفزع .[١]

الخوف اصطلاحًا :

توقع حلول مكروه أو فوات محبوب .[٢]

والخوف ليس مقصودًا لذاته ، ليس المقصود أن نخاف لأجل أن نخاف ، بل نخاف ليكون الخوف وسيلة تصلح أحوالنا .

قال ابن رجب – رحمه الله – : " القدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم ، فإن زاد على ذلك ، بحيث صار باعثًا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات والتبسط في فضول المباحات ، كان ذلك فضلاً محمودًا ، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضًا أو موتًا ، أو همًا لازمًا ، بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله – عز وجل – لم يكن محمودًا "[٣].

والخوف من المقامات العلية ، وهو من لوازم الإيمان . قال تعالى : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

قال ابن القيم – رحمه الله – : "والقلب في سيره إلى الله – عز وجل– بمنزلة الطائر ، فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحان ، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر ، ولكن السلف

---

(١) معجم مقاييس اللغة : (٢/٢٣٠) .

(٢) التعريفات ، للجرجاني ، ص١٠١ .

(٣) التخويف من النار واتعريف بمحال دار البوار ، لابن رجب ، ص٢١ ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ ، دار الكتب العلمية – بيروت .

استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء ، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف".[١]

روى أبو هريـــرة – رضي الله عنه – قال : قـــال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المترل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة " [٢]

الرجاء لغة :

يقال أَرجَت الناقة دنا نتاجها، وحقيقته:جعلت لصاحبها رجاءً في نفسها بقرب نتاجها .[٣]

الرجاء اصطلاحًا :

قال ابن القيم – رحمه الله – : الرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الله ".

وقيل : هو الاستبشار بجود وفضل الرب – تبارك وتعالى – والارتياح لمطالعة كرمه .[٤]

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله – : المقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه ، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها .[٥]

قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء : ٥٧] ، فابتغاء الوسيلة إليه : طلب القرب منه بالعبودية والمحبة ، فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه : الحب ، والخوف ، والرجاء .[٦] وقـــال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

عن جابر – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم — يقـــول قبل موته بثلاث : " لا يموتن أحدكم إلا وهو محسن الظن بربه " [٧].

---

(١) مدارج السالكين : (١٤٥/٢) .

(٢) أخرجه الترمذي ، في كتاب صفة القيامة ، رقم (٢٤٥٠) ، وقال : حسن غريب . قال الألباني : حديث صحيح .

(٣) انظر : مفردات الراغب ، ص ١٩٠

(٤) انظر : مدارج السالكين : (٢١٧/٢–٢١٨) .

(٥) فتح الباري : (٣٠١/١١) .

(٦) انظر : مدارج السالكين : (٢١٦/٢) .

(٧) أخرجه مسلم : في كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب الأمر بحسن الظن بالله عند الموت ، رقم (٢٨٧٧) .

وعن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " يقول الله – عز وجل – : أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء " [١].

قال ابن القيم : " والرجاء ثلاثة أنواع : نوعان محمودان ، ونوع غرور مذموم .
فالأولان : رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله ، فهو راج لثوابه . ورجل أذنب ذنوبًا ثم تاب منها ، فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه .
والثالث : رجل متماد في التفريط والخطايا ، يرجو رحمة الله بلا عمل ، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب ".[٢]

---

(١) أخرجه أحمد : (٤٩١/٣).

(٢) مدارج السالكين : (٢١٨/٢) .

المبحث الثاني

المآخذ العقدية على كتاب الخوف والرجاء والرد عليه على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

قال الإمام الغزالي : " اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف . لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له . والحب يغلب الرجاء . واعتبر ذلك بملكين ، يخدم أحدهما خوفًا من عقابه ، والآخر رجاء لثوابه . ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب ، لاسيما في وقت الموت " . (١)

وقال أيضا في الخوف : " اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه ، بسبب توقع مكروه في الاستقبال ، ومن أنس بالله ، وملك الحق قلبه ، وصار ابن وقته ، مشاهدًا لجمال الحق على الدوام ، لم يبق له التفات إلى المستقبل ، فلم يكن له خوف ولا رجاء ، بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء ، فإنهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها ..... وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق ، كان ذلك نقصًا في الشهود ، وإنما دوام الشهود غاية المقامات " . (٢)

ثم قال: "وتختلف أحوال الخائفين فيها ، وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله وهو خوف العارفين ، وما قبل ذلك خوف العاملين ، والصالحين ، والزاهدين ، وكافة العالمين. ومن لم تكمل معرفته ، ولم تنفتح بصيرته ، لم يشعر بلذة الوصال ، ولا بألم البعد والفراق .

وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار ، وإنما يخاف الحجاب ، وجد ذلك في باطنه منكرًا وتعجب منه في نفسه ، وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم ، لولا منع الشرع إياه من إنكاره ، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد ، وإلا فباطنه لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين ، بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان ، وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم .

---

(١) إحياء علوم الدين : (١٧٧/٤).

(٢) المرجع السابق : (١٩٠/٤-١٩١).

فأما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم ، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلاً له ، ومن كان أهلاً له استبصر بنفسه و استغنى عن أن يشرحه له غيره " [١].

التعليق :

من خلال ما سبق سأناقش هذه المسألة من عدة جوانب :

الأول : مخاطبة الغزالي –رحمه الله– لثلاث فئات من الناس تبعاً لتقسيمه الناس إلى :

عوام ، خواص ، وخواص الخواص ، وهم العارفون .

الثاني : نظرة الغزالي –رحمه الله– إلى الخوف والرجاء عند مخاطبة العارفين حيث يجعل أعلى المقامات خوف الفراق لا خوفًا من ناره ، ولا شوقًا إلى جنته – عز وجل– .

الثالث : نظرته إلى الخوف والرجاء عند مخاطبة العوام حيث تراه يذكر أن الخوف والرجاء متلازمان ، والعوام في حاجة إلى اشتغال القلب بأحدهما أو كلاهما . لمنع النفس عن رعوناتها .

الرابع : في أي الحالين وافق الغزالي رحمه الله مذهب السلف .

فقد قال ابن تيمية –رحمه الله– :

" إذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني ، فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها ، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه ، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب . قال تعالى : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ ﴾ [الإسراء : ٥٧] . " [٢].

وقال ابن تيمية أيضًا :

" ورحمته اسم جامع لكل خير . وعذابه اسم جامع لكل شر. ودار الرحمة الخالصة هي الجنة . ودار العذاب الخالص هي النار ، وأما الدنيا فدار امتزاج ، فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة ، فالجنة اسم جامع لكل نعيم ، وأعلاه النظر إلى وجه الله تعالى" [٣].

---

(١) إحياء علوم الدين : (١٩٦/٤) .

(٢) مجموع الفتاوى : (٦١/١٠) .

(٣) المرجع السابق : (٦٢/١٠) .

وجاء في صحيح مسلم نحوه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : " إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ما هو؟ ألم يبيض الله وجوهنا ؟ ألم يثقل موازيننا ويدخلنا الجنة وينجينا من النار ؟ قال : " فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه " [1]

قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس : ٢٦] . قال الشيخ السعدي في تفسيرالآية : " فهؤلاء الذين أحسنوا لهم الحسنى وهي الجنة الكاملة في حسنها ، وزيادة : وهي النظر إلى وجه الله الكريم وسماع كلامه والفوز برضاه والبهجة بقربه ، فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المؤمنون ويسأله السائلون " . [2]

وقد بيّن ابن تيمية زوال الاشتباه في قول من قال : ما عبدتك شوقًا إلى جنتك ولا خوفًا من نارك ، وإنما عبدتك شوقًا إلى رؤيتك ، فقال : " فإن هذا القائل ظنّ هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشرب واللباس والنكاح والسماع ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات ، ولهذا قال بعض من غلط من المشائخ لما سمع قوله تعالى : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢]. فأين من يريد الله ؟

وقال آخرون في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة : ١١١] ، إذا كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر إليه ؟ وكل هذا لظنهم أن الجنة لا يدخل فيها النظر .

والتحقيق أن الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم ، وأعلى ما فيها النظر إلى وجه الله تعالى ، وهو من النعيم الذي ينالونه في الجنة . قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] . وكذلك أهل النار فإنهم محجوبون عن ربهم ، ويدخلون النار "[3]. قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ۝ ﴾ [المطففين : ١٥-١٦] .

---

(١) أخرجه مسلم : في كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ، رقم (١٨١)

(٢) تيسير الكريم الرحمن ، ص٣٦٢ .

(٣) مجموع الفتاوى : (١٠/٦٢-٦٣) .

ولهذا كان أفضل الخلق -عليه الصلاة والسلام- يسأل الله الجنة ، ويستعيذ به من النار ، ولما سأل بعض أصحابه عما يقول في صلاته قال : إني أسأل الله الجنة ، وأعوذ بالله من النار ، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ ، فقال : " حولها ندندن "[(١)].

وقال الشيخ سفر الحوالي : " وضل أناس في الرجاء والمحبة ، حيث افتعلوا بينهما تناقضًا ، فاحتقروا الرجاء واعتبروه أضعف مقامات المريدين ، وغلوا في المحبة حتى أسقطوا ما يقابلها من الخوف ، وجعلوا همهم – بزعمهم – عبادة الله لذاته لا طعمًا في جنته ولا خوفًا من ناره ، وجعلوا ذروة المحبة الفناء في المحبوب ، ولهذا قال فيهم السلف : " من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق "[(٢)].

ثم نرى الغزالي -رحمه الله- في كتابه إحياء علوم الدين والذي قال عنه : -أنه يختص بعلوم المعاملة – يقرر للعامة الذين يوجه إليهم هذا العلم- بخلاف علوم المكاشفة – مسألة الخوف والرجاء فيقول :

" فالخوف والرجاء متلازمان ، يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر ، نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه "[(٣)].

ثم قال في موضع آخر : " والخوف الرجاء دواءان يداوى بهما القلوب ففضلها بحسب الداء الموجود . فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به ، فالخوف أفضل . وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله ، فالرجاء أفضل "[(٤)].

وأورد الغزالي عن مكحول الدمشقي[(٥)] قوله : من عبد الله بالخوف فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء فهو مرجيء ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف

---

(١) أخرجه أبو داود ، في كتاب الصلاة ، باب في تخفيف الصلاة ، رقم (٧٩٢-٧٩٣) . قال الألباني : حديث صحيح .

(٢) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي : سفر الحوالي ، ص١٣٨ .

(٣) إحياء علوم الدين : (٤ /١٩٩).

(٤) المرجع السابق : (٤ /٢٠٢).

(٥) مكحول الدمشقي ، من أهل كابل وكانت فيه لُكنة ، وكان ضعيفًا في حديثه وروايته ، مات سنة ١١٨هـ ، وقال غيره : مات سنة ١١٣هـ . انظر : الطبقات الكبرى ، لابن سعد : (٣١٥/٧-٣١٦) .

والرجـــاء والمحبة فهو موحد . [١]

قال ابن القيم رحمه الله : " ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء ، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف " . [٢]

ومن هنا يتبين أن الإمام الغزالي وافق السلف – رحمهم الله تعالى– فيما يتعلـــق بـــالخوف والرجاء خلال مخاطبته العوام ، وأما عند مخاطبته للعارفين فقد خالف السلف حيث يـــرى أن أعلى المقامات خوف الحجاب ، لا خوفًا من النار ، ولا شوقًا إلى الجنة . ويؤيد ذلك قولـــه : " فأما لذة العارفين فلا يدركهـــا غيرهم ، وتفصيـــل ذلك وشرحـــه حـــرام مع من لـــيس أهلاً له " . [٣]

وأما ما يتعلق بمخاطبة الغـــزالي لثلاث فئات من الناس تبعًا لتقســـيمه النـــاس إلى عـــوام ، خواص ، خواص الخواص ، فقد سبق مناقشة ذلك في الفصل الســـابق مـــن كتـــاب الصـــبر والشكر .

(١) إحياء علوم الدين : (٤ /٢٠٤).

(٢) مدارج السالكين : (١٤٥/٢).

(٣) إحياء علوم الدين : (١٩٦/٤).


الفصل الرابع

الفصل الرابع

المآخذ العقدية على كتاب الفقر والزهد

المبحث الأول : مفهوم الفقر والزهد عند السلف.

المبحث الثاني : المـآخذ العقدية على كتـاب الفقر والزهد والرد عليها على ضوء عقيدة السلف.

المبحث الأول

مفهوم الفقر والزهد عند السلف

الزهد لغة :

تدل مادة (زهد) على القلة في كل شيئ ، والزهيد : الشيئ القليل ، والزاهد في الشيئ : الراغب فيه .(١)

الزهد اصطلاحًا :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " الزهد المشروع : هو تـــرك الرغـــبة فيما لا ينـــفع في الدار الآخـــرة ، وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله .(٢)

ويعين على الزهد عدة أمور :

" أحدها : علـــم العبـــد أن الدنيـــا ظل زائـــل ، وخيـــال زائر ، فهي كما قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد : ٢٠] ، ونهى الله عن الاغتـــرار بالدنيـــا ، وأخبرنـــا عن سوء عاقبـــة المغترين ، وحذرنـــا مثل مصارعهـــم ، وذم من رضي بهـــا ، واطمـــأن إليهـــا .

الثاني : علمه أن وراءها دارًا أعظـــم منها قدرًا ، وهي دار البقـــاء ، فالزهـــــد فيهـــا لكمال الرغبـــة فيها هو أعظـــم منها .

الثالث : معرفتـــه وإيمانـــه الحق بأن زهـــده فيهـــا لا يمنعـــه شيئًا كـــتب له منهـــا ، وأن حرصـــه عليهـــا لا يجلـــب له ما لم يقـــض له منهـــا فمتى تيقـــن ذلك ثلج له صدره ،

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة : (٣/٣٠) .

(٢) مجموع الفتاوى : (١٠/٢١) .

وعلم أن مضمونه منها سيأتيه . فهذه الأمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد في الدنيا ". [١]

وقال ابن القيم : " الزهد أقسام :

زهد في الحرام وهو فرض عين . وزهد في الشبهات وهو بحسب مراتب الشبهة فإن قويت التحق بالواجب ، وإن ضعفت كان مستحبًا . وزهد في الفضول كفضول الكلام والنظر وزهد في الناس" . [٢]

وحقيقة الزهد هو زهد القلب ، لا زهد الترك من اليد وسائر الأعضاء ، فهو تخلي القلب عنها ، لا خلو اليد منها . [٣]

من فوائد الزهد :

١- صرف المسلم عن التعلق بالملذات الفانية إلى العمل من أجل النعيم المقيم .

٢- فيه كبح ميول النفس إلى الشهوات .

٣- الزاهد يحبه الله ويقربه إليه .

٤- حب الناس له حيث أنه لا يزاحمهم على دنياهم .

٥- يؤصل في النفس حب الإنفاق في سبيل الله وعدم التعلق بالدنيا .

الفقر لغة :

وهو ضد الغنى وهو الحاجة وفعله الافتقار . [٤]

الفقر اصطلاحا :

هو دوام الافتقار إلى الله في كل حال . [٥]

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٢٥٤-٢٥٥) .

(٢) الفوائد ، ص ١١٨

(٣) انظر : مدارج السالكين : (٢/١٩٠) .

(٤) انظر : لسان العرب ، (٥/٦٠) .

(٥) انظر : مدارج السالكين : (٣/٢٨٨) .

فالفقر الحقيقي : دوام الافتقار إلى الله في كل حال ، وأن يشهد العبد – في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة – فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه .
قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] . [(١)]

فالافتقار إلى الله هو أغنى الغنى ، وهو تحقيق العبودية لله رب العالمين . ومن أعظم علامات الافتقار إلى الله دوام طلب المعونة منه في جميع الأحوال . ليقين العبد الفقير المتوكل بعجزه التام عن تحصيل ما يريد .

---

(١) انظر : مدارج السالكين : (٣/٢٨٨) .

المبحث الثاني
المآخذ العقدية على كتاب الفقر والزهد
والرد عليه على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

يعتبر كتاب الفقر والزهد من الكتب المهمة التي عقدها الغزالي في الإحياء فهو أساس طريق المتصوفة ، ولا يعد زاهداً من لم يبغض الدنيا ويقطع العلائق التي تبعده عن الله – عز وجل – ، ليصل بالنفس إلى ما تزكو به من الزهد في المأكل والملبس والمال ونحوه . وهو يربط ذلك بالفقر والتوكل كما سيأتي بيانه ، ويربطه بالصبر كما تقدم بيانه في كتاب الصبر والشكر . لذا سأبين الخطأ في مفهوم الفقر والزهد عند الغزالي ، وقد حصرت المآخذ عليه في المسائل الآتية :

المسألة الأولى :

ذكر الغزالي رحمه الله في مقدمة كتاب الفقر والزهد أن " حب الدنيا رأس كل خطيئة " [(١)]. وأن بغضها أم الطاعات . وأنه لا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد عنها ، وذلك إما بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقراً ، وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهداً [(٢)].

ثم بيّن فضيلة الفقر مطلقاً مستدلاً على ذلك بآيات وأحاديث وآثار ، ساقها للدلالة على مدح الفقر [(٣)] ، والتي سيتم عرض بعض منها ومناقشتها لاحقاً.

التعليق :

هذه المسألة تناولت أمرين سأعرض كلاً منهما وأناقشه :

---

(١) قال ابن تيمية : هذا معروف عن جندب بن عبد الله البجلي ، وأما عن النبي فليس محفوظًا عنه وليس له إسناد معروف . انظر : مجموع الفتاوى : (١١/١٠٧) . رواه البيهقي في الشعب : (١٠٥٠١) ، والدر المنثور ، للسيوطي : (٦/٢٤١) كلاهما بإسناد حسن إلى الحسن البصري رفعه مرسلاً ، وكنز العمال : (٦١١٤) ، وكشف الخفا : (١/٢٤٤ – ٢٤٥)، والأسرار المرفوعة ١٦٣

(٢) انظر : إحياء علوم الدين : (٤/٢٣٤) .

(٣) المرجع السابق : (٤/٢٣٩وما بعدها) .

الأول : هل الفقر محمود لذاته ؟ وهل يُحمد المال مطلقًا أم يُذم مطلقًا ؟
الثاني : الأدلة التي استشهد بها الإمام الغزالي في مدح الفقر ومناقشتها .

أما الأمر الأول :

هل الفقر محمود لذاته ؟

ليس هناك ما يدل على أن الفقر محمود في ذاته ، بل إن التفاضل هو بالتقوى فقد يكون الفقير تقياً وقد يكون الغني تقياً . ولكن لما كان منهج المتصوفة تزكية النفس بالانقطاع عن الدنيا وترك المال والزهد فيه وأن هذا يسهل على الفقير أكثر من غيره ، من هنا جعلوا للفقر مزية لم يذكرها النبي- صلى الله عليه وسلم - .

ذكر الإمام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- أن الألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة علينا أن نتبع ما دلت عليه ، مثل لفظ الإيمان ، والتقوى ، والصدق ، والصبر، والشكر ، والتوكل ، والخوف والرجاء ، ونحو ذلك مما يتضمن ذكر ما أحبه الله ورسوله من القلب والبدن . فهذه الأمور التي يحبها الله ورسوله هي الطريق الموصل إلى الله ، مع ترك ما نهى الله عنه ورسوله : كالكفر ، والنفاق ، والكذب ، ونحو ذلك . فعلى كل مسلم أن ينظر فيما أمر الله به ورسوله فيفعله ، وما نهى الله عنه ورسوله فيتركه . هذا هو طريق الله وسبيله ودينه الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وهذا الصراط المستقيم يشتمل على علم شرعي ، وعمل شرعي ، فمن علم و لم يعمل بعلمه كان فاجراً . ومن عمل بغير علم كان ضالاً ، وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول :

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝ ﴾ [الفاتحة : ٦-٧] [1].

ثم بيّن ابن تيمية -رحمه الله- منشأ فساد العلم والعمل فقال :

" فالسالك طريق الفقر والتصوف والزهد والعبادة إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة، وإلا كان ضالاً عن الطريق ، وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه ، وإن لم يتابع الشريعة ويعمل بعلمه، وإلا

(١) انظر : مجموع الفتاوى : (٢٦/١١) .

كان فاجراً ضالاً عن الطريق . فهذا هو الأصل الذي يجب اعتماده على كل مسلم "[(١)].

ثم بيّن شيخ الإسلام مفهوم لفظ الفقر فقال :

" ولا ريب أن لفظ الفقر في الكتاب والسنة وكلام الصحابة والتابعين وتابعيهم لم يكونوا يريدون به نفس طريق الله ، وفعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه ، والأخلاق المحمودة ولا نحو ذلك ، بل الفقر عندهم ضد الغنى . والفقراء هم الذين ذكرهم الله في قوله :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾ [التوبة : ٦٠] ، وفي قوله : ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] وفي قوله : ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ [الحشر : ٨] " .[(٢)]

فلفظ الفقر في الشرع يراد به الفقر من المال ، ويراد به فقر المخلوق إلى خالقه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾ [التوبة :٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ [فاطر : ١٥] .[(٣)]

قلت : إذاً الفقر يقصد به الفقر من المال ، أو الافتقار إلى الله تعالى وليس هناك ما يدل على أن للفقر مزية كما يظن بعض الصوفية ، فينبغي اتباع ما دلت عليه النصوص .

وقد ذكر ابن تيمية – رحمه الله – مفهوم الفقير عند المتأخرين فقال :

" وأما المتأخرون فالفقير في عرفهم عبارة عن السالك إلى الله تعالى ، كما هو الصوفي في عرفهم أيضاً ، ثم منهم من يرجح مسمى الصوفي على مسمى الفقير لأنه عنده الذي قام بالباطن والظاهر ، ومنهم من يرجح مسمى الفقير ؛ لأنه عنده الذي قطع العلائق ، و لم يشتغل بالظاهر بغير الأمور الواجبة ، وهذه منازعات لفظية اصطلاحية " .[(٤)]

---

(١) مجموع الفتاوى : (١١/٢٧-٢٨) .

(٢) المرجع السابق : (١١/٢٨) .

(٣) انظر مجموع الفتاوى : (١١/١٩٦) ، ووقفات إيمانية مع قول الله تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، د. وفاء علي الحمدان ، ص٥٣ ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٧هـ ، المكتب التعاوني لدعوة الجاليات – جدة .

(٤) مجموع الفتاوى : (١١/٧٠) .

وأما ما يتعلق بالمال أيحمد مطلقًا أو يذم مطلقًا ؟

فإن المال هبة من الله تعالى إن استعمله المرء في مرضاة الله ،كمن يجهز به الجيوش المسلمة لجهاد الكفار . وقد يكون نقمة على صاحبه إن أمسكه و لم ينفقه في مرضاة الله ، أو استعان به على معصية الله .

قال ابن تيمية –رحمه الله تعالى- : " والمال لا يحمد مطلقًا ولا يذم مطلقًا ، بل يحمد منه ما أعان على طاعة الله ، وقد يكون ذلك واجبًا ، وهو لا بد منه في فعل الواجبات ، وقد يكون مستحبًا ، ويذم ما أستعين به على معصية الله أو صدّ على الواجبات . فهذا محرم " .[1]

وقال ابن تيمية أيضًا : " والفقر والغنى حالان يعرضان للعبد باختياره تارة وبغير اختياره أخرى كالمقام والسفر ، والصحة والمرض ، والإمارة والائتمار ، والإمامة والائتمام . وكل جنس من هذه الأجناس لا يجوز إطلاق القول بتفضيله على الآخر ، بل قد يكون هذا أفضل في حال ، وهذا في حال ، وقد يستويان في حال "[2].

وقد جاءت النصوص الواردة في الكتاب والسنة حاكمة بالقسط ، فإن الله – عز وجل- لم يفضل أحداً في القرآن بفقر ، ولا غنى ، كما لم يفضل أحداً بصحة ولا مرض ، بل قال: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ففضلهم بالتقوى وفضلهم بالأعمال الصالحة ، وقال في آية العدل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ ﴾ [النساء : ١٣٥] .

ولذلك كان النبي –صلى الله عليه وسلم- وخلفاؤه يعدلون بين المسلمين – غنيهم وفقيرهم- في أمورهم .[3]

---

(١) مجموع الفتاوى : (١٤٤/٢٠) .

(٢) انظر : المرجع السابق : (١٢٣/١١-١٢٤) .

(٣) انظر : المرجع السابق : (١٢٥/١١) .

ومن المعلوم أنه كان في الأنبياء والمرسلين والسابقين من الصحابة – رضوان الله عليهم– من كان غنياً كإبراهيم وأيوب ، وداود وسليمان – عليهم السلام – ، ومن الصحابة – رضوان الله عليهم – عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة والزبير ، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير وأبو أيوب الأنصاري ، وغيرهم ممن هم من أفضل الخلق .

ومنهم من كان فقيراً : كعيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا – عليهم السلام – ، ومن الصحابة – رضوان الله عليهم – أبو ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي ، وغيرهم ممن هم من أفضل الخلق .

وكان فيهم من أتى بإحسان الأغنياء وبصبر الفقراء : كنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم –، وأبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – .[١]

إذًا : الفقر قد يكون محمودًا في حق بعض الناس لأنه يمنعه من بعض المعاصي والدواعي التي تحصل للغني بالمال . وقد يكون مذمومًا في حق آخر لأنه يلجئه إلى ارتكاب بعض أنواع الظلم والتعدي على أموال الناس . فهذا فقر المال .

أما الافتقار إلى الله فهو محمود كله فكل الناس فقراء إلى عفو الله ورضوانه ولا غنى إلا بغنى الإيمان وكثرة العمل الصالح المقرب إلى رضوان الله ورحمته .

قلت : وإن ما يُشير إليه الغزالي –رحمه الله – من تفضيل الفقر وأن له مزية لا أساس له ، وسيأتي بيان الأحاديث التي استشهد بها في مدح الفقر ومناقشتها ، وإنما كان ذلك من الغزالي لربطه تزكية النفس وتنقيتها من العلائق بالزهد في الدنيا ، وأن ذلك يكون بعدم الادخار وعدم الكسب إلا على قدر الضرورة والكفاف . وأن ذلك يتحقق للفقير أكثر مما يتحقق للغني .

وسيأتي تفصيل ذلك لاحقًا في كتاب الزهد من هذا الفصل ، وكتاب التوكل من الفصل الخامس .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى : (١١/١٢٥) .

الأمر الثاني :

الأدلة التي استشهد بها الإمام الغزالي في مدح الفقر ، ومناقشتها :

أما الأخبار التي استدل بها الغزالي -رحمه الله- في مدح الفقر ، فهي في غالبها ضعيفة ولا يصح الاستشهاد بها ، منها : أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لبلال : " الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً"[١] .

قال الحافظ العراقي : رواه الحاكم من حديث بلال ، ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد بلفظ : " مت فقيراً ولا تمت غنياً " وكلاهما ضعيف .[٢]

وأورد الغزالي أيضاً قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال "[٣]. قال البوصيري : هذا إسناد ضعيف .[٤]

وأورد الغزالي أيضًا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : " خير هذه الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعًا في الجنة ضعفاؤها"[٥]. قال الحافظ العراقي : لم أجد له أصلاً .[٦]

ومن الأحاديث التي أوردها الغزالي أيضاً أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن لي حرفتين اثنتين فمن أحبها فقد أحبني ومن أبغضها فقد أبغضني الفقر والجهاد " [٧]. قال عنه الحافظ العراقي : لم أجد له أصلاً .[٨]

وقال الغزالي وفي الخبر : آخر الأنبياء دخولاً الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه ، وآخر أصحابي دخولاً الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه " .[٩]

---

(١) إحياء علوم الدين : (٢٣٩/٤) .

(٢) المغني عن حمل الأسفار ، بذيل الإحياء : (٢٣٩/٤) .

(٣) إحياء علوم الدين : (٢٣٩/٤) .

(٤) انظر : مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ، لأبي العباس البوصيري : (٢١٦/٤) ، وأخرجه ابن ماجه : في كتاب الزهد ، باب فضل الفقراء ، رقم (٤١٢١) . قال الشيخ الألباني : حديث ضعيف .

(٥) إحياء علوم الدين : (٢٤٠/٤) .

(٦) المغني عن حمل الأسفار ، للحافظ العراقي ، بذيل الإحياء : (٢٤٠/٤) .

(٧) إحياء علوم الدين : (٢٤٠/٤) .

(٨) المغني عن حمل الأسفار ، للحافظ العراقي ، بذيل الإحياء : (٢٤٠/٤) .

(٩) إحياء علوم الدين : (٢٤٢/٤) .

قال الحافظ العراقي : هو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد وفيه نكارة .[١]

وقال الغزالي أيضاً وفي حديث آخر: " رأيته دخل الجنة زحفاً "[٢].

قال العراقي : الحديث " رأيته - يعني عبد الرحمن بن عوف — دخل الجنة زحفاً " ضعيف .[٣]

قال ابن تيمية -رحمه الله- : " وما روي من أن ابن عوف يدخل الجنة حبوا كلام موضوع لا أصل له ، فإنه قد ثبت بأدلة الكتاب والسنة أن أفضل الأمة أهل بدر ، ثم أهل بيعة الرضوان ، والعشرة مفضلون على غيرهم والخلفاء الأربعة أفضل الأمة " [٤].

وأورد الغزالي عن النبي - صلى الله عليه وسلم- أنه قال : " يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدنيا فيقول وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك علي ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة .... " [٥] .

قال الحافظ العراقي :حديث إسناده ضعيف .[٦]

وقال ابن تيمية : هذا الشأن كذب ، لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث ، وهو باطل مخالف للكتاب والسنة بالإجماع .[٧]

قلت : وعليه فإن ما أورده الغزالي فيه سوء أدب مع الله - عز وجل- بأن جعل اعتذار الله للرجل مثل اعتذار الرجل للرجل - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا - .

وقد أورد الغزالي أيضًا أن النبي - صلى الله عليه وسلم — قال : " أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة ... " [٨].

قال العراقي : هذا حديث سنده ضعيف .[٩]

---

(١) المغني عن حمل الأسفار للعراقي ، بذيل الإحياء : ص (٢٤٢/٤) .

(٢) إحياء علوم الدين : (٢٤٢/٤) .

(٣) المغني عن حمل الأسفار للعراقي ، بذيل الإحياء : ص (٢٤٢/٤) .

(٤) مجموع الفتاوى : (١٢٨/١١- ١٢٩) .

(٥) إحياء علوم الدين : (٢٤٣/٤) .

(٦) انظر : المغني عن حمل الأسفار للعراقي ، بذيل الإحياء : (٢٤٣/٤) .

(٧) مجموع الفتاوى : (٣٧٧/١٨) .

(٨) إحياء علوم الدين : (٢٤٣/٤) .

(٩) انظر : المغني عن حمل الأسفار للعراقي ، بذيل الإحياء : (٢٤٣/٤) .

قال ابن تيمية في حديث " اتخذوا مع الفقراء أيادي ... " : " هذا كذب ، ما رواه أحد من الناس ، والإحسان إلى الفقراء الذين ذكرهم الله في القرآن ، قال الله فيهم : ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ إلى قوله : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة :٢٧١-٢٧٣] ، وأهل الفيء وهم الفقراء المجاهدون الذين قال الله فيهم : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [الحشر : ٨] .

والمحسن إليهم وإلى غيرهم عليه أن يبتغي بذلك وجه الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل : ١٧-٢١] وقال : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان : ٨-٩] "[1] .

ثم أوضح ابن تيمية –رحمه الله– هذا في قوله : " وقول القائل : لهم في الآخرة دولة وأي دولة ! ، فهذا كذب ، بل الدولة لمن كان مؤمناً تقياً فقيراً كان أو غنياً ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الروم : ١٤-١٥]، وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار : ١٣-١٤] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص : ٢٨]"[2].

وأما ما يتعلق بمسألة دخول الفقراء الجنة قبل الأغنياء كما جاء في الحديث الذي أورده الغزالي ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم "[3]. فقد قال ابن تيمية : " إنما يسبق الفقراء الأغنياء إلى الجنة بنصف يوم ، لعدم فضول الأموال التي يحاسبون على مخارجها

---

(١) مجموع الفتاوى : (١١١/١١) .

(٢) المرجع السابق : (١١٢/١) .

(٣) سبق تخريجه ، ص ١١٨ ، وانظر : إحياء علوم الدين : (٢٤٥/٤) .

ومصارفها ، ثم أرباب الفضول إن كانوا محسنين في فضول أموالهم ، فقد يكونون بعد دخول الجنة أرفع درجة من كثير من الفقراء الذين سبقوهم " (١).

وقد ورد في السنة أيضًا الحديث الذي رواه أبو هريرة قال : جاء فقراء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقالوا : ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلا والنعيم المقيم : يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل في من الأموال ، يحجون بها ويعتمرون ، ويجاهدون ويتصدقون . قال : " ألا أحدثكم بأمر إن أخذتم به ، أدركتم من سبقكم ، ولم يدرككم أحد بعدكم ، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه ، إلا من عمل مثله ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون ، خلف كل صلاة ، ثلاثاً وثلاثين " . ثم جاؤوا إليه فقالوا : إن إخواننا من الأغنياء سمعوا ذلك ففعلوه ، فقال : " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء " (٢).

قال ابن تيمية : " فهذا الحديث فيه تفضيل للأغنياء الذين عملوا مثل عمل الفقراء من العبادات البدنية بالقلب والبدن ، وزادوا عليهم بالإنفاق في سبيل الله ونحوه من العبادات المالية " (٣). والحديث الأول : فيه تفضيل الفقراء المؤمنين بأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء المؤمنين .

قال ابن تيمية معللاً ذلك : " وكلاهما -أي كلا الحديثين- حق ، فإن الفقير ليس معه مال كثير يحاسب على قبضه وصرفه ، فلا يؤخر عن دخول الجنة لأجل الحساب ، فيسبق في الدخول، وهو أحوج إلى سرعة الثواب ، لما فاته في الدنيا من طيبات . والغني يحاسب ، فإن كان محسناً في غناه غير مسيء وهو فوقه ، رفعت درجته عليه بعد الدخول . وإن كان مثله ساواه ، وإن كان دونه نزل عنه . وليست حاجته إلى سرعة الثواب كحاجة الفقير " (٤).

وقال ابن تيمية أيضًا: " وليس في المسألة عن النبي صلى الله عليه وسلم أصح من هذين الحديثين وفيها الحكم الفصل : إن الفقراء لهم السبق والأغنياء لهم الفضل ،وهذا قد يترجح تارة ،

---

(١) مجموع الفتاوى : (١١/٦٩) .

(٢) أخرجه البخاري : في كتاب الأذان ، باب الذكر بعد الصلاة ، رقم (٨٤٣) ، وأخرجه مسلم : في كتاب المساجد ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة ، رقم (٥٩٥) .

(٣) مجموع الفتاوى : (١١/١٢٧).

(٤) المرجع السابق : (١١/١٢٧-١٢٨) .

وهذا كالسبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ومع كل ألف سبعين ألفاً ، وقد يحاسب بعدهم من إذا دخل رفعت درجته عليهم " [١].

وأما الأحاديث التي رويت في الصحاح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء " .[٢]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم " .[٣]

وقال صلى الله عليه وسلم : " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير " .[٤]

فهذه الأحاديث كما قال ابن تيمية –رحمه الله– فيها معنيان :

المعنى الأول : أن الجنة دار المتواضعين لا دار المتكبرين الجبارين سواء كانوا أغنياء أو فقراء ، فإنه قد ثبت في الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر " . قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ، قال: " إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس " .[٥]

فأخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – أن الله يحب التجمل في اللباس الذي لا يحصل إلا بالغنى وأن ذلك ليس من الكبر ، وأن من الفقراء من يكون مختالاً لا يدخل الجنة ، ففي الحديث الصحيح : " ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم قال أبو معاوية : ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر".[٦]

---

(١) مجموع الفتاوى : (١٢٨/١١) .

(٢) أخرجه البخاري : في كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ، رقم (٣٢٤١) .

(٣) أخرجه البخاري : في كتاب التفسير ، باب قوله : (وتقول هل من مزيد ...) ، رقم (٤٨٥٠)

(٤) أخرجه مسلم : في كتاب القدر ، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله ،رقم (٢٦٦٤).

(٥) أخرجه مسلم : في كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ، رقم (٩١) .

(٦) أخرجه مسلم : في كتاب الإيمان ، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار ... ، رقم (١٠٧) .

وأما ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين " .[١]

فقد قال ابن تيمية -رحمه الله- : " فالمساكين هنا ضد المتكبرين ، وهم خاشعون لله ، المتواضعون لعظمته ، الذين لا يريدون علواً في الأرض . سواء كانوا أغنياء أو فقراء " [٢].

المعنى الثاني : أن الصلاح في الفقراء أكثر منه في الأغنياء .كما أنه إذا كان في الأغنياء فهو أكمل منه في الفقراء ، فهذا في هؤلاء أكثر وهؤلاء أكثر ، لأن فتنة الغنى أعظم من فتنة الفقر ، فالسالم منها أقل . ومن سلم منها كان أفضل ممن سلم من فتنة الفقر فقط ، ولهذا صار الناس يطلبون الصلاح في الفقراء ، لأن المظنة فيهم أكثر .[٣]

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " فو الله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم " .[٤]

---

(١) أخرجه الترمذي : في كتاب الزهد ، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين ... ، حديث رقم (٢٣٥٣) ، قال أبو عيسى: حديث غريب ، وأخرجه ابن ماجه : في كتاب الزهد ، باب مجالسة الفقراء ، حديث رقم (٤١٢٦) ، وانظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، للألوسي : (٣١١/٥) ، وقال ابن تيمية: هذا يروى ، ولكنه ضعيف ولا يثبت ، معناه أحيني خاشعاً متواضعاً ، لكن اللفظ لم يثبت . انظر : مجموع الفتاوى : (٢٢٠/١٨) .

(٢) مجموع الفتاوى : (١٣٠/١١).

(٣) انظر : مجموع الفتاوى : (١٣١/١١ – ١٣٢).

(٤) أخرجه البخاري : في كتاب الرقاق ، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ، رقم (٦٤٢٥).

المسألة الثانية :

يرتبط الزهد بالفقر ارتباطا وثيقاً عند الإمام الغزالي ، وكلا الأمرين يرتبطان بالانقطاع عن الدنيا وبغضها . يتبين ذلك جلياً في مقدمته لكتاب الفقر والزهد حيث قال :

" ونحن الآن نذكر فضل البغض لها أي الدنيا ، والزهد فيها فإنه رأس المنجيات . فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد عنها . لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقراً ، وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهداً " [١].

ثم بيّن الغزالي أحوال الفقر وأعلى حالاته كما قال :

" أن يكون بحيث إذا أتاه المال لَكَرِهَه وتأذى به ، وهرب من أخذه ، مبغضاً له ، ومحترزاً من شره وشغله ، وهو الزهد ، واسم صاحبه الزاهد " [٢].

ويعرف الغزالي – رحمه الله – الزهد بأنه : " انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه . وأن أعلى درجاته : رغبته عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولاً إلى الله تعالى " [٣].

وذكر الغزالي أن الذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض ، كالذي يترك المال دون الجاه ، أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجمل في الزينة ، فإنه لا يستحق اسم الزاهد مطلقاً ، وزهده صحيح .[٤]

وقال الغزالي –رحمه الله– : الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها ، فهو غاية الكمال [٥].

وقال –رحمه الله– : الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ، وقال أيضًا : شرط الزاهد أن يكون الفضول أول مرغوب عنه عنده .[٦]

---

(١) إحياء علوم الدين : (٢٣٤/٤).

(٢) المرجع السابق : (٢٣٥/٤).

(٣) المرجع السابق : (٢٦٧/٤-٢٦٨).

(٤) انظر : إحياء علوم الدين : (٢٦٧/٤).

(٥) المرجع السابق : (٢٧٣/٤).

(٦) المرجع السابق : (٢٨٠/٤-١٨١).

التعليق :

علمنا في بداية هذا الفصل السبب الذي من أجله ارتبط الزهد بالفقر عند الغزالي والصوفية عامة ، وقد أشار إلى ذلك ابن تيمية –رحمه الله تعالى– فقال : " لما كان الفقر مظنة الزهد طوعاً أو كرهاً ، وصار المتأخرون كثيراً ما يقرنون بالفقر معنى الزهد ، والزهد قد يكون مع الغنى ، وقد يكون مع الفقر " .[1]

وقال ابن تيمية أيضًا : " لما كان جنس الزهد في الفقراء أغلب ، صار الفقر في اصطلاح كثير من الناس عبارة عن طريق الزهد " .[2]

وقد جاءت تعريفات الزهد متفاوتة : قال الجنيد : سمعت سرياً السقطي[3] يقول : إن الله – عز وجل– سلب الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفيائه ، وأخرجها من قلوب أهل وداده ؛ لأنه لم يرضاها لهم .[4]

قلت : إن الله رضي لعباده في هذه الدنيا ما يعينهم على طاعته وعبادته ، فقد قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] .

ومن تعريفات الزهد أيضًا :

النظر إلى الدنيا بعين الزوال ، فتصغر في عينك ، فيسهل عليك الإعراض عنها . وقال ابن خفيف[5] : الزهد سلو القلب عن الأسباب ونفض الأيدي من الأملاك .

وقيل : هو عزوف القلب عن الدنيا بلا تكلف . وقال الجنيد : الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد .[6]

---

(١) مجموع الفتاوى : (٢٨/١١).

(٢) المرجع السابق : (٢١/١١).

(٣) سري بن المغلس السقطي ، كنيته أبو الحسن ، صحب معروفًا الكرخي ، وهو امام البغداديين ، وشيخهم في وقته ، مات سنة ٢٥١هـ ، انظر : طبقات الصوفية : ص٥١-٥٢ .

(٤) انظر : مدارج السالكين : (١٧٨/٢) .

(٥) أبو عبدالله محمد بن خفيف الضبّي الشيرازي . صنّف كتبًا ، وكانت له رياضات وأسفار ، مات سنة ٣٧١ عن خمس وتسعين سنة ، وقيل : بل جاوز المائة بأربع سنين . انظر : طبقات الأسنوي : (٢٢٨/١) .

(٦) انظر : مدارج السالكين : (١٧٩/٢) .

وقد عُرّف الزهد بأنه : هو بغض الدنيا والإعراض عنها. وقيل : هو ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة .(١)

وقد أشار ابن القيم -رحمه الله تعالى- إلى قصور عبارات الصوفية في معنى الزهد بسبب اعتبارهم بأذواقهم فقال : " وقد أكثر الناس من الكلام في الزهد وكل أشار إلى ذوقه ، ونطق عن حاله وشاهده ، فإن غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم ، والكلام بلسان العلم أوسع من الكلام بلسان الذوق، وأقرب إلى الحجة والبرهان " .(٢)

وقد عرف ابن تيمية -رحمه الله- الزهد بقوله :

" هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة ، وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله " .(٣)

وإن ارتباط الزهد ببغض الدنيا وذمها عند الصوفية هو تصورهم أن الزهد لا يكون ألا بترك العلائق وترك الدنيا حتى تزكو نفس المرء فيصل إلى الله ، والتزموا لوازم لم تكن على منهج النبي – عليه الصلاة والسلام — وأصحابه الكرام ، من الجوع والسهر والصمت والخلوة ونحو ذلك . وقد أشار ابن الجوزي – رحمه الله — إلى ذلك فقال : " قد يسمع العامي ذم الدنيا في القرآن المجيد والأحاديث فيرى أن النجاة تركها ولا يدري ما الدنيا المذمومة فيلبس عليه إبليس بأنك لا تنجو في الآخرة إلا بترك الدنيا ، فيخرج على وجهه إلى الجبال ، فيبعد عن الجمعة والجماعة والعلم ويصير كالوحش ، ويخيل إليه أن هذا هو الزهد الحقيقي " .(٤)

ومن الآيات التي جاءت في ذم الدنيا قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَنٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء:١٨] .

---

(١) التعريفات للجرجاني ، ص ١٥٣ .

(٢) مدارج السالكين : (١٧٨/٢) .

(٣) مجموع الفتاوى : (٢١/١٠) .

(٤) تلبيس إبليس : ص١٤٥ .

وقال تعالى:﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [هود:١٥-١٦] .

ثم بين ابن الجوزي أن الدنيا لا تذم لذاتها وأن المذموم الأخذ منها من غير طريق الشرع فقال : " والدنيا لا تذم لذاتها ، وإنما المذموم أخذ الشيء من غير حله أو تناوله على وجه السرف لا على مقدار الحاجة ، ويصرف النفس فيه بمقتضى رعوناتها لا بإذن الشرع " .(١)

وقال ابن تيمية –رحمه الله– : " المحمود من الكتاب والسنة إنما هو إرادة الدار الآخرة ، والمذموم من ترك إرادة الدار الآخرة وانشغل بإرادة الدنيا عنها ، فأما مجرد مدح ترك الدنيا ، فليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ، ولا تنظر إلى كثرة ذم الناس الدنيا ، فإن أكثر العامة إنما يذمونها لعدم حصول أغراضهم منها ، فإنها لم تصف لأحد قط ، ولو نال منها ما عساه أن ينال .

فأكثر ذم الناس للدنيا ليس من جهة شغلها لهم عن الآخرة ، وإنما هو من جهة ما يلحقهم من الضرر فيها ، وهي مذمومة من ذلك الوجه " .(٢)

ويقول ابن تيمية أيضًا : " ولا ريب أن ما فيه ضرر في الدنيا مذموم إذا لم يكن نافعاً في الآخرة ،كإضاعة المال ، والعبادات الشاقة التي لم يأمر بها الله ولا رسوله ، وما فيه منفعة في الدنيا مذموم إذا كان ضاراً في الآخرة ،كنيل اللذات وإدراك الشهوات المحرمة ، وكذلك اللذات والشهوات المباحات إذا حصل للعبد بها وهن وتأخير في أمر الآخرة وطلبها " .(٣)

فالزهد النافع المشروع هو ترك ما لا ينفع في الآخرة ، وأما ما ينفع في الآخرة وما يستعان به على ذلك فالزهد فيه جهل وضلال .

---

(١) تلبيس إبليس ، ص ١٤٥

(٢) مجموع الفتاوى : (١٤٧/٢٠-١٤٨-١٤٩) .

(٣) المرجع السابق : (١٨٤/٢٠) .

وقد أشار إلى ذلك ابن تيمية فقال : " فالزهد فيه -أي فيما ينفع في الآخرة- زهد في نوع من عبادة الله وطاعته ، والزهد إنما يراد لأنه زهد فيما يضر ، أو زهد فيما لا ينفع ، فأما الزهد في النافع جهل وضلال ، فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- : " احرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدّر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان " [١].[٢]

فالواجبات والمستحبات لا يصلح فيها الزهد ، وأما المحرمات والمكروهات فيصلح فيها الزهد، وكذلك المباحات .

وضح ذلك ابن تيمية -رحمه الله- فقال : " إنما الشأن فيما إذا تعارض في الفعل . هل هو مأمور به ، أو منهي عنه ، أو مباح ؟ وفيما إذا اقترن بما جنسه مباح ما يجعله مأموراً به ، أو منهياً عنه ، أو اقترن بالمأمور به ، ما يجعله منهياً عنه وبالعكس . فعند اجتماع المصالح والمفاسد والمنافع والمضار وتعارضها ، يحتاج إلى الفرقان " .[٣]

ولذلك فإن قول من يقول : الثواب على قدر المشقة ليس بمستقيم على الإطلاق ، وهذا مما قد يستدل به طوائف على أنواع من الرهبانيات ، والعبادات المبتدعة ، التي لم يشرعها الله ورسوله ، بل هي من جنس تحريم المشركين وغيرهم ما أحل الله من الطيبات .

وقد ثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذم التعمق والتنطع في الدين فقال : " هلك المتنطعون "[٤] ، وقال : " لو مد بي الشهر ، لواصلت وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم "[٥].

ومثل ذلك الجوع أو العطش المفرط ، الذي يضر العقل والجسم ويمنع أداء واجبات أو مستحبات أنفع منه ، وكذلك الاحتفاء والتعري والمشي الذي يضر الإنسان بلا فائدة ، كما جاء في حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يصوم ، ولا يجلس ولا يستظل

---

(١) أخرجه مسلم : في كتاب القدر ، باب في الأمر بالقوة وترك العجز ، حديث رقم (٢٦٦٤) .

(٢) مجموع الفتاوى : (٥١١/١٠) .

(٣) المرجع السابق : (٦١٩/١٠) .

(٤) أخرجه مسلم : في كتاب العلم ، باب هلك المتنطعون ، رقم (٢٦٧٠) .

(٥) أخرجه البخاري : في كتاب التمني ، باب ما يجوز في اللو ، رقم (٧٢٤١) .

ولا يتكلـــم ، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- : " مروه فليتكلم وليستظل وليقعـــد ، وليـــتم صومه " .[١]

كما أن هناك من الأعمال ما تكون فيه الطاعة لله ورسوله في عمل ميسر ، كما يســـر الله على أهل الإســـلام : الكلمتين ، وهما أفضل الأعمـــال ، قـــال النبي-صلى الله عليه وسلم- : " كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم " [٢].

ولذلك بيّن ابن تيمية -رحمه الله- أن السبب في أفضلية العمل ليس المشقة فقال :
" وأما كون العمل مشقاً ، فليس هو سبباً لفضل العمل ورجحانه ، لكن قد يكون العمل الفاضل مشقاً، ففضلـــه لمعنى غير مشقته ، والصبر عليه مع المشقـــة يزيد ثوابه وأجره ، فيزداد الثـــواب بالمشقة .

وكثيراً ما يكثر الثواب على قدر المشقة والتعب ، لا لأن التعب والمشقة مقصود من العمل ، لكن ؛ لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب ، هذا في شرعنا الذي رفعت عنا فيه الآصار والأغلال، ولم يجعل علينا فيه حرج ، ولا أريد بنا فيه العسر ، وأما في شرع من قبلنا ، فقد تكون المشـــقة مطلوبة منهم . وكثير من العباد يرى جنس المشقة والألم والتعب مطلوباً مقرباً إلى الله ، لما فيه من نفرة النفس عن اللذات والركون إلى الدنيا وانقطاع القلب عن علاقة الجسد ، وهذا من جـــنس زهد الصابئة والهند وغيرهم " [٣].

ولهذا تجد هؤلاء مع من شابههم من الرهبان يعدون الأعمال الشاقة الشديدة المتعبة من أنواع العبادة والزهادات ، مع أنه لا فائدة فيها ولا ثمرة لها ، ولا منفعة إلا أن يكون شيئاً يسيراً لا يقاوم العذاب الأليم الذي يجدونه .

قال ابن تيمية -رحمه الله- : " ونظير هذا الأصـــل الفاسد ، مدح بعض الجهّال بأن يقول :

---

(١) أخرجه البخاري : في كتاب الإيمان والنذور ، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية ، رقم (٦٧٠٤) .

(٢) أخرجه البخاري : في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) ، رقم (٧٥٦٣) .

(٣) مجموع الفتاوى : (٦٢٣/٦٢٢/١٠) .

فلان ما نكح ولا ذبح . وهذا مدح الرهبان الذين لا ينكحون ولا يذبحون ، وأما الحنفاء فقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم– : " لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني " .[١][٢]

ولذلك قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢]

وقال عز وجل : ﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون : ٥١]

وقال عز وجل: ﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [المائدة : ٩٣]

ففي الآيات ما يدل على أن الله تعالى أمر بالأكل من الطيبات ، والشكر له ، والطيب هو ما ينفع الإنسان . وحرم الخبائث ، وهو ما يضره ، وأمر بشكره ، وهو العمل بطاعته بفعل المأمور ، وترك المحذور .

وفي صحيح مسلم عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال : " إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أويشرب الشربة فيحمده عليها " [٣].

قال ابن تيمية –رحمه الله– : " ومن حرم الطيبات التي أحلها الله من الطعام واللباس والنكاح وغير ذلك ، واعتقد أن ترك ذلك مطلقاً هو أفضل من فعله لمن يستعين بطاعة الله ، كان معتدياً معاقباً على تحريمه ما أحل الله ورسوله ، وعلى تعبده لله تعالى بالرهبانية ، ورغبته عن سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ، وعلى ما فرط فيه من الواجبات ، وما لا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب . وكذلك من أسرف في بعض العبادات كسرد الصوم ، ومداومة قيام الليل ، حتى يضعفه ذلك عن الواجبات ، كان مستحقاً للعقاب " [٤].

---

(١) أخرجه البخاري : في كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح ، رقم (٥٠٦٣)

(٢) مجموع الفتاوى : (٦٢٣/١٠) .

(٣) أخرجه مسلم : في كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب ، رقم (٢٧٣٤) .

(٤) مجموع الفتاوى : (١٣٦/٢٢) .

وفي ذلك قال النبي – صلى الله عليه وسلم– : " إن لنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً، ولزوجك عليك حقاً ، فآت كل ذي حق حقه "[(١)].

وأما نظرة الغزالي –رحمه الله– فيما يتعلق بضروريات الحياة فإنه يربط موضوع الزهد بالتوكل على الله تعالى خاصة في موضوع الطعام حيث تكفل الله بالرزق فأما الطعام فإنه يرى الإقلال في المقدار ، والاقتصار على ما يقوت ، ولو الخبز من النخالة أو خبز الشعير ، ويرى الإقلال من الأدم وأكل اللحم وإن كان في الأسبوع مرة أو مرتين فإن صاحبه لم يكن زاهدًا في البطن أصلاً[(٢)] .

وقد بين شيخ الإسلام –رحمه الله– حكم المباحات من حيث الامتناع عنها أو تناولها على وجه التقرب إلى الله فقال : " ومن امتنع عن نوع من الأنواع التي أباحها الله على وجه التقرب بتركها ، فهو مخطئ ضال ، ومن تناول ما أباحه الله من الطعام واللباس مظهراً لنعمة الله ، مستعيناً على طاعة الله ، كان مثاباً على ذلك ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾ [التكاثر : ٨] . وأما الكتان والقطن ونحوهما فمن تركه مع الحاجة فهو جاهل ضال ، ومن أسرف فيه فهو مذموم . ومن تجمل بلبسه إظهاراً لنعمة الله عليه ، فهو مشكور على ذلك ، فإن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال : " إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده " [(٣)].
ومن ترك لبس الرفيع تواضعاً لله – لا بخلاً ، ولا التزاماً للترك مطلقاً – فإن الله يثيبه على ذلك ، ويكسوه من حلل الكرامة " [(٤)].

وقال ابن تيمية –رحمه الله– : " والفعل الواحد في الظاهر يثاب الإنسان على فعله مع النية الصالحة ويعاقب على فعله مع النية الفاسدة ، فمن حج ماشياً لقوته على المشي ، وآثر بالنفقة كان مأجوراً أجرين : أجر المشي ، وأجر الإيثار . ومن حج ماشياً ، بخلا بالمال ، إضراراً بنفسه ،

---

(١) أخرجه البخاري : في كتاب الصوم ، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ، رقم (١٩٦٨)

(٢) انظر : إحياء علوم الدين : (٢٨٤/٤) .

(٣) أخرجه الترمذي كتاب الأدب ، باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، رقم (٢٨١٩) .
قال الألباني : حديث حسن صحيح .

(٤) مجموع الفتاوى : (١٣٨/٢٢) .

كان آثماً إثمين : إثم البخل وإثم الإضرار . ومن حج راكباً ؛ لضعفه عن المشي ، وللاستعانة بذلك على راحته ، ليتقوى بذلك على العبادة ، كان مأجوراً أجرين . ومن حج راكباً يظلم الجمال ، والحمال ، كان آثماً إثمين "[1]. قال تعالى : ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ ﴾ [البقرة : ١٣٠].

وقد ذكر ابن الجوزي أن من تلبيس إبليس على بعض الزهاد أنه يوهمهم أن الزهد ترك المباحات فمنهم من لا يزيد عن خبز الشعير ، ومنهم من لا يذوق الفاكهة ، ومنهم من يقلل المطعم حتى ييبس بدنه . ويعذب نفسه بلبس الصوف ويمنعها الماء البارد وما هذه طريقة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا طريق أصحابه وأتباعه ، وإنما كانوا يجوعون إذا لم يجدوا شيئاً فإذا وجدوا أكلوا .

وقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأكل اللحم ويحبه ويحب الحلوى . وقد كان رجل يقول : أنا لا آكل الخبيص لأني لا أقوم بشكره ، فقال الحسن البصري[2] هذا الرجل أحمق وهل يقوم بشكر الماء البارد . وكان سفيان الثوري إذا سافر حمل في سفرته اللحم المشوي والفالوذج . وينبغي للإنسان أن يعلم أن نفسه مطيته ولابد من الرفق بها ليصل بها إلى المقصود فيأخذ ما يصلحها ويترك ما يؤذيها من الشبع والإفراط في تناول الشهوات فإن ذلك يؤذي البدن والدين.[3]

ونقل ابن الجوزي عن ابن عقيل تعجبه من أحوال بعض الصوفية فقال : " ما أعجب أموركم في المتدين إما أهواء متبعة أو رهبانية مبتدعة ، بين تجرير أذيال المرح في الصبا واللعب ، وبين إهمال الحقوق وإطراح العيال واللحوق بزوايا المساجد ، فهلا عبدوا على عقل وشرع " .[4]

---

(١) المرجع السابق ، (١٣٨/٢٢) .

(٢) علي بن أحمد بن الحسن بن محمد بن نعيم أبو الحسن البصري النعيمي ، جمع معرفة الحديث والكلام والأدب ، درس بأهواز ، وكان فقيهًا عالمًا بالحديث ، متكلمًا متأدبًا . مات في مستهل ذي القعدة سنة ٤٢٣هـ ، وكان في عشر الثمانين ، وكان يحدث من حفظه . انظر : طبقات الشافعية ، للسبكي : (٢١٠/٣-٢١١) .

(٣) انظر : تلبيس إبليس : ص ١٤٦ .

(٤) تلبيس إبليس : ص ١٤٧ .


الفصل الخامس

الفصل الخامس

المآخذ العقدية على كتاب التوحيد والتوكل

المبحث الأول : مفهوم التوكل عند السلف.

المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب التوحيد والتوكل والرد عليها على ضـــوء عقيدة السلف.

المبحث الأول

مفهوم التوكل عند السلف

التوكل لغة :

وهو مأخوذ من مادة (و ك ل) التي تدل على اعتماد على الغير في أمر ما .[١]

التوكل اصطلاحًا :

هو صدق اعتماد القلب على الله – عز وجل – في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها ، وكلة الأمور كلها إليه ، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه .[٢]

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله – :

صدق الاعتماد على الله –عز وجل– ، في جلب المنافع ودفع المضار مع فعل الأسباب التي أمر الله بها .[٣]

والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل :

قال ابن القيم الجوزية : " التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ، ويندفع بها المكروه . فمن أنكر الأسباب لم يستقر معه التوكل .

ومن تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب . وقطع علاقة القلب بها ، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها ، وحال بدنه قيامه بها .

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ونهيه . والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره ، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية .

---

(١) انظر : مقاييس اللغة : (١٣٦/٦) ، ولسان العرب : (٤٩٠٩/٨) .

(٢) جامع العلوم والحكم ، لابن رجب ، ٤٠٩ .

(٣) سلسلة أعمال القلوب للمنجد ، ص٢١٤ .

فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : قال رجل : يا رسول الله اعقلها وأتوكل ، أو أطلقها وأتوكل ؟ قال : " اعقلها وتوكل [١] "[٢].

ومن سنة الله في خلقه وأمره أنه خلق المخلوقات بأسباب ، وشرع للعباد أسباباً ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة .

ويجب على العبد أن يكون قلبه معتمداً على الله تعالى لا على سبب من الأسباب ، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه من أمر الدنيا والآخرة .

والتوكل عبادة واستعانة كما في قوله سبحانه﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥]، فهذه الآية كما قال العلماء : جمعت أسرار القرآن ، لأن أولها يقتضي عبادته بالأمر والنهي والمحبة والخوف والرجاء ... ، وآخرها اقتضى بالتفويض والتسليم وترك الاختيار ، وجميع العبوديات داخلة في ذلك . وهكذا قوله تعالى :﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] ، وقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] ، وقوله : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .[٣]

قال الحافظ ابن رجب –رحمه الله– : "واعلم أن حقيقة التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدورات بها ، وجرت سنته في خلقه بذلك ، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل ، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له ، والتوكل بالقلب عليه إيمان به ". [٤]

---

(١) أخرجه الترمذي : في كتاب صفة القيامة ، رقم (٢٥١٧) ، وقال : غريب .

(٢) مدارج السالكين : (٣٦٣/٢) .

(٣) سلسلة أعمال القلوب ، ص٢١٦

(٤) جامع العلوم والحكم :٢/ ٤٢٥

وقال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- :

"من ظن أن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها ، فهو ضال . وهذا كمن ظن أنه يتوكل على ما قدر عليه من السعادة والشقاوة بدون أن يفعل ما أمره الله به ".[1]

فحقيقة التوكل :

التوكل هو الاعتماد على الله والثقة به ، والإيمان بأنه مقدر الأشياء ، ومدبر الأمور كلها مع النظر في الأسباب العادية من العبد وقيامه بها : فإن هذا مركب من شيئين :

أحدهما : الاعتماد على الله والثقة به والتفويض إليه ولكونه قد علم الأشياء وقدرها ، وله القدرة في الأسباب الدينية والدنيوية وقيامه بها .

والثاني : النظر من العبد في الأسباب الدينية والدنيوية وقيامه بها .

فإذا علم العبد أن الأمر كله لله ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وإنه هو النافع والضار، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، فبعد هذا العلم يعتمد عليه في جلب مصالح دينه ودنياه ، ويثق به في حصول مطلوبه مع بذل الجهد في فعل الأسباب النافعة . ومتى علق ذلك بغير الله فهو شرك .

---

(١) قاعدة في الرد على الغزالي ، ص ٣٤٤

المبحث الثاني

المآخذ العقدية على كتاب التوحيد والتوكل
والرد عليه على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

يربط الغزالي – رحمه الله – التوكل بالزهد في الدنيا، بل لا يعد متوكلاً من لم يكن زاهدًا ، ذلك أنه يرى أن أعلى درجات التوكل نفي التدبير ، وترك الأسباب والنظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب . بحيث لا يكون للإنسان تدبير أصلاً ؛ ذلك أن الله تعالى دبّر الملك والملكوت تدبيراً كافياً . وهو يعوّل في ذلك أن الله ضمن الرزق لعباده وتكفل به ، وأن الرزق آتيه لا محالة.

وهذا المفهوم دعا بعض الصوفية إلى الخروج إلى البوادي للسياحة ، والذهاب إلى مكة للحج بلا زاد ولا راحلة ، ولا يدفعون عن أنفسهم ما يتعرضون له من آفات الطريق ، ظناً منهم أن هذا هو تحقيق التوكل . بل لا يعد صوفياً من لا يصبر على الجوع أكثر من ثلاثة أيام .

والغزالي — رحمه الله — قد أسس كتابه الإحياء على منهج المتصوفة ، فكان لا بد من الإشارة إلى منهج السلف في مسألة التوكل .

فالتوكل اعتقاد وعمل ، وهو صدق اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الأخذ بالأسباب المأمور بها . فحقيقة التوكل توحيد القلب ، ولا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده ، فإذا كان في القلب علائق الشرك فتوكله معلول ، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل .

وقد حصرت بعض المخالفات في كتاب التوكل عند الغزالي في المسائل الآتية :

المسألة الأولى :

قال الغزالي – رحمه الله – : " التوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده "[1] .

(١) إحياء علوم الدين : (٣٢١/٤) .

وهو في حال القوة والضعف له ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : أن يكون حاله في حق الله تعالى ، والثقة بكفالته وعنايته ، كحاله في الثقة بالوكيل .

الدرجة الثانية : وهي أقوى أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمـــه ، فإنـــه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ، ولا يعتمد إلا إياها .

الدرجة الثالثة : وهي أعلاها ، أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل ، لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتًا تحركه القدرة الأزلية ، كما تحـــرك يـــد الغاسل الميت .[١]

ثم قـــال : " فإن قلت : هل يبقى مع العبد تدبـــير وتعلق بالأسبـــاب في هذه الأحوال ؟ فاعلم أن المقام الثالث ينفي التدبير رأسًا ما دامت الحالة باقية ، بل يكون صاحبها كالمبهوت[٢].

والمقام الثاني ينفي كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهال ، كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط .

والمقام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ، ولكن ينفي بعض التدبيرات .

وليس من شروط التوكل ترك كل تدبير وعمل ، وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مـــع التوكل ، بل هو على الانقسام "[٣].

التعليق:

من سنة الله في خلقه وأمره أنه خلق المخلوقات بأسباب ، وشرع للعباد أسباباً ينالون بهـــا مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة .

ويجب على العبد أن يكون قلبه معتمداً على الله تعالى لا على سبب من الأســـباب ، والله يـــيسر له من الأسباب ما يصلحه من أمر الدنيا والآخرة .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين : (٤/٣٢٢-٣٢٣) .

(٢) من الدهشة والحيرة . انظر : المعجم الوسيط ، مادة (بهته) ، ص٧٢ .

(٣) إحياء علوم الدين : (٤/٣٢٣-٣٢٤) .

فالالتفات إلى الأسباب شرك بالتوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع .

والله أعطى للإنسان إرادة ، ولا يمكن أن يخلو المرء عن الإرادة مطلقاً ، بل هو مفطور على إرادة مالا بد منه ، وعلى كراهة ما يضره .

قال ابن تيمية –رحمه الله– : " وأما خلو الإنسان عن الإرادة مطلقًا فممتنع ، فإنه مفطور على إرادة ما لابد له منه وعلى كراهة ما يضره ويؤذيه ، والزاهد الناسك إذا كان مسلماً فلا بد أن يريد أشياء يحبها الله مثل : أداء الفرائض وترك المحارم ، بل وكذلك عموم المؤمنين "[١].

وقال ابن تيمية أيضًا : " وأما الخلو عن الإرادتين المحمودة والمذمومة فيقع من كثير من الزهاد والعباد الممتثلين لما يعلمون أن الله أمر به ، المجتنبين لما يعلمون أن الله نهى عنه ، وأمور أخرى لا يعلمون أنها مأمور بها ولا منهي عنها ، فلا يريدونها ولا يكرهونها لعدم العلم ، وقد يرضونها من جهة كونها مخلوقة مقدرة ، وقد يعاونون عليها ، ويرون هذا موافقة لله ، وأنهم لما خلو عن هوى النفس كانوا مأمورين بالرضا بكل حادث ؛ بل والمعاونة عليه . وهذا موقع يقع فيه الغلط ، فإن ما أحبه الله ورسوله علينا أن نحبه ، وما أبغضه الله ورسوله علينا أن نبغضه ، وأما كونها مقدورة ومخلوقة لله فذاك لا يختص بها ؛ بل هو شامل لجميع المخلوقات "[٢].

وقول الغزالي بأن يكون المرء بين يدي الله ليس له إرادة ، كالميت مع الغاسل يحركه كيف شاء ، لا يصح على الإطلاق . وقد رد ابن تيمية –رحمه الله– على قولهم هذا فقال :

" وقول من قال : إن العبد يكون مع الله كالميت مع الغاسل : لا يصح ولا يسوغ على الإطلاق على أحد من المسلمين ، وإنما يقال ذلك في بعض المواضع ؛ ومع هذا فإنما ذلك لخفاء أمر الله عليه ، وإلا فإذا علم ما أمر الله به وأحبه ، فلابد أن يحب ما أحبه الله ، ويبغض ما أبغضه ". [٣]

قلت : وهذا الموضع يلتبس على كثير من المتصوفة ، حيث ظنوا أن الطريقة الكاملة ألا

---

(١) مجموع الفتاوى : (١٠/٤٨١) .

(٢) المرجع السابق : (١٠/٤٨١-٤٨٢) .

(٣) المرجع السابق : (١٠/٤٨٥) .

يكون للعبد إرادة أصلاً ، وليس ذلك بصحيح ، فإن ذلك ليس بمقدور ولا مأمور فإن الحي لابد له من إرادة ، والعبد مفطور على حب ما ينفعه وبغض ما يضره ، ولا يمكن أن تستوي إرادته لجميع الحوادث فطرة وخلقًا ، والله – عز وجل– لم يأمره من جهة الشرع أن يكون مريدًا لجميع الحوادث ، بل قد أمر الله تعالى بإرادة أمور كالصلاة والصيام ونحوها ، وكراهية أمور أخرى كالكذب ، والكفر والمعاصي ونحو ذلك .

قال ابن تيمية –رحمه الله– : " وكثير من الشيوخ زلقوا في هذا الموضع حيث زعم قوم منهم أنهم فرغوا من الإرادة مطلقاً ، ولم يبق لهم مراد إلا ما يقدره الرب ، وإن هذا المقام هو أكمل المقامات ، ويزعمون أن من قام بهذا فقد قام بالحقيقة القدرية الكونية .

ومنهم من يرى أن هذه الحقيقة هي منتهى سلوك العارفين وغاية منازل الأولياء الصديقين، ومنهم من يظن أن الوقوف مع إرادة الأمر والنهي يكون في السلوك والبداية ، أما في النهاية فلا تبقى إلا إرادة القدر ، وهو في الحقيقة قول بسقوط العبادة والطاعة ، فإن العبادة لله والطاعة لله ورسوله –صلى الله عليه وسلم– إنما تكون في امتثال الأمر الشرعي لا في الجري مع المقدور ".[1]

وأما فيما يتعلق باعتبار الإمام الغزالي أعلى درجات التوكل نفي التدبير وترك الأسباب لا يصح ولا دليل عليه بل الثابت شرعاً الأخذ بالأسباب ، وقد ذكر ذلك ابن القيم –رحمه الله– فقال : " ولا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرًا وشرعًا ، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل ، كما يقدح في الأمر والحكمة ، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل ، فإنَّ تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ، ودفع ما يضره في دينه ودنياه ، ولابد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ، ولا توكله عجزًا " [2].

(١) مجموع الفتاوى : (١٠/٤٩٦-٤٩٩) .

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ، ابن القيم الجوزية : (٤/١٥) ، تحقيق : شعيب ، وعبد القادر الأرناؤوط ، الطبعة الخامسة والعشرون ، ١٤١٢هـ ، مؤسسة الرسالة–بيروت .

ويُعوِّل الإمام الغزالي مسألة نفي التدبير بترك الكسب ، بأن الله عز وجل ضمن الرزق لعباده والرزق آتيه لا محالة . حيث قال : " وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه . فإن الذي أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق ، بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى إليها ".[١]

وقال الغزالي أيضًا : " فمن شهد هذا التدبير ، وثق بالمدبر ، واشتغل به ، وآمن ونظر إلى مدبِّر الأسباب لا إلى الأسباب ، وما دبره تدبيراً يصل إلى المشتغل به ، من الحلو والطيور السمان ، والثياب الرقيقة ، والخيول النفيسة على الدوام لا محالة ، وقد يقع ذلك أيضاً في بعض الأحوال ؛ لكن دبره تدبيراً يصل إلى كل مشتغل بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة . والغالب أنه يصل أكثر منه ، بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية . فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التنعم على الدوام ، ولبس الثياب الناعمة ، وتناول الأغذية اللطيفة ، وليس ذلك من طريق الآخرة ".[٢] ويقول :" ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا ". [٣]

قلت : بل طلب الرزق من الأمور الشرعية ولا يناقض التوكل ، فالرجل مأمور بالنفقة على نفسه وزوجه وأولاده ، ولكنه في طلبه يعلق قلبه بالله لا بالسبب .

قال الحافظ ابن رجب –رحمه الله– : "واعلم أن حقيقة التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه وتعالى المقدورات بها ، وجرت سنته في خلقه بذلك ، فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل ، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له ، والتوكل بالقلب عليه إيمان به ". [٤]

وقال ابن حجر – رحمه الله – : " والحق أن من وثق بالله وأيقن أن قضاءه عليه ماضٍ ، لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب إتباعاً لسنته وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم– " [٥].

---

(١) إحياء علوم الدين : (٣٣٩/٤) .

(٢) المرجع السابق : (٣٣٨/٤) .

(٣) المرجع السابق : (٣٣٢/٤) .

(٤) جامع العلوم والحكم ، ابن رجب (٤٩٨/٢) .

(٥) فتح الباري ، (٢٢٣/١٠) .

وقال ابن تيمية –رحمه الله تعالى– :

"من ظن أن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها ، فهو ضال . وهذا كمن ظن أنه يتوكل على ما قدر عليه من السعادة والشقاوة بدون أن يفعل ما أمره الله به ".[١]

وقد جاء في الصحيحين عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال : " ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة أو النار ، فقيل : يا رسول الله ، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال : لا ؛ اعملوا ؛ فكل ميسر لما خلق الله له ". [٢]

فإن كانت الأسباب مقدورة له ، وهو مأمور بها ، فعلها مع التوكل على الله ؛ كما يؤدي الفرائض ، وكما يجاهد العدو ويحمل السلاح ويلبس جبة الحرب ، ولا يكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد . ومن ترك الأسباب المأمور بها ؛ فهو عاجز مفرط مذموم فعله . [٣]

وقد نهى النبي –صلى الله عليه وسلم– عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذي ينفع العبد ، عن أبي هريرة عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال : " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإن أصابك أمر فلا تقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا ...، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان ". [٤]

وعقد ابن الجوزي –رحمه الله تعالى– فصلاً في تلبيس إبليس عن الصوفية في تركهم الأسباب حيث لبَّس على خلق كثير منهم بأن التوكل ينافي الكسب . فقد سأل أحدهم : أنحن مستعبدون بالكسب أم بالتوكل ؟ فقيل له : التوكل حال رسول –صلى الله عليه وسلم–، والكسب سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– .

وإنما سنة الكسب لمن ضعف عن التوكل وسقط عن درجة الكمال التي هي حاله ، فمن أطاق

---

(١) قاعدة في الرد على الغزالي في التوكل ، لابن تيمية ص ٣٤٤

(٢) أخرجه البخاري ، في كتاب التفسير ، باب قوله : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى) ، رقم (٤٩٤٥) ، وأخرجه مسلم ، في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ، رقم (٢٦٤٧) .

(٣) انظر : قاعدة في الرد على الغزالي في التوكل ، لابن تيمية ص (٣٤٦-٣٤٧) .

(٤) أخرجه مسلم ، في كتاب القدر ، باب في الأمر بالقوة والأمر بالعجز ، رقم (٢٦٦٤) .

التوكل فالكسب غير مباح له بحال ؛ إلا كسب معاونة لا كسب اعتماد عليه . ومن ضعف عن حال التوكل التي هي حال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أبيح له طلب المعاش في الكسب لئلا يسقط عن درجة سنته حين سقط عن درجة حاله .

قال ابن الجوزي -رحمه الله- معلقًا على ذلك السؤال من أحد المتصوفة : هذا كلام قوم ما فهموا معنى التوكل ، وظنوا أنه ترك الكسب وتعطيل الجوارح عن العمل .

والتوكل فعل القلب فلا ينافي حركة الجوارح ، ولو كان كل كاسب ليس بمتوكل لكان الأنبياء غير متوكلين ؛ فقد كان آدم عليه السلام حراثًا ، ونوح وزكريا نجارين ، وإدريس خياطاً ، وإبراهيم ولوط زراعين ، وصالح تاجراً ، وكان سليمان يعمل الخوص ، وداود يصنع الدرع ويأكل من ثمنه ، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة -صلوات الله عليهم- أجمعين . [١]

قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: " ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم ، فقال أصحابه: وأنت ؟ فقال : نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة ". [٢]

وقد ظاهر -رسول الله عليه وسلم - يوم أحد بين درعين ، أو لبس درعين . [٣] فلم يحضر الصف قط عرياً ،[٤] واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه ، يدله على طريق الهجرة ،[٥] وكان يدخر لأهله قوت سنة ،[٦] وهو سيد المتوكلين .

وكذلك كان أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم أولو التوكل حقا ، وأكمل المتوكلين بعدهم هو من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة ، أو لحق أثراً من غبارهم ، فحال النبي - صلى الله عليه وسلم- وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها ، بها يعلم صحيحها من سقيمها ، فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم . [٧]

---

(١) تلبيس إبليس ، لابن الجوزي ، ص (٢٧٣) .

(٢) أخرجه البخاري ، في كتاب الإجارة ، باب رعي الغنم على قراريط ، رقم (٢٢٦٢) .

(٣) أخرجه أبو داود ، في كتاب الجهاد ، باب في لبس الدروع ، رقم (٢٥٩٠) . قال الألباني : حديث صحيح .

(٤) أي عارياً من الدرع التي تتقى بها السهام والسيوف ، انظر المعجم الوسيط ، مادة (عَرِيَ) .

(٥) أخرجه البخاري ، في كتاب الإجارة ، باب استئجار المشركين عند الضرورة ، رقم (٢٢٦٣) .

(٦) أخرجه البخاري ، في كتاب النفقات ، باب حبس نفقة الرجل قوت سنة على أهله ، رقم (٥٣٥٧) .

(٧) انظر : مدارج السالكين ، لابن القيم : (٢/٣٩٠) .

وسئل أحمد بن حنبل عن التوكل فقال : التوكل حسن ، ولكن ينبغي أن يكتسب ويعمل حتى يغني نفسه وعياله ولا يترك العمل . وسئل أيضًا عن قوم لا يعملون ويقولون : نحن المتوكلون ، فقال : هؤلاء مبتدعون . هم قوم سوء يريدون تعطيل الدنيا .[١]

قال ابن الجوزي: " وإنما قعد أقوام عن الكسب استثقالاً له فكانوا بين أمرين قبيحين : إما تضييع العيال ، فتركوا الفرائض ، أو التزين باسم أنه متوكل ، فيحن عليهم المكتسبون "[٢].

قلت : فالتوكل ليس فقط في الأمور الدنيوية ؛ بل إنه في الأمور الدينية أعظم ، فإن المتوكل يتوكل على الله في صلاح قلبه ودينه ، وحفظ لسانه وإرادته . ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة : ٥] وكما في قوله تعالى :﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣]،وقوله ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود : ٨٨].

والإعراض عن الكسب والخمول بدعوى التوكل ، فيه من الآفات والمصاعب ما يصعب حصره ، ومن أهمها :

١- تعلق قلب العبد بما يقيم أَوْدَه ويسير حياته ، لأنه لا يمكن أن يعيش بغير ذلك ، فيبقى منشغلاً بالتفكير بين القيام بتحقيق ما لا بد منه من أجل الحياة ، أو تحقيق التوكل على مفهومه المزعوم ، ومجاهدة نفسه على تغيير فطرتها التي فطره الله عليها .

٢- تضييع كثير من الحقوق التي أوجبها الله تعالى على العبد .

٣- تطلع النفس إلى ما في أيدي الناس ، وتعريضها للحاجة والسؤال إذا مسته الحاجة إلى ما في أيديهم ، ولا شك أن طلب الرزق الحلال لمن هذه حاله خير له وأنفع من ترك ذلك .

٤- مع التسليم الجدلي بأن من هذه حاله سيقطع تعلق قلبه بحاجات نفسه ، وسيمنعها من مسألة الآخرين ، فلو تحقق ذلك -مع استحالته- فإنه يُخشى عليه أن يداخله من العجب والكبر والزهو والغرور والاستعلاء على الآخرين ما يفسد عليه قلبه ، ويمرضه إن لم يمته .[٣]

---

(١) انظر : تلبيس إبليس : ص ٢٧٦

(٢) المرجع السابق : ص (٢٧٧) .

(٣) التوكل على الله تعالى وعلاقته بالأسباب ، عبدالله الدميجي ، ص١٧٥ ، الطبعة الثانية ، ١٤٢١هـ ، دار االوطن- الرياض .

المسألة الثانية :

نتطرق هنا لشروط التوكل ودرجاته ببيان أعمال المتوكلين ، كما أشار إليها الإمام الغزالي -رحمه الله- حيث قال : ": إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده . وسعي العبد باختياره إما أن يكون لأجل :

١- جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب .

٢- أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار .

٣- أو لدفع ضار لم ينـــزل به ، كدفع الصائل والسارق والسباع .

٤- أو لإزالة ضار قد نزل كالتداوي من المرض .

أولاً : الأسباب في جلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به ، ومظنون ظنًا يوثق به ، وموهوم وهمًا لا تثق النفس به ثقة تامة ، ولا تطمئن إليه " [(١)].

والذي سأناقشه في هذه المسألة الدرجة الثانية : المظنون ظنًا يوثق به وهي كما قال الغزالي: " الأسباب التي ليست متيقنة ، ولكن الغالب أن المسببـــات لا تحصل دونها ، وكان احتمـــال حصولها دونها بعيدًا "[(٢)].

ثم قال : "والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات :

الأول : مقام الخوّاص[(٣)] ونظرائه ، وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضـــل الله تعـــالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعًا وما فوقه ، أو تيسير حشيش له أو قوت ، أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك . فإن الذي يحمل الزاد قد يفقد زاده ، أو يضـــل بعـــيره ، ويموت جوعًا ، فذلك ممكن مع الزاد ، كما أنه يمكن مع فقده .

الثاني : أن يقعد في بيته أو في مسجد ، ولكنه في القرى والأمصار ، وهذا أضعف مـــن الأول ، ولكنه أيضاً متوكل ؛ لأنه تـــارك للكسب والأسباب الظـــاهرة، معول على فضل الله تعالى في

---

(١) إحياء علوم الدين : (٣٢٨/٤) .

(٢) المرجع السابق : (٣٢٨/٤) .

(٣) إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص ، كنيته أبو إسحاق ، وهو أحد من سلك طريق التوكل ، وله في السياحات والرياضات مقامات يطول شرحها ، وهو من أقران الجنيد ، والنوري ، توفي في جامـــع الري سنة ٢٩١هـــ . انظر : طبقات الصوفية ، ص٢٢٠ .

تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ، ولكنه بالقعود في الأمصار متعرض لأسباب الرزق ، فإن ذلك من الأسباب الجالبة .

الثالث: أن يخرج ويكتسب ، وهذا السعي لا يخرجه أيضاً عن مقامات التوكل ، إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته ، فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة. بل يكون نظره إلى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له ".[(١)]

التعليق:

نلاحظ مما سبق أن الغزالي –رحمه الله– يربط مقام التوكل بالزهد في الدنيا ، وذلك عند كلامه عن الدرجة الثانية فيما يتعلق بجلب النافع ، بل إنه يجعل المقام الأول فيها ، وهو مقام الخوّاص أعلى المقامات في التوكل .

وهو وإن كان يقول باستصحاب الزاد في البوادي ، وأنه سنة الأولين ، وأن السفر من غير استصحاب زاد ، ليس شرطاً في التوكل ، إلا أنه يرى جواز من سافر بدون زاد في البوادي حيث قال : " ولكن فعل ذلك جائز ، وهو من أعلى مقامات التوكل ، ولذلك كان يفعله الخوّاص " [(٢)].

ثم في الوقت ذاته يمتدح فعل الخوّاص من حيث أنه لا تفارقه الإبرة ، والمقراض ، والحبل ، والركوة في البوادي ، ويقول: هذا لا يقدح في التوكل .

ويعلل الإمام الغزالي فعل الخوّاص حيث يقول : " وسببه أنه عَلِمَ أن البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض ، وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ، ولا يغلب وجود الحبل والدلو في البوادي ، كما يغلب وجود الحشيش .

والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ، ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة ، فإن المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء ، وإن صبر عن الطعام . وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتنكشف عورته ولا يوجد المقراض والإبرة في البوادي غالبًا عند كل صلاة ، ولا يقوم

---

(١) إحياء علوم الدين : (٣٣١/٤) .

(٢) المرجع السابق : (٣٢٨/٤) .

مقامها في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي . وهذا أيضاً مظنون ليس مقطوعاً بـه ؛ لأنه يحتمل ألا يتخرق الثوب ، أو يعطيه إنسان ثوباً ، أو يجد من يسقيه ". [١]

قال ابن الجوزي -رحمه الله- : " فهذا إبراهيم الخوّاص كان مجرداً في التوكل يدقق فيه ، ويدخل البادية بغير زاده ، وكان لا تفارقه الإبرة والخيط والركوة والمقراض ، فقيل له : لم تحمل هذا ، وأنت تمنع من كل شيء ؟ فقال : مثل هذا لا ينقص من التوكل ، لأن لله علينا فرائض . والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد فربما تخرق ثوبه ؛ فإذا لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته ، فتفسد عليه صلاته . وإذا لم يكن معه ركوة فسدت عليه طهارته ، وإذا رأيت الفقير بلا ركوة ولا إبرة ولا خيوط فاتهمه في صلاته ".[٢]

وقال ابن القيم تعليقًا على فعل الخوّاص وأمثاله : " أفلا تراه لم يستقم له دينه إلا بالأسباب ؟ أو ليست حركة أقدامه ونقلها في الطريق والاستدلال على أعلامها- إذا خفيت عليه – من الأسباب ؟ فالتجرد من الأسباب جملة ممتنع عقلاً وشرعًا وحسًا ". [٣]

ثم قال : " قد تعرض للصادق أحيانًا قوة ثقة بالله ، وحال مع الله تحمله على ترك كل سبب مفروض عليه ، كما تحمله على إلقاء نفسه في مواضع الهلكة ، ويكون ذلك الوقت بالله لا به ، فيأتيه مدد من الله على مقتضى حاله ، ولكن لا تدوم له هذه الحال ، وليست في مقتضى الطبيعة ؛ فإنها كانت هجمة هجمت عليه بلا استدعاء فحمل عليها ، فإذا استدعى مثلها وتكلّفها لم يُجَب إلى ذلك ، وفي تلك الحال إذا ترك السبب يكون معذورًا لقوة الوارد ، وعجزه عن الاشتغال بالسبب ، فيكون في وارده عون له ، ويكون حاملاً له ، فإذا أراد تعاطي تلك الحال بدون ذلك الوارد وقع في المحال " . [٤]

وقال ابن القيم أيضًا : " وكثير من المتوكلين يكون مغبونًا في توكله ، كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله ، ويمكنه نيلها بأيسر شيء ، وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم ، ونصرة الدين ، والتأثير في العالم خيرًا . فهذا توكل العاجز القاصر الهمة ،

---

(١) إحياء علوم الدين : (٣٢٩/٤) .

(٢) تلبيس إبليس : ص ٣٠٧

(٣) مدارج السالكين : (٣٨٨/٢) .

(٤) المرجع السابق : (٣٨٨/٢) .

كما يصرف بعضهم همته وتوكله ، ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء ، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف ، أو نصف درهم ، ويدع صرفه إلى نصرة الدين وقمع المبتدعين ، وزيادة الإيمان ، ومصالح المسلمين ".[1]

فالإمام الغزالي –رحمه الله تعالى– في حين أنه لم يمنع من أخذ الأسباب مؤكدًا ضرورة الالتفات إلى مسبب السبب لا إلى السبب ، إلا أنه يجعل ترك التدبير والتكسب من أعلى الدرجات في مقام التوكل ، وذلك يعود كما بينت سابقًا أنه –رحمه الله– أكد على أن الرزق مضمون فلا يشتغل الإنسان بطلبه ، وأن هذا الرزق المضمون دبّره الله – عز وجل– على قدر الكفاية والحاجة ، ويضرب لذلك بأمثلة لبعض الصوفية في أحوالهم ، والتي أشار إليها ابن القيم –رحمه الله– بأن هذه الأحوال لا تستمر بل إنها تعرض لصاحبها حينًا وتفارقه أخرى . ومثال ما أورده الغزالي –رحمه الله– من حكايات الصوفية في التوكل ما يأتي :

أورد الغزالي –رحمه الله– أنه :" روي أن أبا تراب النخشبي[2] نظر إلى صوفي مدّ يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام ، فقال له : لا يصح لك التصوف ، الزم السوق .
وقال أبو علي الروذباري[3] : إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع ، فألزموه السوق ، ومروه بالعمل والكسب ".[4]

وأورد الغزالي أن أبا سعيد الخرّاز[5] قال :" دخلت البادية بغير زاد ، فأصابتني فاقة ، فرأيت المرحلة من بعيد ، فسررت بأن وصلت ، ثم فكرت في نفسي أني سكنت واتكلت على غيره ؛

---

(١) مدارج السالكين : (٢/٣٧٣-٣٧٤) .

(٢) أبو تراب النخشبي ، واسمه عسكر بن حصين ، صحب حاتمًا الأصم ، وهو من جلة مشائخ خراسان ، والمذكورين بالعلم ، والتوكل ، والزهد ، توفي في البادية سنة ٢٤٥هـ . انظر : طبقات الصوفية ، ص١٢٤ .

(٣) أبو علي الروذباري ، واسمه أحمد بن محمد بن القاسم ابن منصور بن شهريار بن مهرذاذاز بن فرغدد بن كسرى ، وهو من أهل بغداد ، سكن مصر ، وصار شيخها ، ومات بها ، صحب أبا القاسم الجنيد ، وأبا الحسن النوري ، وكان عالمًا ، فقيهًا عارفًا بعلم الطريقة ، حافظًا للحديث ، توفي سنة ٣٢٢هـ . انظر : طبقات الصوفية ، ص٢٦٩

(٤) إحياء علوم الدين : (٤/٣٣٧) .

(٥) أحمد بن عيسى ، أبو سعيد الخرّاز ، هو من أهل بغداد ، من أئمة القوم وجلة مشايخهم . صحب ذا النون المصري ، وسريًا السقطي ، وغيرهم . مات سنة ٢٧٩هـ . انظر : طبقات الصوفية ، ص١٨٣ .

وآليت ألا أدخل المرحلة إلا أن أُحمل إليها ، فحفرت لنفسي في الرمل حفرة ، وواريت جسدي فيها إلى صدري ، فسمعت صوتًا في نصف الليل عاليًا : يا أهل المرحلة ، إن لله وليًا حبس نفسه في هذا الرمل فالحقوه ، فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية ". [١]

وقد علّق ابن الجوزي -رحمه الله- على فعل أبي سعيد الخراز حيث قال : " لقد تنطع هذا الرجل على طبعه ، فأراد منه ما يوضع عليه ، لأن طبع ابن آدم أن يهش [٢] إلى ما يحب ، ولا لوم على العطشان إذا هش إلى الماء ، ولا على الجائع إذا هش إلى الطعام ، فكذلك كل من هش إلى محبوب له ، وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا قدم من سفر ، فلاحت له المدينة أسرع السير حباً للوطن ، ولما خرج من مكة تلفت إليها شوقاً . وكان بلال يقول : لعن الله عتبة وشيبة إذ أخرجونا من مكة ، وقال :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً بواد وحولي إذخر وجليل

ثم قال ابن الجوزي : فنعوذ بالله من الإقبال على العمل بغير مقتضى العلم والعقل" . [٣]

وأورد الغزالي أن أبا حمزة الخراساني[٤] قال : "حججت سنة من السنين ، فبينما أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بئر ، فنازعتني نفسي أن أستغيث ، فقلت : لا والله لا أستغيث ، فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس البئر رجلان ، فقال أحدهما للآخر : تعال حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد ، فأتوا بقصب وبارية ، وطموا رأس البئر ، فهممت أن أصيح ، فقلت في نفسي : إلى من أصيح ؟ هو أقرب منهما ، وسكنت . فبينا أنا بعد ساعة إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله ، وكأنه يقول : تعلّق بي ، في همهمة له كنت أعرف ذلك ، فتعلّقت به فأخرجني ، فإذا هو سبع ، فمر وهتف بي هاتف : يا أبا حمزة : أليس هذا أحسن ؟ نجيناك من التلف بالتلف" . [٥]

---

(١) إحياء علم الدين : (٣٣٥/٤) .

(٢) هش: انشرح صدره سرورًا به ، انظر : المعجم الوسيط ، مادة (هش) .

(٣) تلبيس إبليس ، ص ٣٠٢

(٤) أبو حمزة الخراساني ، وكان أصله من نيسابور ، صحب مشائخ بغداد ، وهو من أقران الجنيد ، سافر مع أبي تراب النخشبي ، وأبي سعيد الخراز . انظر : طبقات الصوفية ، ص٢٥٠ .

(٥) إحياء علوم الدين : (٣٣٦/٤) .

قال ابن الجوزي – رحمه الله– في سياق ذكره لهذه القصة ضمن أفعال الصوفية المخالفة للشرع : " أبو حمزة مخالف للشرع بسكوته ، وقوله لا أستغيث كقول القائل : لا آكل الطعام ولا أشرب الماء . وهذا جهل من فاعله ، ومخالفة الحكمة في وضع الدنيا ، فإن الله تعالى وضع الأشياء على حكمة فوضع للآدمي يدًا يدافع بها ، ولسانًا ينطق به ، وعقلاً يهديه إلى دفع المضار واجتلاب المصالح ، فمن أعرض عن استعمال ما خلق الله وأرشد إليه فقد رفض أمر الشرع ، وعطّل حكمة الصانع ... ثم قال : وقول أبي حمزة فنوديت ، هذا من حديث النفس الجاهلة التي قد استقر عندها بالجهل أن التوكل ترك التمسك بالأسباب ؛ لأن الشرع لا يطلب من الإنسان ما نهاه عنه ، وهلاّ نافره باطنه في مد يده وتعلقه بذلك المتدلي إليه وتمسكه به ، فإن ذلك أيضاً نقض لما دعاه من ترك الأسباب الذي يسميه التوكل ؛ لأنه أي فرق بين قوله أنا في البئر وبين تمسكه بما تدلى عليه ، لا بل هذا آكد ؛ لأن الفعل آكد من القول ، فهلاّ سكت حتى يُحمل بلا سبب . فإن قال : هذا بعثه الله لي ، قلنا : والذي جاز على البئر من بعثه ؟ واللسان المستغيث من خلقه ؟ فإنه لو استغاث كان مستعملاً للأسباب التي خلقها الله تعالى لينتفع بها للدفع عنه ، وإنما بسكوته عطّل الأسباب التي خلقها الله له ودفع الحكمة ، فصحّ لومه على ترك السبب ، وأما تخليصه بالأسد ، فإن صح هذا ، فقد يتفق مثله ، ثم لا ينكر أن الله تعالى يلطف بعبده ، وإنما ينكر فعله المخالف للشرع "[(١)].

فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ، ويندفع بها المكروه . قال ابن القيم: " فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل ، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب ، وقطع علاقة القلب بها ؛ فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها ، وحال بدنه قيامه بها "[(٢)].

وقال أيضاً : " فالأسباب محل حكمة الله تعالى وأمره ودينه ، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره ؛ فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل ، ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية ".[(٣)]

---

(١) تلبيس إبليس ، ص ٢٩٥

(٢) مدارج السالكين : (٣٦٣/٢) .

(٣) المرجع السابق : (٣٦٣/٢) .

المسألة الثالثة :

قول الغزالي -رحمه الله- :" وهذا المقام[١] في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ، ثقة بكرمه وعنايته ، وأنه يعطي ابتداء أفضل مما يسأل ، فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء ، وبغير الاستحقاق".[٢]

التعليق :

الدعاء من العبادات القلبية ، وسؤال العبد لربه- عز وجل- من أفضل العبادات . والتوكل على الله من أجلّ القربات التي يتوسل بها إلى الله تعالى في تحقيق المطالب الدينية والدنيوية .

قال ابن القيم : " يعتبر الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب ، وهو من أنفع الأدوية وهو سلاح المؤمن ". [٣] فقد قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: " لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر".[٤]

وقد جعل الله تعالى الدعاء سبباً في حصول المدعو به ،كما قال تعالى :﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[غافر : ٦٠]

قال ابن تيمية -رحمه الله- : " وقد أمر الله العباد بأن يعبدوه ويتوكلوا عليه ويسألوه ؛ وهو سبحانه جعل هذه الأمور أسباباً لما يرتبه عليها من إثابة العابدين ، وإجابة السائلين ، وهو سبحانه يعلم الأشياء على ما هي عليه ، فعلمه بأن هذا محتاج أو هذا مذنب لا ينافي أن يأمر هذا بالتوبة والاستغفار ، ويأمر هذا بالدعاء وغيره من الأسباب التي تقضى بها حاجته ، كما يأمر هذا بالعبادة والطاعة التي بها ينال كرامته ".[٥]

---

(١) يقصد به المقام الثالث: وهو أن يكون بين يدي الله تعالى مثل الميت بين يدي الغاسل .

(٢) إحياء علوم الدين : (٣٢٣/٤) .

(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، لابن القيم ، ص (٢٢) وما بعدها ، تحقيق : أبو حذيفة عبدالله بن عالية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ، دار الكتاب العربي-بيروت .

(٤) أخرجه الترمذي ، في كتاب القدر ، باب ما جاء كل مولود يولد على الفطرة ، رقم (٢١٣٩) ، قال أبو عيسى : وهذا حديث حسن غريب . قال الشيخ الألباني : حديث حسن .

(٥) مجموع الفتاوى : (١٨٣/١) .

والتوكل على الله تعالى من أعظم ما يتوسل به المرء إلى ربه في جلب المنافع ودفع المضار ، وهو من مظاهر العبودية والافتقار والانكسار بين يديه – عز وجل- .

قال تعالى :﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾ [الممتحنة : ٤-٥] .

ويجب على العبد أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله – سبحانه وتعالى- والله يقدر له من الأسباب ما شاء .

وقد عقد ابن تيمية –رحمه الله- فصلاً في وجوب اختصاص الخالق بالعبادة والتوكل عليه حيث قال : " فلا يعمل إلا له ، ولا يرجى إلا هو ، هو- سبحانه – الذي ابتدأك بخلقك والإنعام عليك ، بنفس قدرته عليك ومشيئته ورحمته ، من غير سبب منك أصلاً ، وما فعل بك لا يقدر عليه غيره ،ثم إذا احتجت إليه في جلب رزق أو دفع ضرر ،فهو الذي يأتي بالرزق لا يأتي به غيره ، وهو الذي يدفع الضرر ولا يدفعه غيره ، كما قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ۝ ﴾ [الملك : ٢١]. "[(١)]

وفي الحديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم- فيما روى عن الله – تبارك وتعالى- : " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي " .[(٢)]

قلت: وكلما كان العبد أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له ،كان أقرب إليه، وأعزّ له ، وأعظم لقدره ، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله تعالى.

وقد بيّن ابن تيمية أن العبد في بداية دعائه له حالتان :

" الحالة الأولى : حصول ذلك المطلوب من الرزق ونحوه ، والعبد قد تنزل به النازلة فيكون مقصوده طلب حاجته ، وتفريج كرباته ، فيسعى في ذلك بالسؤال والتضرع ، وإن كان ذلك من العبادة والطاعة ، ثم يكون في أول الأمر قصده حصول ذلك المطلوب من الرزق والنصر والعافية مطلقاً ، ثم الدعاء والتضرع يفتح له من أبواب الإيمان بالله- عز وجل- ومعرفته ومحبته،

---

(١) مجموع الفتاوى : (٣٧/١) .

(٢) أخرجه مسلم ، في كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم ، رقم (٢٥٧٧) .

والتنعم بذكره ودعائه ، ما يكون هو أحب إليه وأعظم قدراً عنده من تلك الحاجة التي أهمته . وهذا من رحمة الله بعباده ، يسوقهم بالحاجات الدنيوية إلى المقاصد العلية الدينية ". [١]

ثم قال : " وأما الحالة الثانية : لأجل عبادة الله وطاعته ، وقد يفعل العبد ما أمر به ابتداء لأجل العبادة لله ، والطاعة له ، ولما عنده من محبته والإنابة إليه ، وخشيته ، وامتثال أمره ، وإن كان ذلك يتضمن حصول الرزق والنصر والعافية ، وقد قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر:٦٠] . وقال النبي- صلى الله عليه وسلم- : " الدعاء هو العبادة " [٢]. وقال عليه الصلاة والسلام في حديث النزول : " ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول: من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له ، حتى يطلع الفجر ".[٣]

فذكر أولاً إجابة الدعاء ، ثم ذكر إعطاء السائل ، فهذا جلب المنفعة ، وهذا دفع المضرة ، وكلاهما مقصود الداعي المجاب ". [٤]

ويشير ابن القيم -رحمه الله- إلى ارتباط التوكل بالدعاء فيقول :

" أن يكون الله قد قضى بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء ؛ فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب، وقضى الله بحصوله إذا فعل العبد سببه ؛ فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب ، وهذا كما قضى بحصول الشبع إذا أكل ، والري إذا شرب ؛ فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو ، وقضى بحصول الحج والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق ، فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة".[٥]

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، ابن تيمية : (٢/٣١٢-٣١٣) ، تحقيق : د.ناصر عبدالكريم العقل، الطبعة السابعة ، ١٤١٩هـ ، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد-المملكة العربية السعودية .

(٢) أخرجه أبو داود ، في كتاب الوتر ، باب الدعاء ، رقم (١٤٧٩) . قال الشيخ الألباني : حديث صحيح .

(٣) أخرجه البخاري ، في كتاب أبواب التهجد ، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ، رقم (١١٤٥) .

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم : (٢/٣١٣-٣١٤) .

(٥) مدارج السالكين : (٢/٣٦١) .

وقال ابن القيم أيضًا : " فالتوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه ، فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به ، فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سبباً ، ولا جعل دعاءه سبباً لنيل شيء ؛ فإن المتوكل فيه المدعو بحصوله إن كان قد قُدر حصل ، توكل أو لم يتوكل ، دعا أو لم يدع ؛ وإن لم يُقدَّر لم يحصل ، توكل أيضاً أو ترك التوكل ".(١)

وقد يظن البعض ممن ينفي الأسباب أن التوكل والدعاء عبودية محضة ، لا فائدة لهما إلا ذلك ، وأنه لو ترك العبد التوكل والدعاء ما فاته شيء مما قُدِّر له . وهو خلاف ما عُرف من منهج أنبياء الله تعالى ونبينا محمد – صلى الله عليه وسلم– والصحابة الذين ساروا على نهجه ، وخلاف النصوص التي سبق ذكرها فيما يتعلق بالأمر بالدعاء والتوكل على الله تعالى .

قال ابن رجب: " قال بعض السلف : بحسبك من التوسل إليه أن يعلم من قلبك حُسن توكلك عليه ، فكم من عبد من عباده قد فوّض إليه أمره ، فكفاه منه ما أهمّه ، فقد قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٢-٣] .

وحقيقة التوكل : هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها ، وكِلَةُ الأمور كلها إليه ، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه ". (٢)

---

(١) مدارج السالكين : (٢/٣٦٠) .

(٢) جامع العلوم والحكم : (٢/٤٩٧) .

المسألة الرابعة :

بيّن الغزالي -رحمه الله تعالى- أن الأسباب المزيلة للمرض تنقسم إلى :

"مقطوع به ، كالماء المزيل للعطش والخبز المزيل للجـــوع ، وهذا ليس من التوكـــل تركـــه .

ومظنون كالحجامة وشرب الدواء المسهل . وهذا فعله لا يناقض التوكل، وتركه ليس محظوراً .

وموهوم : ومثاله الكي والرقية ، وهذا شرط التوكل تركه" .[١]

والغزالي يرى أن الكي ليس من الأسباب الظـــاهرة النفع كالحجامة وشرب الدواء حيث يقول : " فإنه ما من وجع يعالج بالكي إلا وله دواء يغني عنه ليس فيه إحـــــراق. فـــالإحراق بالنار جرح مخرّب للبنية ... ولذلك جاء النهي عن الكي دون الرقى ، وكل واحد منهما بعيد عن التوكل . فالكي وما يجري مجراه هو الذي لا يليق بالمتوكل ، لأنه يحتاج في اســـتنباطه إلى تدبير، ثم هو مذموم ، ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها "[٢].

التعليق :

قد تقدم أن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري ، لا انفكاك لأحد عنه ، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب .

وقد حث الإسلام على العلاج والتداوي من الأمراض والأدواء ، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي - صلى الله عليه وسلم- قال :" ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً "[٣].

والغزالي يرى أن الكي والرقى كل منهما بعيد عن التوكل لدلالتـــه على شدة ملاحظـــة السبب والتعمق فيه ، مستشهداً بحديث النهي عن الكي[٤]، والذي سيأتي الحديث عنه في هـــذه المسألة ، علمًا بأن ترك الأمر المكروه ليس لكونه سببًا ، بل لكونه مكروهـــاً . وإن مباشـــرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه ، غير قادح في التوكل ، فلا يكون تركه مشروعًا .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين : (٣٥٠/٤).

(٢) المرجع السابق : (٣٥٣/٤).

(٣) أخرجه البخاري ، في كتاب الطب ، باب : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، رقم (٥٦٧٨) .

(٤) سيأتي ذكره وتخريجه ص ١٨٢

وسأناقش في هذه المسألة ما يتعلق بحكم الكي والرقية ، وهل يعارض أي منهما التوكل .

أولاً : الكي :

الاكتواء : كواه أي أحرق جلده بحديده محماة .(١)

والكي في أصله جائز ، يدل على ذلك ما جاء في بعض الأحاديث :

ففي الصحيح عن جابر بن عبد الله : " بعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى أبي بن كعب طبيباً فقطع منه عرقاً ثم كواه عليه " .(٢)

وعن أنس – رضي الله عنه – قال : " كويت من ذات الجنب ، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم– حي"(٣) . وعنه – رضي الله عنه – : " أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– كوى أسعد بن زرارة من الشوكة ". (٤)

وعن جابر – رضي الله عنه– قال : " رمي سعد بن معاذ في أكحله قال : فحسمه(٥) النبي – صلى الله عليه وسلم – بيده بمشقص ، ثم ورمت فحسمه الثانية "(٦).وعنه قال : "رمي أُبَي يوم الأحزاب على أكحله ، فكواه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– "(٧).

وعن جابر –رضي الله عنه– قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إن كان في شيء من أدويتكم خير ، ففي شربة عسل ، أو شرطة محجم ، أو لذعة من نار ، وما أحب أن أكتوي".(٨)

فقد دلّت الأحاديث السابقة على جواز الكي وإباحته ، وذلك بفعله – صلى الله عليه وسلم– ، وتقريره وعدم الإنكار على من فعله من الصحابة – رضوان الله عليهم– .

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ، مادة : (كواه)

(٢) أخرجه مسلم : في كتاب السلام ، باب لكل داءٍ دواء واستحباب التداوي ، رقم (٢٢٠٧) .

(٣) أخرجه البخاري : في كتاب الطب ، باب ذات الجنب ، رقم (٥٧٢١).

(٤) أخرجه الترمذي : في كتاب الطب ، باب ما جاء في الرخصة في ذلك ، رقم (٢٠٥٠) وقال : حديث حسن غريب. قال الشيخ الألباني : حديث صحيح .

(٥) حسم العرق : قطعه وكواه لئلا يسيل دمه . انظر المعجم الوسيط مادة : (حسم).

(٦) أخرجه مسلم : في كتاب السلام ، باب لكل داءٍ دواء واستحباب التداوي ، رقم (٢٢٠٨).

(٧) أخرجه مسلم : في كتاب السلام ، باب لكل داءٍ دواء واستحباب التداوي ، رقم (٢٢٠٧).

(٨) أخرجه البخاري : في كتاب الطب ، باب الحجم من الشقيقة والصداع ، رقم (٥٧٠٢).

وقد ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم– ما يدل على عدم محبته للكي ، والنهي عنه . فقال – صلى الله عليه وسلم– : (وما أحب أن أكتوي) .[١] وقال –صلى الله عليه وسلم– : (وأنا أنهى أمتي عن الكي) .[٢]

قال ابن القيم – رحمه الله تعالى – : " تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع ، أحدها : فعله ، والثاني : عدم محبته له ، والثالث : الثناء على من تركه ، والرابع : النهي عنه ، ولا تعارض بينها بحمد الله تعالى ، فإن فعله يدل على جوازه ،وعدم محبته له لا يدل على المنع منه ، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل ، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة ، أو عن النوع الذي لا يحتاج إليه ، بل يفعل خوفاً من حدوث الداء ، والله أعلم".[٣]

وذكر ابن قتيبة أن : " الكي جنسان : كي الصحيح لئلا يعتل ، كما يفعله كثير من أمم العجم ، فإنهم يكوون ولدانهم وشبانهم من غير علة ، يرون أن ذلك الكي يحفظ لهم الصحة ، ويدفع عنهم الأسقام... وهذا هو الأمر الذي أبطله الرسول –صلى الله عليه وسلم– ؛ لأنه ظن أن اكتواءه وإفزاعه الطبيعة بالنار وهو صحيح ، يدفع عنه قدر الله تعالى .

وأما الجنس الآخر ، فكي الجرح إذا نغل ، وإذا سال دمه فلم ينقطع ، وكي العضو إذا قطع ، أو حسمه ... وهذا هو الكي الذي فيه الشفاء "[٤].

وقال الخطابي: " إنما كوى النبي – صلى الله عليه وسلم– سعدًا ليرقأ الدم من جرحه ، وخاف عليه أن ينزف فيهلك . والكي مستعمل في هذا الباب ، كما يكوى من تقطع يده ورجله ".[٥]

ثم ذكر ابن القيم –رحمه الله– أسباب كراهة الكي فقال : " وأما إذا كان الكي للتداوي

---

(١) أخرجه البخاري : في كتاب الطب ، باب من اكتوى أو كوى غيره ، وفضل من لم يكتو ، رقم (٥٧٠٤.

(٢) أخرجه البخاري : في كتاب الطب ، باب الشفاء في ثلاث ، رقم (٥٦٨١).

(٣) زاد المعاد : (٤ / ٦٥-٦٦).

(٤) تأويل مختلف الحديث ، لابن قتيبة ، ص ٣٢٩-٣٣٢ ، صححه : محمد زهري النجار ، ١٣٩٣هـ ، دار الجيل- بيروت .

(٥) زاد المعاد : (٤/٦٥) .

الذي يجوز أن ينجع ، ويجوز أن لا ينجع ، فإنه إلى الكراهة أقرب" .[١]

فعن عمران بن حصين أن النبي – صلى الله عليه وسلم– نهى عن الكي ، قال : فابتلينا فاكتوينا ، فما أفلحنا ولا أنجحنا .[٢] وقال عمران : " وقد كان يسلّم علي – يعني الملائكة – حتى اكتويت ؛ فتركت ، ثم تركت الكي ؛ فعاد " [٣]

قيل : إنما نهي عنه عمران بن حصين خاصة ، لأنه كان به ناصور ، وكان موضعه خطراً، فنهاه عن كيّه ، فيشبه أن يكون النهي منصرفاً إلى الموضع المخوف منه ، والله أعلم .[٤]

وفي ذلك ذكر ابن القيم عن أبي عبدالله المازري قال : " فإذا أعيا الدواء ، فآخر الطب الكي ، فقد ذكره – صلى الله عليه وسلم– في الأدوية ، لأنه يستعمل عند غلبة الطباع لقوى الأدوية ، وحيث لا ينفع الدواء المشروب . وأدلة النهي عن الكي فيها إشارة إلى أن يؤخر العلاج به حتى تدفع الضرورة إليه ، ولا يعجل التداوي به لما فيه من استعجال الألم الشديد في دفع ألم قد يكون أضعف من ألم الكي".[٥]

وعليه فإن تركه المتوكل على الله تعالى لورود النهي عن النبي – صلى الله عليه وسلم– ، وأيضًا لما جاء في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وهم المتوكلون والذين وصفهم أنهم لا يكتوون ، حيث قال – صلى الله عليه وسلم– : " هم الذين لا يسترقون ، ولا يتطيرون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون "[٦]، ولكن الترك لا لكونه سبباً كما يشير إليه الغزالي ، بل لكونه مكروهاً . وإن مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه ، غير قادح في التوكل ، فلا يكون تركه مشروعًا .

---

(١) زاد المعاد : (٤/٦٥) .

(٢) أخرجه الترمذي : في كتاب الطب ، باب ما جاء في كراهية التداوي الكي ، رقم (٢٠٤٩) ، وقال : حسن صحيح. وقال الألباني : حديث صحيح .

(٣) أخرجه مسلم : في كتاب الحج ، باب جواز التمتع ، رقم (١٢٢٦) .

(٤) انظر : زاد المعاد : (٤/٦٥).

(٥) المرجع السابق : (٤/٥٠-٥١) ، وانظر : التوكل على الله – حقيقته منزلته وفضله – د. سالم القرني ، ص١٩٥ ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، دار المجتمع – جدة .

(٦) أخرجه البخاري : في كتاب الطب ، باب من اكتوى أو كوى غيره ، وفضل من لم يكتوي ، رقم (٥٧٠٥) .

ثانيًا : الرقية :

الاسترقاء طلب الرقية . وهي العوذة . والجمع : رقى ، نقول : استرقيته فرقاني رقية ، فهو راق .(١)

والعوذة والمعاذة والتعويذ : الرقية يرقى بها الإنسان من فزع أو جنون .(٢)

و الرقية قسمان :

القسم الأول : رقية شرعية

وهي ما اجتمعت فيها شروط ثلاثة :

١- أن تكون بكلام الله تعالى وبأسمائه وصفاته .

٢- أن تكون باللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره .

٣- أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بإرادة الله تعالى .(٣)

ومما يدل على جواز الرقية الشرعية إذا توافرت فيها الشروط ما يأتي :

أولاً : فعله – صلى الله عليه وسلم- بنفسه : حيث ثبت عن النبي –صلى الله عليه وسلم- من حديث عائشة –رضي الله عنها- كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم- إذا أوى إلى فراشه نفث على كفيه بـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وبالمعوذتين جميعاً ، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده " (٤).

ثانياً : فعله – صلى الله عليه وسلم- بغيره : كما في حديث عائشة – رضي الله عنها- قالت : كان النبي – صلى الله عليه وسلم- يعوذ بعضهم ، يمسحه بيمينه : " أذهب الباس رب الناس، واشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاءً لا يغادر سقماً " (٥)

ثالثاً : أمره – صلى الله عليه وسلم- : كما جاء في حديث أم سلمة – رضي الله عنها- أن النبي – صلى الله عليه وسلم- رأى في بيتها جارية في وجهها

(١) انظر : لسان العرب ، مادة (رقى).

(٢) المرجع السابق : مادة (ع و ذ).

(٣) فتح الباري : (٢٠٦/١١) .

(٤) أخرجه البخاري : في كتاب الطب ، باب النفث في الرقية ، رقم (٥٧٤٨) .

(٥) أخرجه البخاري : في كتاب الطب ، باب مسح الراقي الوجع بيده اليمنى ، رقم (٥٧٥٠) .

سفعـــة [١] . فقـــال :" استرقوا لها فإن بها النظرة[٢] " [٣].

رابعاً : إقراره – صلى الله عليه وسلم- : كما في الحديث : " أن رهطاً مـــن أصـــحاب رسول الله انطلقوا في سفرة سافروهـــا ، حتى نزلوا بحي من أحياء العرب ، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم ، فلدغ سيد ذلك الحي ، فسعوا له بكل شيء ، لا ينفعه شيء ، فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا بكم لعله أن يكون عند بعضهم شيء ، فأتوهم ، فقـــالوا : يا أيها الرهـــط ، إن سيدنا لدغ فسعينا له بكل شيء ، لا ينفعه شيء ، فهل عند أحـــدكم شـــيء ؟ فقال بعضهم : نعم ، والله إني لراق، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا ، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلـــوا لنا جعلاً ، فصالحوهم على قطيع من الغنم ، فانطلق ، فأخـــذ يتفل ويقرأ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾حتى لكأنما نشط من عقال ، فانطلق يمشي ما به قَلَبَة [٤]، قال : فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه ، فقـــال بعضهم : أقسموا ، فقـــال الذي رقى : لا تفعلوا حتى نأتي رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فنذكر الذي كان ، فننظر ما يأمرنا ، فقدموا رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ، فذكروا له ، فقال : " وما يدريك أنهـــا رقيـــة ؟ أصبتم ، فأقسموا واضربوا لي معكم بسهم " [٥].

القسم الثاني : رقية ممنوعة

وهي ما فقـــدت شـــرطاً من شـــروط الرقيـــة الشرعيـــة الســـابق ذكـــــرها. وقـــد وردت أدلـــة على منعهـــا ، منهـــا ما جـــاء في الحديث :" كنا نرقي في الجاهلية ، فقلنـــا : يا رسول الله كيف ترى في ذلك ؟ فقال : " اعرضـــوا علي رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك " [٦].

---

(١) السفعة : أي علامة من الشيطان . وقيل : ضربة واحدة منه . انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٧٥/٢) .

(٢) النظرة : العين . انظر : النهاية في غريب الحديث : (٧٨/٥) .

(٣) أخرجه البخاري ، في كتاب الطب ، باب رقية العين ، رقم (٥٧٣٩) .

(٤) قلبة : أي ألم وعلة . انظر : النهاية في غريب الحديث : (٩٨/٤) .

(٥) أخرجه البخاري ، في كتاب الطب ، باب الرقى بفاتحة الكتاب ، رقم (٥٧٣٦) ، وأخرجـــه مســـلم ، في كتـــاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار ، رقم (٢٢٠١) .

(٦) أخرجه مسلم : في كتاب السلام ، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة ، رقم (٢٢٠٠).

فالتداوي بالرقى لا ينافي التوكل على الله تعالى ، فقد جعلها الله سبباً في دفع المكروهات ، وفعلها النبي- صلى الله عليه وسلم — وأصحابه ، ولا تقدح في التوكل إذا كان الاعتماد على الله تعالى لا على السبب ، أما إذا كان الاعتماد على السبب لذاته ، أو كانت الرقية غير شرعية فإن ذلك ينافي التوكل .

وللعلماء في مسألة الرقية من حيث أنها تنافي التوكل أو تقدح فيه ثلاثة أقوال :

القول الأول :

ذهب بعض العلماء إلى كراهية الرقية والكي من بين سائر الأدوية ، وزعموا أنهما قادحان في التوكل . وبوّب على ذلك الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه في كتاب الطب ، قال : باب "من لم يرق"، وعمدتهم في ذلك حديث ابن عباس في وصف السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة من غير حساب ولا عذاب .(1)

قال الحافظ ابن حجر : " فتمسك بهذا الحديث من كره الرقى والكي من بين سائر الأدوية ، وزعم أنهما تقدحان في التوكل دون غيرهما "(2).

القول الثاني :

ذهب بعضهم إلى خلاف ذلك ، وأنها لا تنافي التوكل ، ولا تقدح في كماله ، مستدلين بفعل النبي -صلى الله عليه وسلم- وقوله ، وتقريره ، الدال على جواز الرقية ، وأجابوا على استدلال الطائفة الأولى بهذا الحديث بعدة أجوبة ذكرها الحافظ ابن حجر :

- " أنه محمول على من جارى اعتقاد الطبائعيين في أن الأدوية تنفع بطبعها ، كما كان أهل الجاهلية يعتقدون ، أو أن : الرقى التي يحمد تركها ما كان من كلام الجاهلية ، ومن الذي لا يعقل معناه ؛ لاحتمال أن يكون كفرًا ، بخلاف الرقى بالذكر ونحوه . وقد نسب ابن حجر هذا القول للطبري والمازري .
- أن المراد بالحديث : الذين يجتنبون فعل ذلك في الصحة خشية وقوع الداء، وأما من يستعمل الدواء بعد وقوع الداء به فلا . ونسب ابن حجر هذا القول للداودي وابن قتيبة .

---

(١) سبق تخريجه ، ص ١٨٣

(٢) فتح الباري: (٢٢٢/١٠) .

- يحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المذكورين في الحديث من غفل عن أحوال الدنيا وما فيها من الأسباب المعدة لدفع العوارض ، فهم لا يعرفون الاكتواء ، ولا الاسترقاء ، وليس لهم ملجأ فيما يعتريهم إلا الدعاء ، والاعتصام بالله والرضا بقضائه ، فهم غافلون عن طب الأطباء ، ورقى الرقاة ، ولا يحسنون من ذلك شيئًا . والله أعلم . وهذا قول الحليمي .

- أن المراد بترك الرقى والكي ، الاعتماد على الله في دفع الداء والرضا بقدره ، لا القدح في جواز ذلك ؛ لثبوت وقوعه في الأحاديث الصحيحة وعن السلف الصالح ، لكن مقام الرضا والتسليم أعلى من تعاطي الأسباب . وإلى هذا نحا الخطّابي ومن تبعه .

قال ابن الأثير : هذا من صفة الأولياء المعرضين عن الدنيا وأسبابها وعلائقها . وهؤلاء هم خواص الأولياء "[١] .

وهذا الكلام ينبغي أن يحمل على ترك أسباب التداوي المكروهة ، لا ترك الأسباب بالكلية ، لأن تركها قدح في الشرع . كما أنه ليس في هذا الحديث ما يدل على ترك الأسباب البتة .

قال الشيخ سليمان ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب – رحمهما الله تعالى- : " اعلم أن هذا الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً ، كما يظنه الجهلة ، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري ، لا انفكاك لأحد عنه ، حتى الحيوان البهيم ، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] ، أي كافيه . إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة – مع حاجتهم إليها – توكلاً على الله ، كالاستقراء والاكتواء ، فتركهم له ليس لكونه سبباً لكن لكونه مكروهاً ، لاسيما والمريض يتشبث بما يظنه سبباً لشفائه ، بخيط العنكبوت . أما نفس مباشرة الأسباب و التداوي على وجه لا كراهية فيه ، فغير قادح في التوكل ، فلا يكون تركه مشروعاً ". [٢]

---

(١) فتح الباري : (٢٢٢/١٠) .

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، سليمان بن عبدالله بن عبدالوهاب ، ص١١١ ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٨هـ ، المكتب الإسلامي-بيروت .

القول الثالث :

ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ومن وافقه إلى التفريق بين فعل الرقية — سواء بنفسه أو بغيره — وبين طلبها . واحتج لذلك بأن لفظ الحديث ورد في معظم الروايات بلفظ (يسترقون) من الاستفعال ، وهو طلب الفعل ، أما ما ورد في الرواية التي عند مسلم (لا يرقون)[(١)] فقد قال شيخ الإسلام : " وهو غلط ، فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة ، وكان النبي – صلى الله عليه وسلم- يرقي نفسه وغيره ، ولم يكن يسترقي ، فإن رقيته نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره ، وهذا مأمور به " [(٢)]. ولأن الراقي محسن لأخيه ، فقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم- : " من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه " [(٣)].

والفرق بين الراقي والمسترقي أن المسترقي سائل مستعط ، ملتفت إلى غير الله بقلبه ، والراقي محسن نافع .[(٤)]

قال ابن التين : " الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله هو الطب الروحاني ، إذا كان على لسان الأبرار من الخلق ،حصل الشفاء بإذن الله تعالى . فلما عزّ هذا النوع فزع الناس إلى الطب الجسماني وتلك الرقى المنهي عنها التي يستعملها المعزم وغيره ممن يدعي تسخير الجن له ، فيأتي بأمور مشتبهة مركبة من حق وباطل ، يجمع إلى ذكر الله وأسمائه ما يشوبه من ذكر الشياطين والاستعانة بهم ، والتعوذ بمردهم " [(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم ، في كتاب الإيمان ، باب : الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ، رقم (٢٢٠) .

(٢) مجموع الفتاوى : (١/١٨٢) .

(٣) أخرجه مسلم ، في كتاب السلام ، باب استحباب الرقية من العين ، رقم (٢١٩٩) .

(٤) انظر : فتح الباري : (١١/٤١٦) .

(٥) المرجع السابق : (١٠/٢٠٧) .

الفصل السادس

الفصل السادس

المآخذ العقدية على كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

المبحث الأول : مفهوم المحبة والشوق والأنس والرضا عند السلف

المبحث الثاني : المآخـــذ العقدية على كتـــاب المحبة والشوق والأنس والرضا والرد عليها على ضوء عقيدة السلف

المبحث الأول

مفهوم المحبة والرضا عند السلف

المحبة هي المنــزلة التي فيها تنافس المتنافسون ، وإليها شخص العاملون ، وعليها تفانى المحبون ، فهي قوت القلوب ، وغذاء الروح ، وقرة العيون .

قال ابن القيم : "ولما كثر المدّعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة ، فقيل لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه ، فطولبوا بعدالة البينة بتزكية ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة : ٥٤] .

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون ، فقيل لهم إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم . فهلموا إلى بيعة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة : ١١١] .

فلما عرفوا عظمة المشتري ، وفضل الثمن ، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع عرفوا قدر السلعة ، وأن لها شأنًا ، فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس" .(١)

المحبة لغة :

الحب : الوداد ، والمحبة والحب نقيض البغض .(٢)

المحبة اصطلاحًا :

قال ابن القيم :" لا تحد المحبة بحد أوضح منها ، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء ، فحدها وجودها ، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة ".(٣)

---

(١) مدارج السالكين : (٣/٤٣٤-٤٣٥) .

(٢) لسان العرب : (١/٢٨٩) .

(٣) مدارج السالكين : (٣/٤٣٦) .

فالمحبة أصل الأعمال كلها ، وهي أصل الدين ، فالإنسان لا يعمل إلا لما يحب إما لجلب منفعة أو دفع مضرة . وعبادة الله مبنية على المحبة ، بل المحبة هي حقيقة العبادة ، بكمالها يكمل توحيد العبد ، وبنقصانها ينقص توحيد العبد .

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله – : محبة العبادة هي التذلل والتعظيم وأن يقوم بقلب الإنسان من إجلال المحبوب وتعظيمه ما يقتضي أن يمتثل أمره ويجتنب نهيه ، وهذه المحبة خاصة بالله فمن أحب مع الله غيره محبة عبادة فهو مشرك شرك أكبر ، ويعبر عنها العلماء بالمحبة الخاصة .(١)

والمحبة صفة من صفات الله تعالى الفعلية الثابتة بالكتاب والسنة . والسلف يثبتونها لله– عز وجل – كما وردت في الكتاب والسنة بدون تأويل ولا تعطيل .

والذي عليه سلف الأمة أن الله تعالى محبوب لذاته محبة حقيقية ، وهو سبحانه يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية .(٢)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " وإنكار محبة العبد لربه هو في الحقيقة إنكار لكونه إلهاً معبوداً ، كما أن إنكار محبته لعبده يستلزم إنكار مشيئته ، وهو يستلزم إنكار كونه رباً خالقاً ".(٣)

فمن لزم ما يرضي الله من امتثال أوامره واجتناب نواهيه لاسيما إذا قام بواجبها ومستحبها فإن الله يرضى عنه ، كما أن من لزم محبوبات الحق أحبه الله .

جاء في الحديث الصحيح الذي في البخاري : " من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإن أحببته ... " .(٤)

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد ، لابن عثيمين : (٤٤/٢) .

(٢) انظر : المرجع السابق : (١٣٥/١) .

(٢) مجموع الفتاوى : (٧٣/١٠) .

(٤) أخرجه البخاري : في كتاب الرقاق ، باب التواضع ، رقم (٦٥٠٢) .

وقد ذكر ابن القيم – رحمه الله – الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها ، منها :

- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به .
- التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض .
- دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل .
- إيثار محابه على محاب النفس عند غلبات الهوى .
- مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله – عز وجل – . [1]

الرضا لغة :

مصدر رضي يرضى ، وهو خلاف السخط .[2] والرضا نوعان :

النوع الأول :

الرضا بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه . ويتناول ما أباحه الله من غير تعد إلى المحظور. وهذا الرضا واجب .

والنوع الثاني :

الرضا بالمصائب : كالفقر والمرض والذل . فهذا الرضا مستحب في أحد قولي العلماء ، وليس بواجب ، وقد قيل : إنه واجب ، والصحيح أن الواجب هو الصبر .

وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان ، فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك ، فإن الله لا يرضاه . [3]

وقد ضل في باب المحبة والرضا فريق من الناس ، فمنهم من نفاها ومنهم من أولها بالإرادة . وسيأتي بيان ذلك في المبحث الثاني .

---

(١) انظر : مدارج السالكين : (٤٤٨/٣-٤٤٩) .

(٢) انظر : لسان العرب : (٣٢٤/١٤) .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى : (٦٨١/١٠) .

المبحث الثاني

المآخذ العقدية على كتاب المحبة والأنس والشوق والرضا
والرد عليها على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

يعد الغزالي أشعري المعتقد يثبت من الصفات سبعاً ويؤول بقية الصفات ، فهو ينكر تعلق صفة المحبة بالله تعالى ويؤولها بالإرادة .

المسألة الأولى :

قال الغزالي في بيان معنى المحبة : " عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم ، وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها ، فتستفيد بنيله كمالاً فتلتذ بنيله ، وهذا محال على الله تعالى .

ثم بين مفهوم محبة الله للعبد فقال : وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ، ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ، وإلى تمكينه إياه من القرب منه ، وإلى إرادته ذلك به في الأزل ، فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضى له .

ثم ذكر الغزالي – رحمه الله – أن تقرب العبد إلى ربه بالنوافل سبب لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله على درجة القرب من ربه . فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به ، فهو معنى حبه " (١).

ثم قال أيضًا : " محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه ، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ، ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه .

وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى إدراك هذا الكمال الذي هو مفلس عنه ، فاقد له ، فلا جرم يشتاق إلى ما فاته ، وإذا أدرك منه شيئًا يلتذ به ، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى " (٢).

---

(١) إحياء علوم الدين : (٥/٤٤) .

(٢) المرجع السابق : (٥/٤٥) .

التعليق :

بادئ الأمر لا بد أن نعرف أن منهج السلف في المحبة هو الكتاب والسنة ، فإن محبة الله - عز وجل - ومحبة رسوله - صلى الله عليه وسلم - من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده ، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان .

فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة . وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله- عز وجل- إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة لا يكون عملاً صالحًا.

فإن الله - عز وجل - لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه . قال تعالى : ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر : ١-٣] .

وثبت في الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " يقول الله تعالى : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك " [(١)].

فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله ، وهو إرادة الله وحده ، فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته ، وهذا كمال المحبة .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] . وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة : ٢١] .

فالعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته ، وكمال الذل ونهايته .[(٢)]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

" والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وجميع مشايخ الدين المتبعون ، أن الله — سبحانه — محبوب لذاته محبة حقيقية ، بل هي أكمل محبة ،

(١) أخرجه مسلم : في كتاب الزهد والرقائق ، باب من أشرك في عمله غير الله ، رقم(٢٩٨٥) .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى : (١٠/٤٨-٤٩و٥٦) .

فإنها كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وكذلك هو –سبحانه– يحب عباده المؤمنين محبة حقيقية "[1]. قال تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] وقال تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥].

ولكن جاءت طائفة من الصوفية المتكلمين أنكروا أن يكون الله مُحِبًا في الحقيقة ، فأقروا بكونه محبوبًا ومنعوا كونه مُحِبًا . والذين أنكروا محبة الله عبده قسمين :
– قسم يتأولونها بنفس المفعولات التي يحبها العبد فيجعلون محبته نفس خلقه .
– وقسم يجعلونها نفس إرادته لتلك المفعولات .[2]

وعلى العموم فإن الناس في أصل المحبة على ثلاثة أقوال ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية :
" القول الأول : أن الله تعالى يُحِب ويُحَب ، كما قال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤]فهو المستحق أن يكون له كمال المحبة دون سواه ، وهو سبحانه يحب ما أمر به ، ويحب عباده المؤمنين ، ويحب دينه ويحب شرعه ، وهذا قول سلف الأئمة وأئمتها .
القول الثاني : أنه يستحق أن يُحَب لكنه لا يُحِب إلا بمعنى أن يريد ، وهذا قول كثير من المتكلمين ومن وافقهم من الصوفية .
القول الثالث : أنه لا يُحِب ولا يُحَب وإنما محبة العباد له إرادتهم وطاعته وهذا قول الجهمية ومن وافقهم من متأخري أهل الكلام " [3].

والغزالي –رحمه الله– يرى أن المحبة ميل النفس إلى موافق ملائم ، وأن هذا لا يتصور إلا في نفس ناقصة ، وأن هذا محال على الله تعالى .

---

(١) مجموع الفتاوى : (٦٦/١٠) ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل : (٦٢/٦) .
(٢) انظر : مجموع الفتاوى : (٧٤/١٠-٧٥) .
(٣) شرح العقيدة الأصفهانية ، ابن تيمية ، ص٣٥ ، وانظر : مدارج السالكين : (٤٥١/٣) .

وقد ذكر شيخ الإسلام بن تيمية قول الذين فسروا المحبة بالإرادة لاعتبارهم أن المحبة تقتضي ملاءمة ومناسبة بين المحب والمحبوب ثم ردّ عليهم من وجهين حيث قال :

" فإن قيل : المحبة والرضا يقتضيان ملاءمة ومناسبة بين المحب والمحبوب ويوجب للمحب بدرك محبوبه فرحًا ولذّة وسرورًا ، وكذلك البغض لا يكون إلا عن منافرة بين المبغض والمبغض ، والملاءمة والمنافرة تقتضي الحاجة ، إذ ما لا يحتاج الحي إليه لا يحبه ، وما لا يضره كيف يبغضه، والله غني لا تجوز عليه الحاجة ، إذ لو جازت عليه الحاجة للزم حدوثه وإمكانه وهو غني عن العالمين ، وقد قال تعالى- في الحديث القدسي- :" يا عبادي ، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني " [1]. فلهذا فسرت المحبة والرضا بالإرادة إذ يفعل النفع والضر .

فيقال الجواب من وجهين :

الوجه الأول :

الإلزام ، وهو أن نقول : الإرادة لا تكون إلا للمناسبة بين المريد والمراد ، وملائمته في ذلك تقتضي الحاجة ، وإلا فما لا يحتاج إليه الحي لا ينتفع به ولا يريده .

فإذا كان الذي يثبت صفة وينفي أخرى يلزمه فيما أثبته نظير ما يلزمه فيما نفاه ، لم يكن إثبات إحداهما ونفي الأخرى أولى من العكس ، ولو عكس عاكس فنفى ما أثبته من الإرادة وأثبت ما نفاه من المحبة لِمَا ذكره لم يكن بينهما فرق ، وحينئذٍ فالواجب إما نفي الجميع ولا سبيل إليه للعلم الضروري بوجود نفع الخلق والإحسان إليهم وإن ذلك يستلزم الإرادة ، وإما إثبات الجميع كما جاءت به النصوص ، وحينئذٍ فمن توهم أنه يلزم من ذلك محذور فأحد الأمرين لازم ، إما أن ذلك المحذور لا يلزم أو أنه إن لزم فليس بمحذور .

الوجه الثاني :

إن الذي يُعلم قطعًا هو أن الله قديم واجب الوجود كامل ، وأنه لا يجوز عليه الحدوث ولا الإمكان ولا النقص ، لكن كون هذه الأمور التي جاءت بها النصوص مستلزمة للحدوث والإمكان أو النقص هو موضع النظر ، فإن الله غني واجب بنفسه ، وقد عرف أن قيام الصفات به لا يلزم حدوثه ولا إمكانه ولا حاجته . وأن قول القائل بلزوم افتقـــاره إلى صفاته اللازمة ،

(١) أخرجه مسلم : في كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم ، رقم(٢٥٧٧) .

بمنـــزلة قوله مفتقر إلى ذاته ، ومعلوم أنه غني بنفسه ، وأنه واجب الوجود بنفسه ، وأنه موجود بنفسه ، فتوهم حاجة نفسه إلى نفسه ، إن عنى به أن ذاته لا تقوم إلا بذاته فهذا حق ، فإن الله غني عن العالمين وعن خلقه ، وهو غني بنفسه " [١].

(١) مجموع الفتاوى : (١١/٣٥٧-٣٥٩) .

المسألة الثانية :

قول الغزالي : " وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الاستهتار[١] الذي يسمى عشقًا، فذلك ينفك عنه الأكثرون . وقال : ومعنى العشق : المحبة المفرطة القوية " [٢].

وقال في موطن آخر : " العشق التام الكامل : ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب ، حتى لا يترك فيه متسعًا لغيره . فمحب الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك " [٣].

التعليق :

إن لفظ العشق من الألفاظ التي منع السلف من استعمالها في حق الله تعالى لكونه – عز وجل – لم يطلقه على نفسه ، ومنع أيضًا من أن يوصف بها العبد في محبة ربه .

قال الإمام الطحاوي : " والمحبة مراتب منها : العشق ، وهو الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه ، ولكن لا يُوصف به الرب تعالى ولا العبد في محبة ربه ، وإن كان قد أطلقه بعضهم " [٤].

ثم ذكر أسباب المنع من إطلاق لفظ العشق على الله تعالى فقال :

منها : عدم التوقيف ، ومنها : أن العشق محبة مع شهوة .[٥]

فالعشق مرض نفساني ، وإذا قوي أثّر في البدن فصار مرضًا في الجسم . فإن العاشق يضره اتصاله بالمعشوق مشاهدة وملامسة وسماعًا ، بل ويضره التفكر فيه والتخيل له وهو يشتهي ذلك ، فإن مُنع من مشتهاه تألم وتعذب ، وإن أُعطي مشتهاه قوي مرضه ، وكان سببًا لزيادة الألم .[٦]

---

(١) استهتر : فتن به ولزمه غير مبالٍ بنقد ولا موعظة . انظر : المعجم الوسيط ، ص٩٧١ .

(٢) إحياء علوم الدين : (٢٩/٥) ، وانظر : مكاشفة القلوب ، للغزالي ، ص٣١ ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ ، المكتبة العصرية – بيروت .

(٣) إحياء علوم الدين : (١٦٧/٥) .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ، ص١٦٥ .

(٥) انظر : المرجع السابق ، ص١٦٥ .

(٦) انظر : مجموع الفتاوى : (١٢٩/١٠–١٣٠) ، وروضة المحبين ونزهة المشتاقين ، ابن القيم الجوزية ، ص٩٤ ، تحقيق : سمير مصطفى ، ١٤٢٢هـ ، المكتبة العصرية – بيروت .

قال ابن تيمية – رحمه الله – : " والناس في العشق على قولين :
قيل : إنه من باب الإرادات ، وهذا هو المشهور .
وقيل : من باب التصورات ، وإنه فساد في التخييل ، حيث يتصور المعشوق على ما هو به ، قال هؤلاء : ولهذا لا يوصف الله بالعشق ، ولا أنه يعشق ، لأنه منزه عن ذلك ، ولا يحمد من يتخيل فيه خيالاً فاسدًا " [١].

وبين ابن تيمية –رحمه الله – العلة من منع إطلاق لفظ العشق على الله فقال :
" والعشق مذموم مطلقًا لا يمدح لا في محبة الخالق ، ولا المخلوق ، لأنه المحبة المفرطة الزائدة على الحد المحمود ، وأيضًا فإن لفظ العشق إنما يستعمل في العُرف في محبة الإنسان لامرأة أجنبية أو صبي ، وهو مقرون كثيرًا بالفعل المحرم ، لا يستعمل في محبة كمحبة الأهل والمال والوطن والجاه، ومحبة الأنبياء والصالحين " [٢].

وقال ابن الجوزي قول القائل : " إن الله – عز وجل– يُعشق ": هذا جهل من عدة أوجه :
" أحدها : من حيث الاسم فإن العشق عند أهل اللغة لا يكون إلا لما ينكح .
والثاني : أن صفات الله – عز وجل– منقولة فهو يُحَب ولا يقال يُعشَق ويُحِب ولا يقال يَعشَق كما يقال يَعْلم " [٣].

وقال ابن القيم : " والصواب أن يقال : إطلاقه متوقف على السمع ، ولم يَرِد به ، فلا ينبغي إطلاقه ، فإنه لّما لم يَرِد به سمع فإنه يمتنع إطلاقه عليه سبحانه . واللفظ الذي أطلَقه سبحانه على نفسه وأخبر به أتم من هذا وأجل شأنًا وهو لفظ المحبة " [٤].

---

(١) مجموع الفتاوى : (١٣١/١٠) .
(٢) المرجع السابق : (١٣١/١٠) .
(٣) تلبيس إبليس ، ص١٦٥ .
(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ابن القيم الجوزية ، ص ٥٩٤ ، تحقيق : يوسف علي بديوي ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٠هـ ، دار ابن كثير – بيروت .

الفصل السابع

الفصل السابع

المآخذ العقدية على كتاب النية والإخلاص والصدق

المبحث الأول : مفهوم النية والإخلاص والصدق عند السلف.

المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب النية والإخلاص والصدق والرد عليها على ضوء عقيدة السلف.

المبحث الأول

مفهوم النية والإخلاص والصدق عند السلف

النية في اللغة : من القصد والإرادة .[١]

والنية في كلام العلماء كما ذكر ابن تيمية تقع بمعنيين :

" أحدهما : بمعنى تمييز العبادات بعضها عن بعض ، كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر مثلاً .
الثاني : بمعنى تمييز المقصود من العمل ، وهل هو الله وحده لا شريك له ، أم غيره ، أم الله وغيره "[٢].

والهمة إذا كانت عالية ، تعلقت بالله وحده دون غيره ، وإذا كانت النية صحيحة ، سلك العبد الطريق الموصلة إليه ، فالنية تُفرِد له الطريق ، والهمة تُفرِد له المطلوب ، فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة إليه ، كان الوصول غايته .[٣]

وفي الحديث عن عمر – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه "[٤].

قال ابن القيم : " وأصل أعمال القلوب كلها الصدق وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب ، فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق ، وكل عمل فاسد ظاهر

---

(١) انظر : المعجم الوسيط ، مادة : نوى ، ص ٩٦٥

(٢) مجموع الفتاوى : (١٨/٢٥٥-٢٥٦) .

(٣) انظر : الفوائد ، لابن القيم ، ص ٣٢٥

(٤) أخرجه البخاري : في كتاب الإيمان ، باب الإيمان ، وقول النبي " بني الإسلام على خمس " ، رقم(١) ، وأخرجه مسلم : في كتاب الإمارة ، باب قوله – صلى الله عليه وسلم – : " إنما الأعمال بالنية " ... ، رقم(١٩٠٧) .

أو باطن فمنشؤه الكذب " . [١]

والإخلاص لغة : مصدر أخلص يُخلص وهو مأخوذ من مادة (خ ل ص) التي تدل على تنقية الشيئ وتهذيبه . [٢]

وهو قصد التقرب إلى الله تعالى وتخليصه من جميع ما يشوبه . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " قال الله – تبارك وتعالى – : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه " [٣]. [٤]

والإخلاص يكون في التوحيد وفي النية والعبادات والأقوال . وقد جاء الأمر بالإخلاص في القرآن الكريم : قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر : ٢-٣]، وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر : ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] .

وعندما سئل الفضيل بن عياض عن العمل الحسن قال : أخلصه وأصوبه . فإن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ،حتى يكون خالصًا صوابًا . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة . [٥]

---

(١) الفوائد ، لابن القيم ، ص ٣٠٩

(٢) انظر : مفردات الراغب ، ص ١٥٤

(٣) سبق تخريجه ، ص ١٩٥ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى : (١٠/٥٥-٥٦) .

(٥) المرجع السابق : (١٠/٣١٨) .

المبحث الثاني

المآخذ العقدية على كتاب النية والإخلاص والصدق

والرد عليه على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

إن العمل الصالح لا بد له من إخلاص لله – عز وجل –، ومتابعة للنبي – صلى الله عليه وسلم– ، فإذا فقد أحد الشرطين لم يكن صالحًا .

وقد ذكر الغزالي – رحمه الله – في هذا الكتاب أن الطاعات مرتبطة بالنيات في أصل صحتها . وفي تضاعف فضلها وذلك بكثرة النيات الحسنة .

فالأعمال إما طاعات أو معاصي أو مباحات . والطاعة إذا نوى بها عبادة الله وحده صحّ له العمل .

ثم ضرب مثالاً لمضاعفة الأعمال تبعًا للنية الحسنة فقال : " القعود في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين". [1]

وذكر جملة من تلك الأعمال في المسجد فقال : "الترهب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات"[2].

واستدل بحديث روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم– : " رهبانية أمتي القعود في المساجد ". [3]

ومن تلك الأعمال أيضًا كما قال : " عكوف الهم على الله ولزوم السير للفكر في الآخرة ، ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد" .[4]

---

(١) إحياء علوم الدين : (٩٦/٥) .

(٢) المرجع السابق : (٩٦/٥) .

(٣) قال الحافظ العراقي : لم أجد له أصلاً ، انظر المغني عن حمل الأسفار ، بذيل الإحياء : (٩٧/٥) .

(٤) إحياء علوم الدين : (٩٧/٥) .

التعليق :

قد سبق أن عبادة الله تعالى لا تتم إلا بتحقيق أصلين عظيمين هما : الإخلاص والمتابعة . فقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم– :" قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك " [(١)]. فأي عبادة يقصد بها التقرب إلى الله تعالى إن لم توافق الشرع ، فإنها سبيل الشيطان .

والغزالي – رحمه الله – يربط طريق الوصول إلى الله تعالى بالزهد في الدنيا وقطع العلائق، وذلك عن طريق العزلة . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في كتاب الفقر والزهد .

وهو هنا إذ يتحدث عن صلاح النية ومضاعفة الطاعات بصحة النيات فإنه يضرب مثالاً للترهب في المساجد . مستدلاً بحديث لا أصل له : " رهبانية أمتي القعود في المساجد " [(٢)].

ويرجع ذلك لما قررناه سابقًا من استناد الغزالي – رحمه الله – على الأحاديث الضعيفة وما لا أصل له ، مما لا يصح الاعتماد عليه .

وهنا سأعرض مفهوم الرهبانية ونظرة الإسلام لها ، لتوضيح الخطأ الذي وقع فيه الغزالي .

الرهبانية : هي المبالغة في العبادة بالانقطاع عن الناس وترك الدنيا ولذاتها من النساء وغير ذلك ، وأصل معناها الفعلة المنسوبة إلى الرّهبان وهو الخائف ، من رهب ، كخشيان من خشي[(٣)] ، فالدافع إلى الرهبانية الخوف والخشية من الله سبحانه .

وقد ابتدع النصارى هذه الرهبانية بقصد التقرب إلى الله – عز وجل – فرفضوا الزواج بالنساء واتخذوا الصوامع ، ولكنهم لم يحافظوا على مقتضياتها من ذكر وعبادة وعفة ، وإنما أصبحت طقوسًا وشعائر خالية من الروح . وقد قال الله تعالى مخبرًا عنهم : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٧] .

---

(١) أخرجه أحمد : (١٢٦/٤) ، وأخرجه ابن ماجه ، في كتاب المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين ، رقم (٤٣) . قال الألباني : حديث صحيح .

(٢) سبق تخريجه : ص ٢٠٥

(٣) انظر : لسان العرب : (٤٣٧/١) .

ومن ذلك يتبين أن كل دعوة لا تستقيم مع فطرة الإنسان لا يمكن أن تستمر ولا بد لها من انحراف ، والإسلام دين الفطرة ، ومنهجه ، يعتمد على تقويم الغرائز وتوجيهها وليس على تعطيلها .[(١)]

قال ابن تيمية – رحمه الله – : " وهذه البدع يذم أصحابها ، ويعرف أن الله لا يتقبلها ، وإن كان قصدهم بها العبادة ، كما أنه لا يقبل عبادة الرهبان ، ونحوهم ممن يجتهدون في الزهد والعبادة لأنهم لم يعبدوه بما شرع ، بل ببدعة ابتدعوها " [(٢)].

وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " [(٣)].

وعندما عزم بعض الصحابة على الترهب نزل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾ [المائدة : ٨٧-٨٨] .[(٤)]

فقد نهى الشرع عن التشدد في الدين بالزيادة على المشروع ، مثل ما كان عليه النصارى . فقد قال ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : " والأحاديث الموافقة لهذا كثيرة في بيان أن سنته التي هي الاقتصاد – في العبادة ، وفي ترك الشهوات – خير من رهبانية النصارى ، التي هي ترك عامة الشهوات من النكاح وغيره ، والغلو في العبادات صومًا وصلاة " [(٥)].

وبهذا الاعتبار فإن النية تكون صحيحة إذا كان العمل المنوط بها صحيحًا على منهج الشرع، بعيدًا عن أي منهج مبتدع .

---

(١) انظر : منهج الإسلام في تزكية النفس ، د. أنس كرزون ، ص٥٥٤ ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٨هـ ، دار ابن حزم–بيروت .
(٢) مجموع الفتاوى : (٦١٦/١١) .
(٣) أخرجه البخاري ، في كتاب الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، رقم (٢٦٩٧) .
(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير : (١٣٩/٢) .
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم : (٣٢٥/١) .


الفصل الثامن

الفصل الثامن

المآخذ العقدية على كتاب المراقبة والمحاسبة وكتاب التفكر

المبحث الأول : مفهوم المراقبة والمحاسبة عند السلف.

المبحث الثاني : المآخذ العقدية على كتاب المراقبة والمحاسبة والرد عليها على ضوء عقيدة السلف.

المبحث الثالث : مفهوم التفكر عند السلف.

المبحث الرابع : المآخذ العقدية على كتاب التفكر

المبحث الأول

مفهوم المراقبة والمحاسبة عند السلف

المراقبة لغة :

قال ابن منظور : راقب الله تعالى في أمره أي خافه . وارتقبه انتظره ورصده .وفي أسماء الله الحسنى (الرقيب) وهو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيئ . [(١)]

المراقبة اصطلاحًا:

قال ابن القيم الجوزية : " المراقبة دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق - سبحانه وتعالى- على ظاهره وباطنه " [(٢)].

وقال الشاعر :

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل

خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبنّ الله يغفل ساعة

ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب

وأن غدًا للناظرين قريب

ومراقبة النفس ومحاسبتها أمرٌ عظيم ، ولا تصلح النفس إلا بها . ومحاسبة النفس طريقة المؤمنين وسمة الموحدين وعنوان الخاشعين ، فالمؤمن متقٍ لربه محاسب لنفسه مستغفر لذنبه .

ومحاسبة النفس نوعان نوع قبل العمل ، ونوع بعده .

فأما النوع الأول : فهو أن يقف عند أول همه وإرادته ، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه .

---

(١) انظر : لسان العرب : (٤٢٤/١-٤٢٦) .

(٢) مدارج السالكين : (٢٦٨/٢) .

قال الحسن – رحمه الله – : رحم الله عبدًا وقف عند همه ، فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخر .

النوع الثاني : محاسبة النفس بعد العمل ، كمحاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى .[1]

وينبغي أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره فإن كان محمودًا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه ، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن ، وانتهى عن مثله في المستقبل.

قال ابن القيم – رحمه الله – : " قد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ [الحشر : ١٨] .

أي لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال : أَمِنَ الصالحات التي تنجيه ، أم من السيئات التي توبقه . والمقصود : أن صلاح القلب بمحاسبة النفس ، وفساده بإهمالها والاسترسال معها " [2].

(١) انظر : تزكية النفوس ، ص٧٦ .

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، لابن القيم : (١٠١/١) ، دار المعرفة – بيروت .

المبحث الثاني
المآخذ العقدية على كتاب المراقبة والمحاسبة
والرد عليه على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

يرى الغزالي -رحمه الله تعالى- ضرورة محاسبة النفس وصدق المراقبة ، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات ، حيث يقول :

" فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآبه . ومن لم يحاسب نفسه دامت حسرته ، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته ".[١]

وهذا الكلام حق في أصله ، فإننا مأمورون بمحاسبة النفس ، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : " الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ".[٢]

وروي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : " حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وتزينوا للعرض الأكبر ".[٣]

وعندما نزلت الآية : ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٤]، اشتد ذلك على الصحابة -رضي الله عنهم- ، وخافوا منها ، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وأورد الطبري في تفسيره عن مجاهد قال : إن هذه الآية ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ حين أنزلت غَمَّت أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم-

(١) إحياء علوم الدين : (١٢٤/٥) .

(٢) أخرجه الترمذي : في كتاب صفة القيامة ، رقم (٢٤٥٩) ، وقال هذا حديث حسن .

(٣) أخرجه الترمذي : في كتاب صفة القيامة ، رقم (٢٤٥٩) .

غمًّا شديدًا وقالوا : يا رسول الله، هلكنا ! فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : قولوا: "سمعنا وأطعنا"، فنسختها : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) إلى قوله : (وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) فَتُجُوِّز لهم منْ حديث النفس، وأُخِذوا بالأعمال[(١)].

وقد أورد الطبري أقوالاً عدة في تفسير الآية ولكنه اختار منها الآتي ، حيث قال : " وأولى الأقوال التي ذكرناها بتأويل الآية قول من قال : " إنها محكمة ، وليست بمنسوخة "، وذلك أن النسخ لا يكون في حكم إلا بنفيه بآخر، هو له ناف من كل وجوهه . وليس في قوله -عز وجل- : " لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت " ، نفي الحكم الذي أعلم عبادَه بقوله : " أو تخفوه يحاسبكم به الله " . لأن المحاسبة ليست بموجبة عقوبةً ، ولا مؤاخذةً بما حوسب عليه العبد من ذنوبه ". [(٢)]

قال ابن تيمية -رحمه الله تعالى- : " قال كثير من السلف و الخلف إنها منسوخة بقوله (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) كما نقل ذلك عن ابن مسعود و أبي هريرة وابن عمر وابن عباس في رواية عنه وقتادة وآخرين .

ونقل عن آخرين أنها ليست منسوخة بل هي ثابتة في المحاسبة على العموم فيأخذ من يشاء ويغفر لمن يشاء كما نقل ذلك عن ابن عمر وغيره . قالوا هذا خبر ، والأخبار لا تنسخ .

وفصل الخطاب : أن لفظ النسخ مجمل فالسلف كانوا يستعملونه فيما يظن دلالة الآية عليه من عموم أو إطلاق أو غير ذلك". [(٣)]

لذا ينبغي عند محاسبة النفس الرجوع إلى منهج النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحابته -رضوان الله عليهم- ، فقد كانوا أحرص الناس في تتبع أمور دينهم ، وفيما يرضي الله عنهم ، والوقوف على منهج الشرع القويم في محاسبة النفس .

وهناك من خالف هذا المنهج وخلطوا بين ما عليهم من حق لله ، وبين ما لهم من الأمور

---

(١) أخرجه البخاري ، في كتاب التفسير ، باب (وإن تبدوا ما في أنفسكم) ، رقم (٤٥٤٥) ، وانظر : تفسير الطبري : (٦ / ١٠٧ – ١٠٨) ، وتفسير القرآن العظيم ، لابن كثير : (١/٥٠٥) .

(٢) تفسير الطبري : (٦ / ١١٨) .

(٣) مجموع الفتاوى : (١٤ / ١٠٠ – ١٠١) .

الشرعية المباحة ، فمنهم من تعبد بترك النكاح ، أو ترك اللحم ، ومنهم من تعبد بالعزلة والكشف ظناً منهم أنها توصلهم إلى رب العالمين .

وقد أوضح ابن القيم -رحمه الله تعالى- ذلك فقال : " من أركان المحاسبة : أن تُميز ما للحق عليك من وجوب العبودية ، والتزام الطاعة ، واجتناب المعصية . وبين ما لك وما عليك. فالذي لك هو المباح الشرعي ؛ فعليك حق ، ولك حق ، فأدّ ما عليك يؤتك ما لك .

ولا بد من التمييز بين مالك وما عليك ، وإعطاء كل ذي حق حقه . وكثير من الناس يجعل كثيراً مما عليه من الحق من قسم ما له ؛ فيتحير بين فعله وتركه ، وإن فعله رأى أنه فضل قام به لا حق أداه .

وبإزاء هؤلاء من يرى كثيراً مما له فعله وتركه من قسم ما عليه فعله أو تركه . فيتعبد بترك ما له فعله ، كترك كثير من المباحات ، ويظن ذلك حقاً عليه . أو يتعبد بفعل ما له تركه ويظن ذلك حقاً عليه " [1].

ثم ذكر ابن القيم أمثلة على ذلك فقال : " مثال الأول : من يتعبد بترك النكاح ، أو ترك أكل اللحم ، أو الفاكهة مثلاً ، أو الطيبات من المطاعم والملابس . ويرى — لجهله — أن ذلك مما عليه ؛ فيوجب على نفسه تركه، أو يرى تركه من أفضل القرب ، وأجل الطاعات . وقد أنكر النبي -صلى الله عليه وسلم- على من زعم ذلك ، فتبرأ ممن رغب عن سنته ، وتعبد لله بترك ما أباحه لعباده من الطيبات ، رغبة عنه ، واعتقاداً أن الرغبة عنه وهجره عبادة . فهذا لم يميز بين ما عليه وما له .

ومثال الثاني : من يتعبد بالعبادات البدعية التي يظنها جالبة للحال ، والكشف والتصرف . ولهذه الأمور لوازم لا تحصل بدونها البتة ؛ فيتعبد بالتزام تلك اللوازم فعلاً وتركاً ، ويراها حقاً عليه ، وهي حق له ، وله تركها .كفعل الرياضات ، والأوضاع التي رسمها كثير من السالكين بأذواقهم ومواجيدهم واصطلاحاتهم ،من غير تمييز بين ما فيها من حظ العبد والحق الذي عليه"[2].

---

(١) مدارج السالكين : (٣٢٥/١) .

(١) المرجع السابق : (٣٢٥/١-٣٢٧) .

مسـألة :

والإمام الغزالي -رحمه الله تعالى- عندما شدد على المحاسبة والمراقبة كان أساس ذلك نابعاً من نظرته لبغض الدنيا والزهد فيها -كما سبق في كتاب الزهد - ، فإنه يرى ضرورة محاسبة النفس بمنعها وتأديبها تبعاً للفعل الذي قصّرت فيه ، حيث يقول : " إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية ، فينبغي أن يعاقبها ... وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ، ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات منه ، وتداركاً لما فرط ، فهكذا كان يعمل عمّال الله تعالى " . [١]

وقال الغزالي أيضًا: " فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ، ومطالعة أخبارهم وما كانوا عليه من الجهد ... وما أشد حسرة من لا يقتدي بهم " . [٢]

وأما العقوبات التي أشار إليها الغزالي فإنه قد أورد في معاقبة النفس على تقصيرها قصصاً للسالكين ، سأورد بعضاً منها للتعليق عليها :

قال الغزالي : " روي عن أحدهم أن رجلاً من العبّاد كلّم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ، ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست ...

وحكي عن رجل من بني إسرائيل كان يتعبد في صومعته زماناً طويلاً ثم أشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافتتن بها فأخرج رجله لينزل إليها ، فرجعت إليه نفسه وندم ، ولم يعد رجله داخل الصومعة ، وتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلوج والشمس ، حتى تقطعت فسقطت ...

ويحكى أن أحدهم قد تكشفت له جارية ، فنظر إليها ، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت.
وبعضهم جعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طوال حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش لأنه نظر نظرة واحدة إلى امرأة ."[٣]

---

(١) إحياء علوم الدين : (١٤٢/٥) .

(٢) المرجع السابق : (١٤٢/٥) .

(٣) المرجع السابق : (١٤٠/٥) .

وأيضاً روى الغزالي من حكاياتهم فقال : " يحكى عن أحدهم أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد ، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع .

ومنهم من أنكر شيئاً على نفسه ، فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ، ثم جعل يقول لنفسه : ويحك ، إنما أريد بك الخير ".(١)

وأورد الغزالي قال : وعن طلحة رضي الله عنه : انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرّغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه : ذوقي ونار جهنم أشد حراً ، أجيفة بالليل بطالة بالنهار ؟ فبينما هو كذلك إذ أبصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة ، فأتاه فقال : غلبتني نفسي . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " ألم يكن لك بُدٌّ من الذي صنعت ، أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة " ثم قال لأصحابه : " تزودوا من أخيكم " ، فجعل الرجل يقول له : يا فلان ادع لي ، يا فلان ادع لي ، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- : " عُمهم " ، فقال : اللهم اجعل التقوى زادهم ، واجمع على الهدى أمرهم . فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " اللهم سدده " ، فقال الرجل : اللهم اجعل الجنة مآبهم . (٢)

قال الحافظ العراقي : حديث طلحة بطوله عند ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من رواية ليث بن أبي سليم عنه ، وهذا منقطع أو مرسل ، ولا أدري من طلحة هذا . (٣)

وكان أحدهم يجتهد في العبادة ، ويصوم في الحر ، حتى يخضر جسده ويصفر ، فكانوا يقولون له : لم تعذب نفسك ؟ فيقول : كرامتها أريد . وكان يصوم حتى يخضر جسده ، ويصلي حتى يسقط . فدخل عليه أنس بن مالك والحسن ، فقيل له : إن الله -عز وجل- لم يأمرك بكل هذا . فقال : إنما أنا عبد مملوك ،لا أدع من الاستكانة شيئاً إلا جئت به.(٤)

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين : (٥/١٤٠-١٤١) .

(٢) المرجع السابق : (٥/١٤٠-١٤١) .

(٣) المغني عن حمل الأسفار ، بذيل الإحياء : (٥/١٤٠) .

(٤) إحياء علوم الدين : (٥/١٤٤) .

التعليق :

المأخذ على الغزالي في هذه المسألة : أنه يرى أن من محاسبة النفس تعذيبها مستدلاً بالروايات السابقة التي ليس لها أصل في الكتاب والسنة وفعل السلف . ويمكن التعليق على النحو التالي :

أولاً : هذه الأعمال والطريقة التي أشار إليها الإمام الغزالي في ذكر قصص القوم من تعذيبهم لأنفسهم لم ترد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- و لم يفعلها صحابته -رضوان الله عليهم- ، بل إنه - عليه الصلاة والسلام- صرف وجه الفضل عندما كان ينظر إلى المرأة ، فعن ابن عباس -رضي الله عنه- : " كان الفضل رديف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه ، وجعل النبي- صلى الله عليه وسلم- يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر " .[1]

وعن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال لعلي -رضي الله عنه- : " يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة"[2]

والشاهد أنه لم يضطر إلى إيذاء عينه أو نحو ذلك . بل إن المؤمن مأمور بحفظ البدن عن كل ما يضر به ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

وقال -صلى الله عليه وسلم- : " إن لجسدك عليك حقاً " [3]

وقال - عليه الصلاة والسلام- لمن نذر أن يمشي ولا يركب ، أو ألا يقعد أو يستظل : " إن الله لغني عن تعذيب هذا نفسه " [4].

فطريق المصطفى -صلى الله عليه وسلم- العلم والعمل والتلطف بالبدن . [5]

---

(١) أخرجه البخاري : في كتاب الحج ، باب وجوب الحج وفضله ، رقم (١٥١٣) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند : (٣٥٣/٥) ، رقم الحديث (٢٣٠٤).

(٣) أخرجه البخاري : في كتاب الصوم ، باب حق الجسم في الصوم ، رقم (١٩٧٥).

(٤) أخرجه البخاري : في كتاب الإيمان والنذور/ باب فيمن يحلف بالمشي ولا يستطيع ، وأخرجه الترمذي : في كتاب الإيمان والنذور ، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية ، رقم الحديث (٦٧٠١) .

(٥) انظر : صيد الخاطر ، لابن الجوزي ، ص ٣٧٥ ، تحقيق : عامر بن علي ياسين ، الطبعة الثانية ، ١٤١٩هـ ، دار ابن خزيمة-الرياض .

والغزالي -رحمه الله- متأثر بمن سبقه من أئمة الصوفية وكان ينقل عنهم الكثير ، فقد كَانَ من المشهورين بالوعظ والتذكير والتربية عَلَى هذا الأمر الحارث المحاسبي واشتهر بذلك لأنه كَانَ يُعلِّم مريديه وتلاميذه المحاسبة ، فيأمرهم أن يحاسبوا أنفسهم ، ويعلم النَّاس في المساجد دقائق الأمور . [١]

قال ابن الجوزي : " ومن تأمل حالة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، رأى كاملاً من الخلق يعطي كل ذي حق حقه : فتارة يمزح ، وتارة يضحك ، ويداعب الأطفال ، ويسمع الشعر ، ويتكلم بالمعاريض ، ويحسن معاشرة النساء ، ويأكل ما قدر عليه وأتيح له وإن كان لذيذاً كالعسل ، ويستعذب له الماء ، ويفرش له في الظل ، ولم ينكر ذلك " [٢].

وأما ما يحدث من جهال المتصوفة والمتزهدين من منع النفس شهواتها على الإطلاق ، من أكل خبز الشعير ووزن المأكول ، وتخفيف البدن ، وهجر كل مشتهى ، فإنه تعذيب للنفس، وهدم للبدن ، لا يقتضيه عقل ، ولا يمدحه شرع .

وقد بين ابن الجوزي -رحمه الله- الأسباب التي دعت هؤلاء الزهاد إلى الإقلال من الطعام فقال : " وإنما اقتنع أقوام بالقليل لأسباب ؛ مثل أن حدثت شبهة فتقللوا ، أو اختلط طعام بطعام فتورعوا. ثم كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يوفي العبادة حقها بقيام الليل والاجتهاد في الذكر . فعليك بطريقته التي هي أكمل الطرق ، وبشرعته التي لا شوب فيها ، ودع حديث فلان وفلان من الزهاد ، واحمل أمرهم على أحسن محمل ، وأقم لهم الأعذار مهما قدرت ؛ فإن لم تجد عذراً فهم محجوجون بفعله ؛ إذ هو قدوة الخلق وسيد العقلاء ؛ وهل فسد الناس إلا بالانحراف عن الشريعة ؟! " [٣]

ثانياً : ما يتعلق بتعذيب النفس ومعاقبتها فإن الشرع لم يأت بهذا ، بل الجادة السليمة والطريق القويمة الاقتداء بصاحب الشرع ، والبدار إلى الاستنان به فهو المنهج الذي لا نقص فيه.

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية : (١٤٣٢/١) .

(٢) صيد الخاطر ، ص٣٧٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص٣٧٨-٣٧٩ .

والله حرم علينا كل ما يضرنا وأباح لنا كل ما ينفعنا ، بخلاف أهل الكتاب فإنه بظلم منهم حرم عليهم طيبات أحلت لهم ، فحرم عليهم طيبات عقوبة لهم ، ومحمد -صلى الله عليه وسلم- لم يحرم علينا شيئًا من الطيبات .

والناس تتنوع أحوالهم فى الطعام واللباس والجوع والشبع ، والشخص الواحد يتنوع حاله ، وخير الأعمال ما كان لله أطوع ولصاحبه أنفع ، وقد يكون ذلك أيسر العملين ، وقد يكون أشدهما . فإن الشرع إذا أمرنا بأمر شديد فإنما يأمر به لما فيه من المنفعة لا لمجرد تعذيب النفس .

قال ابن تيمية -رحمه الله- : " وأما مجرد تعذيب النفس والبدن من غير منفعة راجحة ، فليس هذا مشروعًا لنا بل أمرنا الله بما ينفعنا ونهانا عما يضرنا . وقد قال في الحديث الصحيح : " إنما بعثتم ميسرين و لم تبعثوا معسرين " [١] ، وقال لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن : " يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا " [٢]، وقال – عليه الصلاة والسلام – : " هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فاستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا [٣]". [٤]

قال السيوطي -رحمه الله- : " وإذا كان للنفس حق فليأخذ لها ما يصلحها، وليترك ما يؤذيها من الشبع والإفراط في تناول الشهوة ؛ فإن ذلك يؤذي البدن والدين. وليأخذ قدر القوام من غير أن يؤذي النفس . ومن كفها عن التصرف على مقتضى ما وضع في طبعها فيما يصلحها فقد آذاها إلا أنه يكفها عن الشبع المفرط والشره وما يخاف عاقبته ، فإن ذلك يفسدها، فأما الكف المطلق فخطأ ، ولا يلتفت إلى غير هذا فإن إتباع الشارع صلى الله عليه وسلم وصحابته أولى ، و لم يكونوا يتكلفون شيئاً إن حضر طعام شهي أكلوا وحمدوا الله تعالى ، وإن لم يحضر شيئاً صبروا " [٥].

(١) أخرجه البخاري : في كتاب الوضوء ، باب صب الماء على البول في المسجد ، رقم (٢٢٠).

(٢) أخرجه البخاري : في كتاب الأدب ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (يسروا ولا تعسروا) ، رقم (٦١٢٤).

(٣) أخرجه البخاري : في كتاب الإيمان ، باب الدين يسر ، رقم (٣٩).

(٤) مجموع الفتاوى : (٢٢ / ٣١٣-٣١٤).

(٥) الأمر بالإتباع والنهي عن الابتداع ، السيوطي : (١ / ٢٤-٢٥).

وإن من تعـذيب النفس أيضاً لبس الصـوف تحت الثيـاب بدعوى أن لـه فضـلاً .
قال ابن تيمية -رحمه الله- : " لبس الصوف تحت ثياب القطن وغيره لو كان فاضلاً لكان النبي - صلى الله عليه وسلم- شرعه لأمته ، إما بقوله أو فعله ، أو كان يفعله أصحابه على عهده ، فلما لم يفعله هو ولا أحد من أصحابه على عهده ، ولا رغب فيه ، دلّ على أنه لا فضيلة فيه ، ولكنه - صلى الله عليه وسلم- لبس في السفر جبة من صوف فوق ثيابه .

وقصد لبس الصوف ، دون القطن وغيره ، ليس بمستحب في شريعتنا ولا هو من هـدى نبينا - صلى الله عليه وسلم- " [1].

وقال -رحمه الله- : " ثم بتقدير أن يكون لبس الصوف طاعة وقربة ، فإظهـاره تواضـعاً أولى من إخفائه تحت الثياب ، فإنه ليس في ذلك إلا تعذيب النفس بلا فائدة . والله تعـالى لم يأمـر العبـاد إلا بما هو له أطـوع ولهم أنفع ، لم يأمرهـم بتعذيب لا ينفعهم " [2]. بل قال - عليه الصلاة والسلام- : " إن الله لغني عن تعذيب هذا نفسه " [3].

---

(١) منهاج السنة النبوية ، ابن تيمية : (٤ / ٤٢-٤٣) ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ .
(٢) المرجع السابق : (٤/٤٣-٤٤) .
(٣) سبق تخريجه ، ص ٢١٧ .

المبحث الثالث

مفهوم التفكر عند السلف

التفكر لغة :

التفكر مأخوذ من مادة (ف ك ر) التي تدل على تردد القلب في الشيء ، يقال تفكــــر إذا ردد قلبه معتبرًا . والتفكر التأمل وإعمال الخاطر في الشيء .[1]

التفكر اصطلاحًا :

تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب .[2]

وللفكر فوائد كثيرة منها :

- أنه طريق موصل إلى رضوان الله ومحبته .
- انشراح للصدر وسكينة للقلب .
- التفكر يورث الخوف والخشية من الله – عز وجل – .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠-١٩١] . وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر ٢٠-٢١] .

عن أمير المؤمنين –عمر بن عبد العزيز– أنه بكى يومًا بين أصحابه فسئل عن ذلك ، فقال : فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مراراتها ، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر إن فيها مواعظ لمن ادكر .[3]

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة : (٤٤٦/٤) ، ولسان العرب : (٦٥/٥) .

(٢) انظر : التعريفات للجرجاني ، ص٦٦ .

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : (٤٣٨/١) .

وقال سفيان ابن عيينة – رحمه الله – :

إذا المرء كانت له فكرة

ففي كل شيء له عبرة [١].

قال ابن القيم – رحمه الله – :

" أنفع الدواء أن تشغل نفسك بالتفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك ، فالتفكر فيما لا يعني باب كل شر ، ومن تفكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه .

فالفكر والخواطر والإرادة والهمة أحق شيء بإصلاحه من نفسك ، فإن هذه خاصتك وحقيقتك التي لا تبتعد أو تقترب من إلهك ومعبودك الذي لا سعادة لك إلا في قربه ورضاه عنك إلا بها ، وكل الشقاء في بعدك عنه وسخطه عليك ، ومن كان في خواطره ومجالات فكره دنيئًا خسيسًا لم يكن في سائر أمره إلا كذلك ".[٢]

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : (١/٤٣٨) .

(٢) الجواب الكافي لابن القيم ، ص٨٦ .

المبحث الرابع

المآخذ العقدية على كتاب التفكر
والرد عليه على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

مسألـــة :

قال الغزالي في معرض حديثه عن مجاري الفكر فقال :

" وهو يجري في أمر يتعلق بالدين ، أو بغير الدين ، والأمـــر الذي يتعلق بالدين على قسمين :
القسم الأول : تفكر الإنسان في صفات نفسه وأفعاله ليميز المحبوب منها عن المكروه . وهـــو على أربعة أنواع : المعاصي ، الطاعات ، الصفات المهلكة ، الصفات المنجية .
القسم الثاني : التفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه وفيه مقامان :

المقام الأعلى : الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه ، وهذا مما منع منه ، حيث قـــال ابـــن عباس – رضي الله عنهما– : " تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فـــإنكم لـــن تقـــدروا قدره"[(١)]، وذلك لأن العقول تتحير فيه ...

فالصواب أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله وصفاته ، فإن أكثر العقول لا تحتمله بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء ، وهو أن الله مقدس عن المكان ومتره عن الأقطـــار والجهات ، وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه ، قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته . بل ضعفت طائفة عن احتمال أقـــل من هذا ، إذا قيل لهم إنه يتعاظـــم ويتعالى عن أن يكون له رأس ، ورجل ، ويـــد ، وعـــين ، وعضو،وأن يكون جسمًا مشخصًا له مقدار وحجم، فأنكروا هذا وظنوا أنه قدح في عظمة الله.

المقام الثاني : النظر في أفعاله ، ومجاري قدره ، وعجائب صنعه ، وبدائع أمره في خلقه ".[(٢)]

---

(١) قال الحافظ العراقي : الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ، ورواه الأصبهـــاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ، والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال : هذا إسناد فيه نظر، قلت : فيه الوازع بن نافع متروك . انظر : المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار ، بذيل الإحياء : (١٦٢/٥) .

(٢) إحياء علوم الدين : (١٦٦/٥-١٦٧ و ١٧٣-١٧٤) .

التعليق :

يُعد الغزالي - رحمه الله- شافعي المذهب أشعري المعتقد ، وقد تنقل الغزالي بين أصناف الطالبين الأربعة (المتكلمين ، الفلاسفة ، الباطنية ، والصوفية) ولم يعرف منهج أهل الحديث ، ولم يحذُ حذوهم في سلوك المنهج الصحيح الذي عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وصحابته - رضوان الله عليهم- في أحاديث الصفات بأن تمر كما جاءت ويؤمن بها وتصدق ، وتصان عن تأويل يفضي إلى تعطيل ، وتكييف يفضي إلى تمثيل .

وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- منهج السلف في باب الصفات فقال :
" أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، وبما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث . من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، ونعلم أن ما وصف الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي ، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه ، لاسيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول ، والدلالة والإرشاد . وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء ، لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ، ولا في أفعاله ، فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة ، وله أفعال حقيقة ، فكذلك له صفات حقيقة وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وكل ما أوجب نقصًا أو حدوثًا فإن الله منزه عنه حقيقة ، فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه " .(١)

ثم بين ابن تيمية منهج المخالفين في صفات الله من حيث النفي والإثبات ، فقال :
" ولم يقل أحد من السلف قط : أن الله ليس في السماء ، ولا أنه ليس على العرش ، ولا أنه بذاته في كل مكان ، ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء ، ولا أنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا أنه لا متصل ولا منفصل .

ثم ليس في كتاب الله ، ولا في سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ، ولا عن أحد من سلف الأمة - لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف - حرف واحد يخالف ذلك ، لا نصًا ولا ظاهرًا .

---

(١) مجموع الفتاوى : (٢٦/٥) .

فلئن كان الحق ما يقوله هؤلاء السالبون النافون للصفات الثابتة في الكتاب والسنة ، من هذه العبارات ونحوها دون ما يفهم من الكتاب والسنة إما نصًا وإما ظاهرًا ، فكيف يجوز على الله تعالى ثم على رسوله -صلى الله عليه وسلم- ، ثم على خير الأمة : أنهم يتكلمون دائمًا بما هو إما نص وإما ظاهر في خلاف الحق ؟ ثم الحق الذي يجب اعتقاده لا يبوحون به قط ، ولا يدلون عليه لا نصًا ولا ظاهرًا " . [1]

منهج السلف في الصفات إثبات مفصل ، ونفي مجمل :

قال شارح الطحاوية : " يأتي الإثبات للصفات في كتاب الله مفصلاً ، والنفي مجملاً ، عكس طريقة أهل الكلام المذموم فإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل ، يقولون : ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا بذي لون ولا رائحة ولا طعم ، ولا مجسة ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق ، ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض ، وليس بذي أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء ، وليس بذي جهات ، ولا بذي يمين ولا شمال وأمام وخلف وفوق وتحت ، ولا يحيط به مكان ولا يجري عليه الزمان ولا يجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول في الأماكن ، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ، ولا يوصف بأنه متناه ، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود ، ولا تحيط به الأقدار ولا تحجبه الأستار ... وفي هذه الجملة حق وباطل ، ويظهر ذلك لمن يعرف الكتاب والسنة . وهذا النفي المجرد مع كونه لا مدح فيه ، فيه إساءة أدب ، فإنك لو قلت للسلطان : أنت لست بزبال ولا كساح ولا حجام ولا حائك ! لأدّبك على هذا الوصف وإن كنت صادقًا ، وإنما تكون مادحًا إذا أجملت النفي فقلت : أنت لست مثل أحد من رعيتك ، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل . فإذا أجملت في النفي أجملت في الأدب " [2].

وهذا المنهج - أي النفي المفصل- هو ما سار عليه الغزالي على طريق أهل الكلام . [3]

---

(١) مجموع الفتاوى : (٥/١٥-١٦).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : ص (١٠٧) .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين : (٥/١٧٤) .

والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة ، وأما المخالفين فإنهم يعرضون عما قاله الشارع من الأسماء والصفات ، ولا يتدبرون معانيها ، ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكم الذي يجب اعتقاده واعتماده ، بخلاف أهل الحق والسنة والإيمان فيجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده .

قال شارح الطحاوية : " والنفاة قد جعلوا قوله تعالى :﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] مستندًا لهم في رد الأحاديث الصحيحة ، فكلما جاءهم حديث يخالف قواعدهم وآراءهم ، وما وضعته خواطرهم وأفكارهم – ردوه بـ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] ، تلبيسًا منهم وتدليسًا على من هو أعمى قلبًا منهم ، وتحريفًا لمعنى الآي عن مواضعه . ففهموا من أخبار الصفات ما لم يرده الله ولا رسوله ، ولا فهمه أحد من أئمة الإسلام ، أنه يقتضي إثباتها التمثيل بما للمخلوقين ، ثم استدلوا على بطلان ذلك بـ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] ، تحريفًا للنصين ، ويصنفون الكتب ، ويقولون هذا أصل دين الإسلام الذي أمر الله به وجاء من عنده ، ويقرؤون كثيرًا من القرآن ويفوضون معناه إلى الله تعالى من غير تدبر لمعناه الذي بينه الرسول ، وأخبر أنه معناه الذي أراده الله " .[1]

فالألفاظ الشرعية صحيحة المعاني ، سالمة من الاحتمالات الفاسدة ، وعليه يجب ألا يُعدل عن الألفاظ الشرعية نفيًا ولا إثباتًا ، لئلا يثبت معنى فاسد ، أو ينفى معنى صحيح .

وفي إثبات صفة الوجه لله تعالى :

قال الله تعالى :﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٧] ، وقوله : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] .

الشاهد من الآيتين : أن فيهما إثبات الوجه لله سبحانه وتعالى ، وهو من صفاته الذاتية فهو وجه على حقيقته يليق بجلاله (ليس كمثله شيء) لا كما يزعم معطلة الصفات أن الوجه ليس على حقيقته وإنما المراد به الذات أو الثواب أو الجهة أو غير ذلك ، وهذه تأويلات باطلة .[2]

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص (٣٥٦-٣٥٧).

(٢) انظر : شرح العقيدة الواسطية : لابن تيمية ، تأليف : صالح بن فوزان الفوزان ، ص٤٨ ، الطبعة الثانية ، ١٤١٧هـ، مكتبة دار السلام-الرياض.

الكلام على صفة اليد والوجه :

قال شارح الطحاوية : " وأما لفظ الأركان والأعضاء والأدوات - فيستدل بها النفاة على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية ، كاليد والوجه ، فهو له صفة بلا كيف . ولا يقال إن يده قدرته ونعمته ، لأن فيه إبطال الصفة ، وهذا ثابت بالأدلة القاطعة .

قال تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص :٧٥] ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر : ٦٧] ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٧] ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران : ٢٨] ، وقال تعالى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه : ٤١] .

ولا يصح تأويل من قال إن المراد باليد : القدرة ، فإن قوله :﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص :٧٥]، لا يصح أن يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد ، ولو صح ذلك لقال إبليس : وأنا أيضًا خلقتني بقدرتك ، فلا فضل له علي بذلك . فإبليس- مع كفره- كان أعرف بربه من الجهمية. ولا دليل لهم في قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴾ [يس : ٧١] ، لأنه تعالى جمع الأيادي لما أضافها إلى ضمير الجمع ، ليتناسب الجمعان ، فاللفظان للدلالة على الملك والعظمة. و لم يقل " أيدي" مضافًا إلى ضمير المفرد ، ولا " يدينا " بتثنية اليد مضافًا إلى ضمير الجمع . فلم يكن قوله : ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ نظير قوله : ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ " [1].

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص (٢١٩-٢٢٠).


الفصل التاسع

الفصل التاسع

المآخذ العقدية على كتاب ذكر الموت وما بعده

المبحث الأول : مفهوم ذكر الموت وما بعده عند السلف.

المبحث الثاني : المآخذ العقدية على ذكر الموت وما بعده والرد عليها على ضوء عقيدة السلف.

المبحث الأول

مفهوم ذكر الموت وما بعده عند السلف

قال ابن الجوزي – رحمه الله – : " الموت حادث تزول معه الحياة . وهو حضور صورته وأهواله وما بعده في القلب وانعكاسها على الجوارح سلوكًا .

والواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله ، فإنه لا يعلم متى يفجؤه أمر ربه ، ولا يدري متى يستدعى" (١).

وقال أيضًا :" إذا علم الإنسان بأن الموت يقطعه عن العمل ، عمل في حياته ما يدوم له أجره بعد موته . فإن كان له شيء من الدنيا وقف وقفًا وغرس غرسًا وأجرى نهرًا ، ويسعى في تحصيل ذرية تذكر الله بعده فيكون الأجر له ، أو أن يصنف كتابًا من العلم . وأن يكون عاملاً بالخير عالمًا فيه فينقل من فعله ما يقتدي الغير به فذلك الذي لم يمت "(١).

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت ٥٧-٥٩] .

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشيًا : إما النار وإما الجنة ، فيقال : هذا مقعدك حتى تبعث إليه " (٣).

(١) صيد الخاطر ، لابن الجوزي ، ص ٦-٧

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢

(٣) أخرجه البخاري : في كتاب الرقاق ، باب سكرات الموت ، رقم (٦٥١٥) .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " أكثروا ذكر هاذم اللذات يعني الموت" [١].

وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله " [٢].

(١) أخرجه الترمذي : في كتاب الزهد ، باب ما جاء في ذكر الموت ، رقم(٢٣٠٧) . قال الشيخ الألباني :حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري : في كتاب الرقاق ، باب سكرات الموت ، رقم(٦٥١٤) ، وأخرجه مسلم : في كتاب الزهد والرقائق ، رقم(٢٩٦٠) .

المبحث الثاني
المآخذ العقدية على كتاب ذكر الموت وما بعده
والرد عليها على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

قال الإمام الغزالي -رحمه الله-: " زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار . وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار "[١] .

ثم أورد أدلة استشهد بها على استحباب زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ومنها : روي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : " من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي " . وقوله : " من زارني بالمدينة محتسبًا كنت له شفيعًا وشهيدًا يوم القيامة " .[٢]

المسألة الأولى :

رخّص الغزالي -رحمه الله- في السفر لزيارة القبور والمشاهد[٣] ، حيث ذكر ذلك صريحًا في كتاب أسرار الحج من ربع العبادات قال :

" وقد ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال بحديث : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى "[٤] في المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصلحاء ، وما تبين لي أن الأمر كذلك ، بل الزيارة مأمور بها ، قال -صلى الله عليه وسلم- : " كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرًا " .[٥]

والحديث إنما ورد في المساجد ، وليس في معناها المشاهد ، لأن المساجد بعد المساجد الثلاثة متماثلة ، ولا بلد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر . وأما المشاهد فلا تتساوى ، بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عز وجل.

---

(١) إحياء علوم الدين : (٥/٢٤٢) .

(٢) المرجع السابق : (٥/٢٤٣)

(٣) المشهد : الحضور ، جمعها : مشاهد . وتأتي بمعنى الضريح . انظر المعجم الوسيط ، مادة : (شهد) ، ص٤٩٧

(٤) أخرجه البخاري : في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، باب مسجد بيت المقدس ، رقم (١١٩٧)

(٥) أخرجه مسلم : في كتاب الجنائز ، باب استئذان النبي ربه في زيارة قبر أمه ، رقم (٩٧٦)

ثم قال : ليت شعري هل يمنع هذا القائل من شـــد الرحال إلى قبور الأنبيـــاء – عليهم السـلام – : مثل إبراهيم وموسى ويحيى وغيرهم –عليهم السلام– فالمنع من ذلك في غاية الإحالة " .[١]

وسأناقش هذه المسألة من عدة جوانب :

أولاً : شدّ الرحال إلى مسجد النبي –صلى الله عليـه وسـلم– مشـروع باتفـاق المسلمـين، قال الرسول –صلى الله عليه وسلم– : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى " .[٢]

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، إلا المسجد الحرام " .[٣]

وقد كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يصلي بالمسلمين الجمعة ، ويعلمهم ، ويأمرهم، وينهاهم ، وفيه سنّت السنن ، وكانت الصلاة فيه بألف صلاة ، وكان السفر إليه مشروعًا في حياته – صلى الله عليه وسلم– ، ولم يكن عنده قبر ، لا قبره –صلى الله عليه وسلم– ، ولا قبر غيره .

قال ابن حجر –رحمه الله– : " قوله : لا تشد الرحال " المراد النهي عـن السـفر إلى غيرها . قال الطيبي : " هو أبلغ من صريح النهي ، كأنه قال : لا يستقيم أن يقصد بالزيارة إلى هذه البقاع لاختصاصها بما اختصت به " .[٤]

فكان العمل الشائع في الصحابة –رضوان الله عليهم– أنهم يدخلون مسجده ويصلون عليه في الصلاة ، ويسلمون عليه كمـا أمرهم ، حيث قال–صلى الله عليه وسلم– : " من

---

(١) إحياء علوم الدين : (١/ ٣٢٧)

(٢) سبق تخريجه ، ص ٢٣٢

(٣) أخرجه البخاري : في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، رقم (١١٩٠)

(٤) فتح الباري : (٣/٦٤)

صلى عليّ مرة صلى الله عليه بها عشرًا "[١] ، وقال – عليه الصلاة والسلام– :" لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ، ولا تجعلوا قبري عيدًا ، وصلوا عليّ ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم " .[٢]

والصحابة –رضوان الله عليهم– خير القرون وهم الذين تلقوا عن النبي –صلى الله عليه وسلم– بلا واسطة ففهموا من مقاصده –عليه الصلاة والسلام– وعاينوا من أفعاله وسمعوا منه شفاهًا ما لم يحصل لمن بعدهم ، فإنهم لم يكونوا يدخلون عند قبره –صلى الله عليه وسلم– للصلاة والسلام عليه هناك أو الصلاة والدعاء فإنه لم يشرعه لهم ، بل نهاهم ، فقال: " إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك " .[٣]

وقال –صلى الله عليه وسلم– : " لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " .[٤]

وقبر الخليل – عليه السلام – بالشام لم يسافر إليه أحد من الصحابة ، وكانوا يأتون بيت المقدس فيصلّون فيه ولا يذهبون إلى قبر الخليل – عليه السلام –

فالسفر إلى قبور الأنبياء والصالحين لم يكن موجودًا في عهد الصحابة بل حدث بعد القرون المفضلة .[٥]

وأما ما كان يفعله عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما– كان إذا دخل المسجد يقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبت ثم ينصرف ، و لم يكن يقف لا لدعاء ولا غيره .[٦]

---

(١) أخرجه مسلم : في كتاب الصلاة ، باب الصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم – بعد التشهد رقم (٤٠٨)

(٢) أخرجه أبو داود : في كتاب المناسك ، باب زيارة القبور ، رقم (٢٠٤٢) . قال الألباني : حديث صحيح .

(٣) أخرجه مسلم : في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ، واتخاذ الصور فيها ، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد ، رقم (٥٣٢)

(٤) أخرجه البخاري : في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، رقم(٣٤٥٣) ، وأخرجه مسلم : في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ، واتخاذ الصور فيها ، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد ، رقم (٥٣١)

(٥) انظر : مجموع الفتاوى : (١٧٩/٢٧و٢٠٤)

(٦) المرجع السابق : (٤٠٠/٢٧)

وقد اعتمد العلماء على أحاديث الصلاة والسلام عليه ، كقوله -صلى الله عليه وسلم- : " ما من رجل يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام " .[١] وقوله – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله وكل بقبري ملائكة يبلغوني عن أمتي السلام".[٢] وقوله – صلى الله عليه وسلم – : " أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة ، وليلة الجمعة ؛ فإن صلاتكم معروضة عليّ " ، قالوا : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ فقال : " إن الله حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء " .[٣]

ثانيًا : تحرير محل النزاع :

إذا كان لا يجوز شد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد .

وإذا كان يجوز زيارة القبور لتذكر الآخرة .

فهل يجوز السفر إلى قبور الأنبياء والصالحين لزيارتها ؟

وهل المشاهد مثل المساجد في النهي عن شد الرحال إليها ؟

التعليق :

الذي كان عليه الصحابة – رضوان الله عليهم – والسلف – رحمهم الله – أنهم كانوا يأتون مسجد النبي – صلى الله عليه وسلم – ويصلون فيه ، ولا يذهبون إلى قبره لا من داخل الحجرة ولا خارجها ، وكانوا يأتون المسجد الأقصى ويصلون فيه ، ولا يذهبون إلى قبر الخليل – عليه الصلاة والسلام – . وذلك لما نهاهم عنه – صلى الله عليه وسلم – من اتخاذ القبور مساجد . والسلف – رحمهم الله – يحتجون بما في الصحيحين عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد " .[٤] وهذا الحديث اتفق الأئمة على صحته والعمل به .

---

(١) أخرجه أبو داود : في كتاب المناسك ، باب زيارة القبور ، رقم (٢٠٤١) ، قال الألباني : حديث حسن .

(٢) أخرجه النسائي : في كتاب السهو ، باب السلام على النبي ، رقم (١٢٨٢) ، قال الألباني : حديث صحيح .

(٣) أخرجه أبو داود : في كتاب الصلاة ، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة ، رقم (١٠٤٧) ، وأخرجه ابن ماجه: في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب في فضل الجمعة ، رقم (١٠٨٥) .

(٤) سبق تخريجه ، ص ٢٣٢

وأما السفر بقصد زيارة قبر النبي – صلى الله عليه وسلم – دون الصلاة في مسجده ، أو السفر لزيـــارة قبور الأنبياء أو الصالحـــين فإن ذلك لم يثبت فيه شيء ، لا في الكتـــاب ولا في السنة .

أما الذين رخصوا في السفر لزيارة القبور قالوا : المراد بالحديث : " لا تشد الرحـــال " نفي الفضيلة والاستحباب ، لا نفي الجواز . ومن الذين قالوا بذلك أبو حامد الغــزالي[(١)] ، حيث استشهد بحديث : " من زار قبري ... " وحديث : " من زارني بالمدينة ... " .
وقد رد ابن تيمية على استشهاد الغزالي بتلك الأحاديث فقال :

" وليس في زيارة قبر النبي – صلى الله عليه وسلم – حديث حسن ولا صـــحيح ، ولا روى أهل السنن المعروفة ، كسنن أبي داود ، والنسائي ، والترمذي ، وابن ماجه، ولا أهل المسانيد المعروفة ، كمسند أحمد ونحوه ، ولا أهل المصنفات كموطأ مالك وغيره في ذلـــك شيئًا ، بل عامة ما يروى في ذلك أحاديث مكذوبة وموضوعة .... وإنما كـــان قـــد روى بعض ذلك الدارقطني ، والبزار في مسنــــده ، فمدار ذلك على عبدالله بن عمر العمري، أو من هو أضعف منه ، ممن لا يجوز أن يثبت بروايته حكم شرعي " .[(٢)]

وقال ابن تيمية : وأما قوله : " من زار قبري ... " فهذا الحديث رواه الدارقطني – فيما قيل – بإسناد ضعيف ، ولهذا ذكره غير واحد من الموضوعات " .[(٣)]

قال ابن تيمية –رحمه الله–: "وكان الإمام مالك – رحمه الله – يكره أن يقـــول الرجل زرت قبر النبي – صلى الله عليه وسلم – . ومالك قد أدرك الناس من التابعين ، وهم أعلم النـــاس بهذه المسألـــة . فدل ذلك على أنه لم تكـــن تعرف عندهم ألفـــاظ زيارة قبر النبي – صلى الله عليه وسلـــم – ، ولهذا كره من كره من الأئمة أن يقف مستقبـــل القبر يدعو ، بل وكره مالك وغيره أن يقوم للدعاء لنفسه هناك ، وذكر أن هذا لم يكن من عمل الصحابة والتابعين ، وأنه لا يصلح آخـــر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها . وقد ذكروا أسبـــاب كراهته،

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى : (٢٧/٢٨و٢٢٦) .
(٢) المرجع السابق : (٢٤/٣٥٦-٣٥٧) .
(٣) انظر : مجموع الفتاوى : (٢٧/٢٥) ، وانظر : الجامع الصغير ، للسيوطي ، (٨٧١٥) .

أن يقول : زرت قبر النبي ؛ لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريد به الزيارة البدعية ، وهي قصد الميت لسؤاله ، ودعائه ، والرغبة إليه في قضاء الحوائج ، ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس ، فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا ، وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة ، فكره مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد ، بخلاف الصلاة عليه والسلام فإن ذلك مما أمر الله به " .[1]

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – أن قصد القبور وغيرها من الأماكن للدعاء ينقسم إلى نوعين :

أحدهما : أن يحصل الدعاء في البقعة بحكم الاتفاق ، لا لقصد الدعاء فيها ، كمن يدعو الله في طريقه ، ويتفق أن يمر بالقبور ، أو كمن يزورها فيسلم عليها ، ويسأل الله العافية له وللموتى ، كما جاءت به السنة ، فهذا ونحوه لا بأس به .

الثاني : أن يتحرى الدعاء عندها ، بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره ، فهذا النوع منهي عنه ، إما نهي تحريم ، أو تنزيه ، وهو إلى تحريم أقرب .[2]

ثم قال : والذي يبين ذلك أمور أحدها : أنه قد تبين أن العلة التي نهى النبي – صلى الله عليه وسلم – لأجلها عن الصلاة عند القبور لئلا تتخذ ذريعة إلى نوع من الشرك بالعكوف عليها ، وتعلق القلوب بها رغبة ورهبة . ومن المعلوم أن المضطر في الدعاء الذي قد نزلت به نازلة ، فيدعو لاستجلاب خير كالاستسقاء ، أو لرفع شر كالاستنصار ، حاله في افتتانه بالقبور – إذا رجا الإجابة عندها – أعظم من حال من يؤدي الفرض عندها في حال العافية ، فإن أكثر المصلين – في حال العافية – لا تكاد قلوبهم تفتتن بذلك إلا قليلاً ، أما الداعون المضطرون ففتنتهم بذلك عظيمة جدًا ، فإذا كانت المفسدة والفتنة التي لأجلها نهي عن الصلاة متحققة في حال هؤلاء ، كان نهيهم عن ذلك أوكد وأوكد .

الثاني : أن قصد القبور للدعاء عندها ، ورجاء الإجابة بالدعاء هنالك ، رجاء أكثر من رجائها بالدعاء في غير ذلك الموطن ، أمر لم يشرعه الله ولا رسوله ، ولا فعله أحد من

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى : (٣٥٨/٢٤) .

(٢) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم : (١٩٥/٢) .

الصحابة ولا التابعين ، ولا أئمة المسلمين ، ولا ذكره أحد من العلماء ولا الصالحين المتقدمين ، بل أكثر ما ينقل من ذلك عن بعض المتأخرين بعد المائة الثانية .[(١)]

وقد بيّن لنا الرسول – صلى الله عليه وسلم – السنة لمن زار القبر أن يسلم على الميت ويدعو له بمنزلة الصلاة على الجنائز ، كما كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يعلم أصحابه أن يقولوا إذا زاروا القبور : " السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم عن قريب لاحقون ، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لا تحرمنا أجرهم ، ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم " .[(٢)]

وأما التمسح بالقبر ، أو الصلاة عنده ، أو قصده لأجل الدعاء عنده ، معتقدًا أن الدعاء هناك أفضل من الدعاء في غيره ، أو النذر له ونحو ذلك ، فليس هذا من دين المسلمين ، بل هو مما أحدث من البدع القبيحة ، التي هي من شعب الشرك . والله أعلم وأحكم .

والذي يتبين مما سبق : أن زيارة القبور بدون شد الرحال إليها جائز استنادًا لقوله – صلى الله عليه وسلم – في الحديث : " لا تشد الرحال ... " ، وقوله – صلى الله عليه وسلم – " ... فزوروا القبور ، فإنها تذكر الموت " .[(٣)]

ثالثًا : هل المشاهد في حكم المساجد أم لا ؟

ويقصد بالمشاهد المساجد التي تبنى على القبور .

ومما هو معلوم أن النبي – صلى الله عليه وسلم – أمر أصحابه – رضوان الله عليهم – بتسوية القبور وألا يجعلوا قبرًا ظاهرًا ن حتى لا يفتتن الناس به .[(٤)]

---

(١) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم : (١٩٦/٢-١٩٧) .

(٢) أخرجه مسلم : في كتاب الجنائز ، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها ، رقم (٩٧٤) .

(٣) أخرجه مسلم : في كتاب الجنائز ، باب استئذان النبي – صلى الله عليه وسلم – ربه عز وجل في زيارة قبر أمه ، رقم (٩٧٦) .

(٤) انظر مجموع الفتاوى : (٢٧١/٢٧) .

وقد دعا النبي – صلى الله عليه وسلم – ألا يتخذ قبره وثنًا يعبد حيث قال : " اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد "(١) ، وقال : " لا تتخذوا قبري عيدًا "(٢) ، وقد أجاب الله دعوته فقد دفن في حجرة عائشة – رضي الله عنها – و لم يكن أحد يدخل قبره – صلى الله عليه وسلم – وهو إنما نهى عن ذلك سدًا للذريعة وحماية للتوحيد وألا يتخذ قبره عيدًا كما فعل النصارى بقبور أنبيائهم ، اتخذوها مساجد .(٣)

وأما هذه المشاهد التي يذكرونها فإنه لم يكن في العصور المفضلة مشاهد على القبور ، وإنما كان ظهور ذلك في دولة بني بويه ، لما ظهرت القرامطة(٤)، حين ضعفت خلافة بني العباس ، والقرآن الكريم جاء بذكر المساجد وتعظيمها ، و لم يذكر المشاهد، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ [البقرة : ١١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] ،وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [التوبة : ١٨] . فإن من دين الله تعظيم بيوت الله – عز وجل – ، وهي المساجد التي تشرع فيها الصلوات والاعتكاف والقراءة والذكر والدعاء لله ، قال الله تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور : ٣٦-٣٨] .

وقد أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – علي بن أبي طالب ألا يدع قبرًا مشرفًا إلا سواه ، ولا تمثالاً إلا طمسه .

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ، في قصر الصلاة في السفر (١٧٢/١) ، (٨٥)

(٢) أخرجه أبو داود : في كتاب المناسك ، رقم (٢٠٤٢) . قال الألباني : حديث صحيح .

(٣) انظر مجموع الفتاوى : (٣٢٧/٢٧-٣٢٩)

(٤) القرامطة : نسبة إلى حمدان قرمط أحد الدعاة الباطنيين الذين ظهروا في أيام المأمون ، وعاونه فيما ذهب إليه : عبد الله بن ميمون القداح . انظر : الفرق بين الفرق ، ص ٢٥١ .

عن أبي الهياج الأسدي ، قال : قال لي علي بن أبي طالب : " ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته " [(١)].

فالمشاهد التي على القبور سواء جُعلت مساجد أو لم تجعل ، أو المقامات التي تضاف إلى بعض الأنبياء أو الصالحين أو المغارات أو الكهوف أو الطور الذي كلم الله عليه موسى – عليه السلام – أو غار حراء الذي كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يتحنث فيه قبل نزول الوحي ، وغير ذلك ، فإنه لا يشرع قصدها لأجل التعبد عندها ، لما فيه من التشبه بالمشركين ، ولما ثبت في الصحيحين عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " يحذر ما فعلوا .[(٢)]

وهذه المشاهد المضافة للأنبياء وغيرهم منها ما هو كذب ، ومنها ما لم يثبت ، والثابت قطعًا هو قبر نبينا وصاحبيه ، وهناك من أثبت قبر الخليل – عليه السلام– .[(٣)]

قال ابن تيمية – رحمه الله – :" وسبب اضطراب أهل العلم بأمر القبور : أن ضبط ذلك ليس من الدين ، فإن النبي – صلى الله عليه وسلم – قد نهى أن تتخذ القبور مساجد ، فلما لم يكن معرفة ذلك من الدين لم يجب ضبطه . فأما العلم الذي بعث الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – فإنه مضبوط محروس ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] . وفي الصحاح عنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ، ولا من خذلهم ،حتى تقوم الساعة[(٤)] " .[(٥)]

---

(١) أخرجه مسلم : في كتاب الجنائز ، باب الأمر بتسوية القبر ، رقم (٩٦٩)

(٢) سبق تخريجه ، ص ٢٣٤

(٣) انظر مجموع الفتاوى : (٥١٦/٤) و (٤٤٦/٢٧-٤٤٨)

(٤) أخرجه البخاري : في كتاب الاعتصام ، باب : قول النبي – صلى الله عليه وسلم – " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ، رقم (٧٣١١)

(٥) مجموع الفتاوى : (٥١٦/٤-٥١٧)

والصحابة – رضوان الله عليهم – لم يكونوا يستحبون السفر لشيء من زيارة البقاع لا آثار الأنبياء ، ولا قبورهم ، ولا مساجدهم ، إلا إلى المساجد الثلاثة ، وغار حراء الذي كان يتعبد فيه النبي – صلى الله عليه وسلم – قبل البعثة لم يزره هو بعد البعثة ، ولا أحد من الصحابة .

ولما سافر أبو هريرة – رضي الله عنه – إلى الطور الذي كلم الله عليه موسى – عليه السلام – قال له بَصْرة بن أبي بَصْرة الغفاري : لو أدركتك قبل أن تخرج لما خرجت ، سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " لا تعمل المطى إلا إلى ثلاثة مساجد . المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، ومسجد بيت المقدس " .(١)

والذين احتجوا على جواز السفر إلى المشاهد بزيارته– صلى الله عليه وسلم– مسجد قباء حيث ثبت في الصحيحين عن ابن عمر– رضي الله عنهما– عن النبي– صلى الله عليه وسلم– قال : " كان النبي – صلى الله عليه وسلم– يأتي مسجد قباء كل سبت ، ماشيًا وراكبًا " .(٢)

فإنه لا حجة لهم فيه ؛ لأن قباء مسجد ، وليس بمشهد ، وقد نُهي عن السفر وشد الرحل إليه لأنه ليس من المساجد الثلاثة . ولكن استحب لمن كان بالمدينة أن يذهب إليه ، وهذا ليس بشد رحل .

فقد روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " من تطهر في بيته فأحسن الطهور، ثم أتى مسجد قباء لا يريد إلا الصلاة فيه ، كان له كعمرة " .(٣)

يتبين من ذلك أنه إذا كان السفر إلى بيوت الله تعالى غير المساجد الثلاثة ليس بمشروع باتفاق الأئمة ؛ لنهي الرسول – صلى الله عليه وسلم – عنه ، فكيف بالسفر إلى بيوت

---

(١) أخرجه النسائي : في السهو ، رقم (١٤٣٠) ، وأخرجه أحمد : (٩٣/٣) . قال الألباني : حديث صحيح .

(٢) أخرجه البخاري : في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، باب فضل الصلاة في مكة والمدينة ، رقم (١١٩٣) .

(٣) أخرجه الترمذي : في كتاب الصلاة ، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء ، رقم (٣٢٤) ، وأخرجه النسائي : في كتاب المساجد ، فضل مسجد قباء ،رقم (٦٩٩) ، وأخرجه ابن ماجه : في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء ، رقم : (١٤١١-١٤١٢) . قال الألباني : حديث صحيح .

المخلوقين الذين تتخذ قبورهم مساجد ، وأوثانًا ، وأعيادًا ، وتدعى من دون الله .[١]

قال ابن تيمية – رحمه الله – : " فإذا حصل الاتفاق على أن السفر إلى القبور ليس بواجب ولا مستحب ، كان من فعله على وجه التعبد مبتدعًا مخالفًا للإجماع ، والتعبد لبدعة ليس بمباح ، لكن من لم يعلم أن ذلك بدعة فإنه قد يعذر ، فإذا بينت له السنة لم يجز له مخالفة النبي – صلى الله عليه وسلم – ، ولا التعبد بما نهى عنه " .[٢]

(١) انظر مجموع الفتاوى : (٣٦٠/٢٧)

(٢) المرجع السابق : (٣٣٥/٢٧-٣٣٦)

المسألة الثانية :

قول الغزالي –رحمه الله– : " أن زيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار "

وسأناقش هذه المسألة فيما يتعلق بموضوع التبرك :

فالتبرك هو طلب البركة ، والبركة هي النماء والزيادة .(١)

ونصوص القرآن والسنة دلت على أن البركة من الله تعالى ، وأنه سبحانه هو الذي يبارك ، وأنه لا أحد من الخلق يبارك أحدًا .

قال الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾[الفرقان : ١] . فقوله :" تبارك : أي تعاظم وكملت أوصافه ، وكثرت خيراته " (٢).

وقال تعالى : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾[الملك :١] ، وقال سبحانه : ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴾[الصافات : ١١٣] وقال : ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا ﴾[مريم : ٣١] .

ومن السنة قوله –صلى الله عليه وسلم– : " إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم"(٣).

وقال : " من الشجر شجرة ، تكون مثل المسلم ، وهي النخلة " (٤).

وعن أنس : " أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لما حلق رأسه ، كان أبو طلحة أول من أخذ من شعره " (٥). وورد في الحديث أنه : " إذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه " (٦).

فهذه النصوص دلت على أن الأشياء التي أحلّ الله – عز وجل – البركة فيها قد تكون أمكنة أو أزمنة وقد تكون مخلوقات آدمية فهذان قسمان :

القسم الأول : أن الله تعالى بارك بعض الأماكن كبيت الله الحرام ، وحول بيت المقدس ، كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾[الإسراء : ١] ، ومعنى كون الأرض مباركة أن يكون فيها الخير الكثير اللازم الدائم لها ، ليكون ذلك أشجع في أن يلازمها أهلها الذين دُعُوا

---

(١) المعجم الوسيط ، مادة : (برك) ، ص٥١ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن : ص٥٧٧ .

(٣) أخرجه البخاري ، في كتاب الأطعمة ، باب أكل الجمار ، رقم(٥٤٤٤) .

(٤) أخرجه البخاري ، في كتاب الأطعمة ، باب بركة النخل ، رقم(٥٤٤٨) .

(٥) أخرجه البخاري ، في كتاب الوضوء ، باب : الماء الذي يغسل به شعر الإنسان ، رقم(١٧١) .

(٦) أخرجه البخاري ، في كتاب الشروط ، باب : الشروط في الجهاد ، رقم(٢٧٣١-٢٦٣٢) .

إليها، وهذا لا يعني أبدًا التمسح بأرضها ، أو أن يتمسح بحيطانها ، لأن بركتها لازمة لا تنتقل بالذات .[١]

وكذلك الحجر الأسود فإن بركته لأجل العبادة ، فإن من استلمه وقبّله تعبدًا مطيعًا للرسول -صلى الله عليه وسلم- فإنه يناله به بركة الإتباع .

ولذلك نجد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لما قبّل الحجر قال : " إني أعلم أن حجر لا تضر ، ولا تنفع ، ولولا أني رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقبلك ما قبلتك"[٢].

قال ابن تيمية -رحمه الله- : " وأما الأشجار والأحجار والعيون ونحوها مما ينذر لها بعض العامة ، أو يعلقون بها خرقًا ، أو غير ذلك ، أو يأخذون ورقها يتبركون به ، أو يصلون عندها ، أو نحو ذلك ، فهذا كله من البدع المنكرة ، وهو من عمل الجاهلية ، ومن أسباب الشرك بالله تعالى " [٣].

ومما يدل على ذلك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما خرج إلى حنين مرّ بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- سبحان الله هذا كما قال قوم موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم"[٤].ولما بلغ عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أن قومًا يقصدون الصلاة عند الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان ، التي بويع النبي -صلى الله عليه وسلم- تحتها فأمر بتلك الشجرة فقطعت .

---

(١) انظر : التمهيد لشرح كتاب التوحيد ، صالح آل الشيخ ، ص(١٢٤) ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ ، دار التوحيد-الرياض .

(٢) أخرجه البخاري ، في كتاب الحج ، باب ما ذكر في الحجر الأسود ، رقم(١٥٩٧) ، وأخرجه مسلم ، في كتاب الحج ، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف ، رقم(١٢٧٠) .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية : (١٣٦/٢٧-١٣٧) .

(٤) أخرجه الترمذي ، في كتاب الفتن ، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم ، رقم(٢١٨٠) . قال الألباني : حديث صحيح .

وأما معنى كون الزمان مباركًا –مثل شهر رمضان ، أو بعض أيام الله الفاضلة– فإن من تعبّد فيها ، ورام الخير فيها ، فإنه ينال من كثرة الثواب ما لا يناله في غيرها من الأزمنة .

القسم الثاني : البركة المنوطة ببني آدم ، وهي البركة التي جعلها الله –جل وعلا– وفي المؤمنين من الناس ... من الأنبياء والرسل ، فهؤلاء بركتهم بركة ذاتية ، يعني أن أجسامهم مباركة ، فلو تبرك أحد من أقوامهم بأجسادهم ، إما بالتمسح بها ، أو بأخذ عرقها ، أو بالتبرك ببعض أشعارهم ، فهذا جائز ، لأن الله جعل أجسامهم مباركة بركة متعدية .

أما غير الأنبياء –صلوات الله عليهم– فإنه لم يثبت أن الصحابة كانوا يتبركون بأبي بكر وعمر وغيرهما ، والحديث : " ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر "[١] يدل على أن بركة أبي بكر وعمر وغيرهما أو المسلمين هي بركة عمل ترجع إلى الإيمان والعلم والعمل ، وليست بركة ذات تنتقل ..وعليه فيكون معنى التبرك بأهل الصلاح هو الاقتداء بهم في صلاحهم ، والتبرك بأهل العلم هو الأخذ من علمهم والاستفادة منهم وهكذا .[٢]

فإن من يأتي قبر نبي أو صالح ، أو يعتقد أنه قبر نبي أو صالح – وليس كذلك– ويسأله ويستنجد به فهذا على ثلاث درجات ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية قال :

الأول : أن يسأله حاجته ويطلب منه الفعل ، هذا شرك صريح .

الثاني : أن يطلب منه أن يدعو الله له ، هذا شرك أيضًا .

الثالث : أن يقول : اللهم بجاه فلان عندك أو ببركة فلان أو حرمة فلان عندك افعل بي كذا، هذا من البدع .[٣]

ومما ينبغي التنبه إليه أن هناك فرقاً بين سؤال النبي – صلى الله عليه وسلم– في حياته وحضوره ، وبين مماته ومغيبه ، ولم يكن أحد من الصحابة –رضوان الله عليهم– والسلف يتحرون الدعاء عند قبور الأنبياء ولا يسألونهم ، لا في مغيبهم ، ولا بعد مماتهم .

---

(١) أخرجه البخاري ، في كتاب التيمم ، رقم(٣٣٤) .

(٢) انظر : التمهيد لشرح كتاب التوحيد ، ص(١٢٥–١٢٧) .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ، ابن تيمية : (٢٧/٤٤–٥٠) .


الخاتمة

الخاتمة

في خاتمة هذا البحث أذكر أهم النتائج :

- يعد الغزالي — رحمه الله – من الصوفية ، بل هو من مشايخهم ، ولهذا السبب اختلفت مواقف بعض الناس منه بحسب موقفهم من الصوفية ..

- يدور كتاب إحياء علوم الدين للغزالي حول تزكية النفس ولكنه لم يكن على المنهج الذي كان عليه النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه – رضوان الله عليهم — في بعض مسائله .

- لقد قرر الغزالي في إحياء علوم الدين كثيرًا من البدع الاعتقادية والقولية والعملية ، التي تلقفها أتباع الطرق الصوفية وسائر المبتدعة ، فالكتاب اليوم سند لكثير من البدع المنتشرة في العالم الإسلامي ، مما دعا إليه الغزالي –رحمه الله– وجعله من علوم الدين ، ولا دليل صحيح عليه وهو خلاف هدي السلف الصالح . وبعض هذه البدع قد سُبِق إليها الغزالي ، لكن لمكانة الغزالي العلمية وشهرة كتابه إحياء علوم الدين أثر في التأكيد على هذه البدع وزيادة انتشارها .

- اشتمل كتاب إحياء علوم الدين على بعض التصورات الخاطئة حول عدد من المفاهيم الشرعية ، كمفهوم التوكل ، ومفهوم الزهد ، ومفهوم المحبة .

- كان للغزالي أثر بالغ فيمن جاء بعده ممن اتخذوا التصوف سلمًا لنشر آرائهم وأفكارهم.

- يعتبر الغزالي أول الفقهاء الذين مزجوا بين الشريعة والآراء الصوفية ، وهذا ظاهر في اعتباره الكشف مصدرًا أساسيًا للمعرفة الدينية ، بل وأوجب تأويل النصوص بما يوافق الكشف .

وإني أمتثل عبارة ابن القيم - رحمه الله - حيث قال :
" فيا أيها القارئ له ، والناظر فيه، هذه بضاعة صاحبها المزجاة مسوقة إليك ، وهذا فهمه وعقله معروض عليك ، لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه ، ولك ثمرته وعليه عائدته ، فإن عدم منك حمدًا وشكرًا فلا يعدم منك عذرًا " .


الفهارس العامة

الفهارس العامة

أولاً : فهرس الآيات القرآنية .

ثـــانيًا : فهرس الأحاديث والآثار .

ثـــالثًا : فهرس الأعلام المترجم لها .

رابعًا : فهرس الفرق والطوائف .

خامسًا : فهرس البلدان .

سادسًا : فهرس المصادر والمراجع .

سابــعًا : فهرس الموضوعات .


فهرس


الآيات القرآنية

سورة الفاتحة

سورة البقرة

م	الآية	رقمها	الصفحة
١٤	﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾	١٩٥	١٩٦
١٥	﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾	٢٢٢	٩٣
١٦	﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ... ﴾	٢٧١ — ٢٧٣	١٤٤
١٧	﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾	٢٧٣	١٣٩
١٨	﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾	٢٨٤	٢١٢ ، ٩٨
١٩	﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ ﴾	٢٨٥	٢١٢
٢٠	﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾	٢٨٦	٢١٢

سورة آل عمران

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾	٢٨	٢٢٧
٢	﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ ﴾	٣١	١٩١
٣	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾	١٠٢	٢٣٠
٤	﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا ﴾	١٥٢	١٢٩
٥	﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾	١٧٥	١٢٤
٦	﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾	١٩٠—١٩١	٢٢١
٧	﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾	٢٠٠	١٠٨

سورة النساء

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾	١٨	٢٣٠
٢	﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱلله ... ﴾	٥٩	٦٩
٣	﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ ﴾	١٣٥	١١٧
٤	﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾	١٣٥	١٤٠

سورة المائدة

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾	٤٤	١٢٤
٢	﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾	٥٤	١٩٦
٣	﴿ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ	٥٤	١٩١
٤	﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ..	٩٣	١٥٤
٥	﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾	١١٦	٢٢٧

سورة الأنعام

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾	٥٤	٢٢٧

سورة الأعراف

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾	٢٣	٩٧
٢	﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾	١٣٦	١٠٤
٣	﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾	١٤٣	٩٧
٤	﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ ﴾	١٤٦	١٠٤
٥	﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ﴾	١٥٥–١٥٦	٩٧

سورة التوبة

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ ﴾	١٨	٢٣٩
٢	﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾	٦٠	١٣٩
٣	﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ... ﴾	١٠٣	٦٥
٤	﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ... ﴾	١١١	١٢٩–١٩١

سورة يونس

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا ﴾	٧–٨	١٠٤
٢	﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾	٢٦	١٢٩

سورة هود

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾	١٥-١٦	١٥١
٢	﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ ﴾	٤٧	٩٧
٣	﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾	٨٨	١٦٠-١٦٩
٤	﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾	١٢٣	١٦٠-١٦٩

سورة يوسف

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾	٣	١٠٥
٢	﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾	٣٣	١٠٢
٣	﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ ﴾	٣٩-٤٠	١٠١
٤	﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾	٤٠	١٠١
٥	﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا ﴾	٤١	١٠١
٦	﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾	٤٢	٩٦
٧	﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾	٤٢	٩٦
٨	﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴾	٤٥	١٠٠-١٠١
٩	﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾	٥٥	١٠٢
١٠	﴿ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ ﴾	٦٧	١٠١
١١	﴿ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾	٦٧	١٠١

سورة إبراهيم

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾	٤١	٩٧

سورة الحجر

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ ﴾	٩	٢٤٠

سورة النحل

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾	٨٩	٦٩
٢	﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ ﴾	١٢٧	١٠٨

سورة الإسراء

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا ﴾	١٨	١٥٠
٢	﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ... ﴾	٧٥	١٢٥-١٢٨

سورة الكهف

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾	١١٠	١٢٥

سورة طه

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾	٤١	٢٢٧
٢	﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾	٨٢	٩٣

سورة الحج

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾	٧٨	٧١

سورة المؤمنون

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾	٥١	١٥٤

سورة النور

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾	٢٣	١٠٥
٢	﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾	٣١	٩٣
٣	﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾	٣٦-٣٨	٢٣٩

سورة الشعراء

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى ﴾	٨٢	٩٧

سورة القصص

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾	١٦	٩٧
٢	﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾	٨٨	٢٢٦–٢٢٧

سورة العنكبوت

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾	٥٧–٥٩	٢٣٠

سورة الروم

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ﴾	٧	١٠٤
٢	﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ... ﴾	١٤–١٥	١٤٤

سورة فاطر

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾	١٥	١٣٦–١٣٩
٢	﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾	٢٨	١٢٤
٣	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾	٢٩–٣٠	١١٠

سورة يس

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم ﴾	٧١	٢٢٧

سورة ص

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾	٢٤-٢٥	٩٧
٢	﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ... ﴾	٢٨	١٤٤
٣	﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾	٣٤	١٠٣
٤	﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾	٣٤	١٠٣
٥	﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾	٣٤	١٠٣
٦	﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا ﴾	٣٥	٩٧
٧	﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾	٧٥	٢٢٧

سورة الزمر

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾	١-٣	١٩٥-٢٠٤
٢	﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾	١٠	١٠٩
٣	﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ ﴾	٥٣	٩٣
٤	﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ ﴾	٦٧	٢٢٧

سورة غافر

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ...﴾	٦٠	١٧٦-١٧٨

سورة فصلت

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾	٣٣-٣٥	١٠٩

سورة الشورى

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾	١١	٢٢٦
٢	﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾	٢٠	١٥٠

سورة الحجرات

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾	١٣	١١٧-١٤٠

سورة الذاريات

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ ﴾	٦٥	١٩٥

سورة الرحمن

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾	٢٧	٢٢٦-٢٢٧

سورة الحديد

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾	٢٠	١٣٤

سورة الحشر

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ ... ﴾	٨	١٣٩-١٤٤
٢	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ... ﴾	١٨	٢١١
٣	﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ... ﴾	٢٠-٢١	٢٢١

سورة الممتحنة

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ... ﴾	٤-٥	١٧٧

سورة التغابن

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾	١٦	٧١

سورة الطلاق

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ...﴾	٢-٣	١٧٩
٢	﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾	٣	١٨٧

سورة التحريم

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾	٨	٩٣

سورة الملك

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾	٢	٧٤
٢	﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ ...﴾	٢١	١٧٧

سورة الجن

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾	١٨	٢٣٩

سورة الإنسان

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ...﴾	٨-٩	١٤٤

سورة الانفطار

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ...﴾	١٣-١٤	٤٩-١٤٤

سورة المطففين

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾	١٤	٩٤
٢	﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ...﴾	١٥-١٦	١٢٩

سورة الشمس

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ... ﴾	٩-١٠	٦٥

سورة الليل

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ...﴾	١٧-٢١	١٤٤

سورة البينة

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾	٥	٢٠٤

سورة التكاثر

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾	٨	١٥٥

سورة العصر

م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾	١-٣	١٠٩

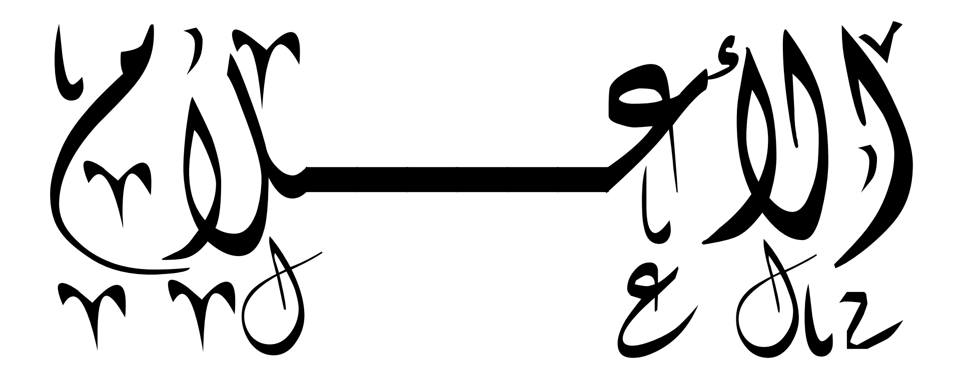
سورة الإخلاص

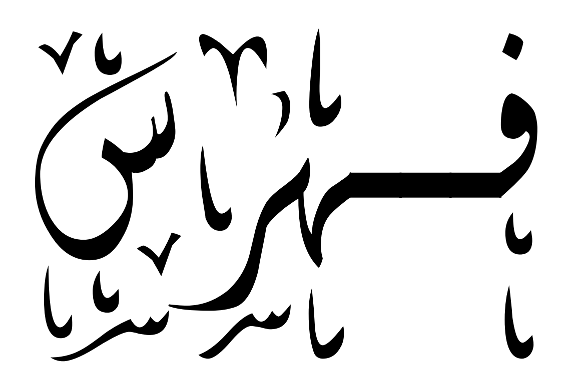
م	الآية	رقمها	الصفحة
١	﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾	١	١٨٤

فهرس

الأحاديث والآثار


فهرس


الأعلام

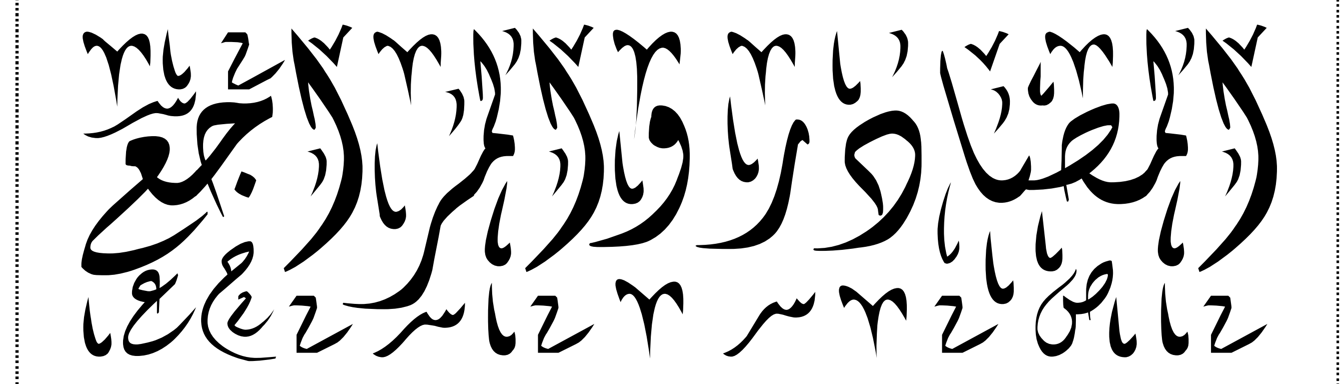

فهرس


الفرق والطوائف


فهرس


البلدان


فهرس


المصادر والمراجع

- إتحاف السادة المتقين ، محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى ، دار الفكر .
- آثار البلاد وأخبار العباد ، زكريا بن محمد القزويني ، ١٤٠٤هـ ، دار بيروت - بيروت .
- إحياء علوم الدين ، أبي حامد محمد بن محمد الطوسي الشافعي الغزالي ، تحقيق : د. عبد المعطي أمين قلعجي ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٤م ، دار صادر — بيروت .
- إحياء علوم الدين في ميزان العلماء والمؤرخين ، علي حسن علي عبد الحميد ، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ، مكتبة ابن الجوزي - الأحساء .
- الإخلاص "حقيقته ونواقضه" ، عبد الله الأحمدي ، رسالة ماجستير ، ١٤٢٣هـ - ١٤٢٤هـ ، جامعة أم القرى - مكة المكرمة .
- الأخلاق عند الغزالي ، زكي مبارك ، دار الكتاب العربي - القاهرة .
- الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ، الملا علي القاري ، تحقيق: محمد لطفي الصباغ ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ ، المكتب الإسلامي - بيروت .
- أسماء الله الحسنى ، عبد الله الغصن ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، دار الوطن - الرياض.
- أصول الدين عند أبي حامد الغزالي ، أحمد بن عوض الله الحربي ، رسالة دكتوراه ، ١٤١٩هـ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية — الرياض .
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين الشنقيطي ، ١٣٨٦هـ، مطبعة المدني .
- الأعلام ، خير الدين الزركلي ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٩م، دار العلم للملايين- بيروت.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، ابن القيم ، دار المعرفة-بيروت .
- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ، تحقيق : د. ناصر بن عبد الكريم العقل ، الطبعة السابعة ، ١٤١٩هـ ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد — المملكة العربية السعودية .
- الإمام الغزالي ، صالح أحمد الشامي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ ، دار القلم - دمشق.
- الإمام الغزالي "بحوث ومقالات بأقلام نخبة من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة" ، ١٤٠٦هـ ، جامعة قطر .

- الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ، د. يوسف القرضاوي ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ ، مكتبة وهبة – القاهرة .

- الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المائة الخامسة ، صالح أحمد الشامي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ ، دار القلم – دمشق .

- الإمام الغزالي وأثره على علم الكلام والفلسفة ، محمود أحمد خفاجي، رسالة دكتوراه .

- الأمر بالإتباع والنهي عن الابتداع ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق: مشهور حسن سلمان ، الطبعة الثانية ، ١٤١٦هـ ، دار ابن القيم – الدمام .

- الإملاء في إشكالات الإحياء ، أبو حامد الغزالي ، ملحق مع إحياء علوم الدين ، تصحيح : عبد المعطي قلعجي ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٤م ، دار صادر بيروت .

- البداية والنهاية ، أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ ، دار الكتب العالمية – بيروت .

- بغية المرتاد ، ابن تيمية ، تحقيق: موسى الدرويش ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٥هـ ، مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة .

- بيان فضل علم السلف على علم الخلف ، الحافظ ابن رجب الحنبلي ، تحقيق : محمد ناصر العجمي ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٢هـ ، دار الصميعي–الرياض

- تاج العروس ، محمد مرتضى الزبيدي ، تحقيق: علي شيري ، ١٤١٤هـ، دار الفكر – بيروت .

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق : د. عمر عبد السلام تدمري ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ، دار الكتاب العربي .

- تاريخ الشعوب الإسلامية ، كارل بروكلمان ، نقله إلى العربية : نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكي ، الطبعة الخامسة ، ١٩٦٨م ، دار العلم للملايين – بيروت .

- تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، دار الكتاب العلمية – بيروت .

- تاريخ دمشق ، ابن عساكر ، مكتبة الدار – المدينة المنورة .

– تاريخ دولة آل سلجوق ، عماد الدين محمد بن محمد الأصفهاني ، اختصار: الفتح بن علـي البنداري الأصفهاني ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧م ، دار الآفاق الجديدة — بيروت .

– تاريخ الفلسفة العربية ، د. جميل صليبا .

– تأويل مختلف الحديث ، الإمام أبو محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، صححه وضـبطه : محمد زهري النجار ، ١٣٩٣هـ ، دار الجيل – بيروت .

– تبيين كذب المفتري ، ابن عساكر ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ ، دار الفكر – دمشق .

– تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، صفي الدين المباركفوري ، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف ، دار الفكر – بيروت .

– التخويف من النار والتعريف بمجال دار البوار ، ابن رجب ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ ، دار الكتب العلمية–بيروت .

– تزكية النفس ، ابن تيمية ، ص(٣٧–٣٨)،دراسة وتحقيق:محمد سعيد القحطـاني ، الطبعـة الأولى ، ١٤١٥هـ ، دار السلام – الرياض .

– تشييد الأركان في ليس في الإمكان أبدع مما كان ، جلال الدين السيوطي ، بذيل إحياء علوم الدين ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٤م ، دار صادر – بيروت .

– التصوف في ميزان البحث والتحقيق ، عبد القادر بن حبيب الله سـندي ، الطبعـة الأولى ، ١٤١٠هـ ، مكتبة ابن القيم — المدينة المنورة .

– تفسير القرآن العظيم ، للإمام أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ، دار الفكر – بيروت .

– تفسير الطبري ، الطبري ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ، دار الكتب العلمية – بيروت .

– تفسير القرآن الكريم ، الشيخ محمد صالح العثيمين ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ ، دار ابـن الجوزي – الدمام .

– تلبيس إبليس ، الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي ، دار القلم — بيروت .

– التمهيد لشرح كتاب التوحيد ، صالح آل الشيخ ، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، دار التوحيد – الرياض .

- تنـــزيه الشريعة المرفوعة ، أبو الحسن علي بن محمد بن العراق الكناني ، تحقيـــق : عبـــد الله محمد الغماري ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١م ، دار الكتب العلمية — بيروت .

- التوكل على الله (حقيقته – مترلته وفضله – خصائصه وثمراته) ، د. سالم بن محمد القرني ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـــ ، دار المجتمع – جدة .

- التوكل على الله تعالى وعلاقته بالأسباب ، د. عبد الله بن عمر الدميجي ، الطبعة الثانيـــة ، ١٣٢١هـــ ، دار الوطن – الرياض .

- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، سليمان بن عبد الله بـــن محمـــد بـــن عبـــد الوهـــاب ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٨هـــ ، المكتب الإسلامي – بيروت .

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تحقيق : عبـــد الرحمن بن معلا اللويحق ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـــ ، مؤسسة الرسالة — لبنان .

- جامع الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ، ١٤٢٠هـــ ، بيت الأفكار الدولية – الرياض .

- جامع العلوم والحكم ، ابن رجب زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بـــن شـــهاب الـــدين ، تحقيـــق : شعيب الأرنؤوط ، وإبراهيم باجس ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٢هـــ ، مؤسسة الرسالة– بيروت .

- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ابن القيم الجوزية ، تحقيق : أبو حذيفة عبـــد الله بن عالية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـــ ، دار الكتاب العربي – بيروت .

- الحجة في بيان المحجة ، قوام السنة إسماعيل الأصفهاني ، تحقيق : محمد أبو رحـــيم ، الطبعـــة الأولى ، ١٤١١هـــ ، دار الراية .

- الحركات الباطنية في العالم الإسلامي "عقائدها وحكم الإسلام فيها" ، د. دكتور محمد أحمد الخطيب ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـــ ، دار عالم الكتب – الرياض .

- الحقيقة في نظر الغزالي ، د. سليمان دنيا ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٥هـــ، دار المعارف — مصر.

- الحياة العلمية في العراق خلال العصر البويهي ، د. رشاد بن عباس معتوق ، ١٤١٨هـــــ ، جامعة أم القرى — مكة المكرمة .

- الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، د. مريزن سعيد عسيري ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ، مكتبة الطالب الجامعي- مكة المكرمة .
- درء تعارض العقل والنقل ، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي ، تحقيق : د. محمد رشاد سالم ، ١٣٩٩هـ ، الرياض .
- دراسات في التصوف ، إحسان إلهي ظهير ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٩هـ ، دار ابن حزم - القاهرة .
- دراسات في الفرق ، صابر طعيمة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ ، مكتبة المعارف - الرياض .
- دراسات في تاريخ الفلسفة العربية ، د. كامل حمود ، دار الفكر اللبناني - بيروت .
- الدر المنثور ، السيوطي ، ١٤٠٣هـ ، دار الفكر - بيروت .
- دمشق أيام الغزالي ، خالد معاذ ، ضمن مهرجان الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، ١٩٦١م ، دمشق .
- الرد على المنطقيين ، تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني ، تحقيق : د. رفيق العجم ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م ، دار الفكر اللبناني — بيروت .
- الرسالة اللدنية ، أبو حامد الغزالي ، (ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي) ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- الرعاية لحقوق الله عز وجل ، الحارثي المحاسبي ، تحقيق: عبد الحليم محمود ، وطه سرور ، دار الكتب الحديثة — القاهرة .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، محمود الألوسي البغدادي ، تصحيح : علي عبدالباري عطية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، ابن القيم الجوزية ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ ، المكتبة العصرية - بيروت .
- زاد المعاد في هدي خير العباد ، شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن قيم الجوزية ، تحقيق : شعيب ، وعبد القادر الأرنؤوط ، الطبعة الخامسة والعشرون ، ١٤١٢هـ ، مؤسسة الرسالة - بيروت .

– زبدة التواريخ "أخبار الأمراء والملوك السلجوقية" ، صدر الدين أبو الحسن علي بـــن ناصـــر الحسيني ، تحقيق: د. محمد نور الدين ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـــ ، دار اقرأ — بيروت .
– الزهد ، عبد الله بن المبارك ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي ، دار الباز – مكة .
– سلاجقة إيران والعراق ، د. عبد النعيم محمد حسنين ، الطبعة الثانيـــة ، ١٣٨٠م ، مكتبـــة النهضة المصرية — القاهرة .
– السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ، تامارا تالبوت رايس ، ترجمة: لطفي الخـــوري ، وإبـــراهيم الداقوقي ، ١٩٦٨م ، مكتبة الإرشاد — بغداد .
– السلاجقة في التاريخ والحضارة ، د. أحمد كمال الدين حلمي ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٥هـــ ، دار البحوث العلمية — الكويت .
– سنن ابن ماجه ، أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني ، ١٤٢٠هـــ ، بيت الأفكـــار الدولية — الرياض .
– سنن أبي داود ، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، ١٤٢٠هـــ ، بيـــت الأفكـــار الدولية — الرياض .
– سياسة نامة ، نظام الملك الطوسي ، ترجمة: د. يوسف حسين بكـــار ، الطبعـــة الثانيـــة ، ١٤٠٧هـــ ، دار الثقافة — الدوحة .
– سير أعلام النبلاء ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق : خيري ســـعيد ، المكتبة التوفيقية – مصر .
– سير أعلام النبلاء ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثامنة ، ١٤١٢هـــ ، مؤسسة الرسالة – بيروت .
– شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي ، المكتب التجاري- بيروت.
– شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، هبة الله اللا لكائي ، تحقيق : أحمد سعد بن حمدان الغامدي ، الطبعة الثامنة ، ١٤٢٣هـــ ، دار طيبة – الرياض .
– شرح العقيدة الأصفهانية ، ابن تيمية ، تحقيق : سعيد بـــن نصـــر بـــن محمـــد ، الطبعـــة الأولى،١٤٢٢هـــ، مكتبة الرشد–الرياض .

– شرح العقيدة الطحاوية ، تحقيق : جماعة من العلماء ، الطبعة الثامنة ، ١٤٠٤هـ ، المكتب الإسلامي – بيروت .

– شرح العقيدة الواسطية ، لابن تيمية ، تأليف صالح الفوزان ، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ ، دار الفيحاء–دمشق ، دار السلام–الرياض .

– صحيح ابن حبان ، ترتيب: علاء الدين الفارسي ، تحقيق: كمال يوسف الحوت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ، دار الكتب العلمية – بيروت .

– صحيح البخاري ، الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري ، ١٤١٩هـ ، بيت الأفكار الدولية – الرياض .

– صحيح مسلم ، الإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، ١٤١٩هـ ، بيت الأفكار الدولية – الرياض .

– الصفدية ، ابن تيمية ، تحقيق: د. محمد رشاد سالم ، ١٣٩٦هـ ، الرياض .

– صيد الخاطر ، الإمام ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ، تحقيق : عامر بن علي ياسين ، الطبعة الثانية ، ١٤١٩هـ ، دار ابن خزيمة – الرياض .

– طبقات الحنابلة ، القاضي أبو يعلى، تحقيق: محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية – القاهرة .

– طبقات الشافعية ، جمال الدين الأسنوي ، تحقيق : كمال يوسف الحوت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ، دار الكتب العلمية – بيروت .

– طبقات الشافعية ، جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي ، تحقيق: عبد الله الجبوري ، الطبعة الأولى ، ١٣٩١هـ ، مطبعة الإرشاد – بغداد .

– طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين السبكي ، تحقيق : مصطفى عبد القادر أحمد عطا ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ، دار الكتب العلمية – بيروت .

– طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب ابن تقي الدين السبكي ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة – بيروت .

- طبقات الصوفية ، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي ، تحقيق: مصطفى عبد القـــادر عطا ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـــ ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- الطبقات العلية في مناقب الشافعية ، محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الواسطي ، تحقيق: عبد الأمير الأعسم ، ملحق ضمن : الفيلسوف الغزالي للأعسم ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١م ، دار الأندلس - بيروت .
- الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد ، دراسة وتحقيق : محمد عبدالقادر عطا ، الطبعـــة الأولى ، ١٤١٠هـــ ، دار الكتب العلمية-بيروت .
- الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد ، دار صادر - بيروت .
- طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ابن القيم الجوزية ، تحقيق : يوسف علي بديوي ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٠هـــ ، دار ابن كثير - بيروت .
- ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ، سفر عبد الرحمن الحوالي ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى — مكة .
- العبر في خبر من غبر ، الحافظ الذهبي ، محمد السعيد بن بســيوني زغلــول ، دار الكتــب العلمية - بيروت .
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن الجوزية ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٧هـــ ، دار ابن كثير — دمشق .
- عصر الإمام الغزالي ، مصطفى جواد مغنيـــة ، ضـــمن : مهرجـــان الغـــزالي في دمشـــق ، ١٣٨٠هـــ ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية - دمشق .
- العقيدة الطحاوية ، الإمام أبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي ، (سلسلة متون طالب العلم) ، مراجعة: أحمد بن صالح الطويان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـــ ، دار طويق - الرياض .
- الغزالي ، أحمد فريد رفاعي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي - مصر .
- الغزالي والمغرب ، محمد المنتصر الكتاني : ص٧٠١ ضمن مهرجـــان الغـــزالي في دمشـــق ، ١٩٦١م ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

– فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، قرأ أصله تصحيحًا وتحقيقًا وأشرف على مقابلة نسخه المطبوعة والمخطوطة : عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، ١٣٧٩هـ ، دار الفكر .

– الفَرق بين الفِرق ، الإمام عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢١هـ ، دار المعرفة – بيروت .

– فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها ، غالب عواجي ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٢هـ ، المكتبة العصرية الذهبية-جدة .

– الفصل في الملل والأهواء والنحل ، الإمام أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، الطبعة الثانية ، ١٤٢٠هـ ، دار الكتب العلمية – بيروت .

– الفيلسوف الغزالي ، عبد الأمير الأعسم ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١م ، دار الأندلس – بيروت .

– قاعدة في الرد على الغزالي في التوكل ضمن مجموع فيه رسائل وقواعد ، لابن تيمية ، ص٣٤٤ ، جمع وتحقيق : علي بن عبدالعزيز الشبل ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٦هـ ، مكتبة الرشد-الرياض .

– قانون التأويل ، للإمام الغزالي ، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ، دار الكتب العلمية- بيروت .

– قوت القلوب في معاملة المحبوب ، أبو طالب المكي محمد بن علي بن عطية ، تحقيق : د. محمود إبراهيم محمد الرضواني ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ ، مكتبة دار التراث – القاهرة .

– القول المفيد على كتاب التوحيد ، الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٣هـ ، دار ابن الجوزي – المملكة العربية السعودية .

– الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، تحقيق: إحسان عباس ، ١٣٨٥هـ ، دار صادر – بيروت .

– كتاب التعريفات ، علي بن محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، الطبعة الرابعة ، ١٤١٨هـ ، دار الكتاب العربي – بيروت .

– كشف الخفا ، العجلوني ، تحقيق: أحمد القلاش ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٥هـ ، مؤسسة الرسالة – بيروت .

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، مصطفى بن عبد الله القسطنطني الحنفي والمعروف بحاجي خليفة ، ١٤٠٢هـ ، دار الفكر - بيروت .
- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية-بيروت
- لسان العرب ، العلامة ابن منظور ، ١٤٢٣هـ ، دار الحديث - القاهرة .
- مؤلفات الغزالي ، د. عبد الرحمن بدوي ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧م ، وكالة المطبوعات - الكويت .
- ما للغزالي وما عليه في القول المنسوب إليه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، حسن عبد اللطيف الفيومي ، الإسكندرية .
- مجموعة الفتاوى لابن تيمية ، تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني ، اعتنى بها وخرج أحاديثها: عامر الجزار ، وأنور الباز ، الطبعة الثانية ،١٤٢٢هـ، دار الوفاء — المنصورة .
- مجموع فيه رسائل وقواعد لشيخ الإسلام ابن تيمية (قاعدة في الرد على الغزالي في التوكل)، تحقيق : علي بن عبد العزيز بن علي الشبل ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٦هـ ، مكتبة الرشد - الرياض .
- مدارج السالكين ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية ، تحقيق : عبد العزيز ناصر الجليل ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ ، دار طيبة — الرياض .
- المستدرك على الصحيحين ، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية - بيروت .
- المستصفى في علم الأصول ، الإمام الغزالي ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٢هـ ، المطبعة الأميرية - بيروت .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، وعادل مرشد ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ ، مؤسسة الرسالة — بيروت .
- مصادر التلقي عند الصوفية ، هارون بن بشير صديقي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، دار الراية - الرياض .

- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ، أحمد بن أبي بكر أبو العباس الكناني البوصيري ، تحقيق : محمد الكشناوي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ ، دار العربية – بيروت .
- معالم في السلوك وتزكية النفوس ، د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤هـ ، مدار الوطن – الرياض .
- المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها ، د. عواد عبد الله المعتق ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢١هـ ، مكتبة الرشد – الرياض .
- معجم البلدان ، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ، ١٣٩٧هـ ، دار صادر – بيروت .
- معجم المؤلفين ، عمر علي كحاله ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .
- المعجم الوسيط ، أخرجه : إبراهيم مصطفى ، وأحمد حسن الزيات ، وآخرون ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٢هـ ، المكتبة الإسلامية – تركيا .
- معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ، دار الكتب العالمية – بيروت .
- المعرفة في الإسلام " مصادرها ومجالاتها " ، د. عبد الله بن محمد القرني ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ ، دار عالم الفوائد – مكة المكرمة .
- المعلم بفوائد مسلم ، أبو عبدالله محمد المازري ، تحقيق : محمد النيفر ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٢م ، دار الغرب الإسلامي– بيروت .
- المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار ، زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي ، بذيل إحياء علوم الدين ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٤م ، دار صادر – بيروت .
- مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني ، تحقيق : صفوان عدنان داوودي ، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ، دار القلم–دمشق .
- مقارنة بين الغزالي وابن تيمية ، د. محمد رشاد سالم ، ١٤٠٠هـ ، دار القلم – الكويت .
- المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، أبو حامد الغزالي ، تحقيق: فضل شحادة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ، الجفان والجابي – قبرص .

- مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب ، أبو حامد الغزالي ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ ، المكتبة العصرية - بيروت .

- الملل والنحل ، أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق: أمير علي مهنا ، وعلي حسن فاعود ، الطبعة السابعة ، ١٤١٩هـ ، دار المعرفة - بيروت .

- مناهج الأدلة ، ابن رشد ، تحقيق : محمود قاسم ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٩م ، مكتبة الأنجلو - القاهرة .

- المنتخب من السياق لتاريخ سينابور ، أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي ، تحقيق : محمد أحمد عبد العزيز ، دار الكتب العالمية — بيروت .

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، ومصطفى عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ، دار الكتب العالمية — بيروت .

- المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال ، الإمام أبي حامد الغزالي ، تحقيق : د. سميح دغيم ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣هـ ، دار الفكر اللبناني — بيروت .

- منهج الإسلام في تزكية النفس ، د. أنس كرزون ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٨هـ ، دار ابن حزم - بيروت .

- منهاج البحث عند الغزالي ، د. عادل زعبوب ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ ، مؤسسة الرسالة - بيروت .

- منهاج السنة النبوية ، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي ، تحقيق: د: محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ .

- منهج الأنبياء في تزكية النفوس ، سليم عبد القادر الهلالي ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ ، دار ابن عفان - مصر .

- الموافقات ، الشاطبي ، تعليق : عبد الله دراز ، دار المعرفة - بيروت .

- الموافقات في أصول الشريعة ، الشاطبي ، تصحيح : عبد الله دراز ، المكتبة التجارية الكبرى- مصر .

– موسوعة مصطلحات الإمام الغزالي ، د. رفيق العجم ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م ، مكتبة لبنان – بيروت .

– الموضوعات ، ابن الجوزي ، عبد الرحمن عثمان ، الطبعة الأولى ، ١٤٨٦هـ ، الكتبة السلفية – المدينة المنورة .

– الموطأ ، الإمام مالك ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، الحلبي – القاهرة .

– موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ، أحمد محمد بناني ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢٦هـ ، دار طيبة – مكة .

– ميزان العمل ، الإمام الغزالي ، تحقيق:سليمان دنيا، الطبعة الأولى ، ١٩٦٤م ، دار المعارف – مصر .

– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي ، ١٣٨٣هـ ، المؤسسة المصرية العامة – مصر .

– نظام الوزارة في الدولة العباسية ، د. محمد مسفر الزهراني ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠هـ ، مؤسسة الرسالة – بيروت .

– نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ، د. محمد بن مسفر بن حسين الزهراني ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ ، مؤسسة الرسالة – بيروت .

– نقض المنطق ، ابن تيمية ، تصحيح : محمد حامد الفقي ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٠هـ ، مطبعة السنة المحمدية – القاهرة .

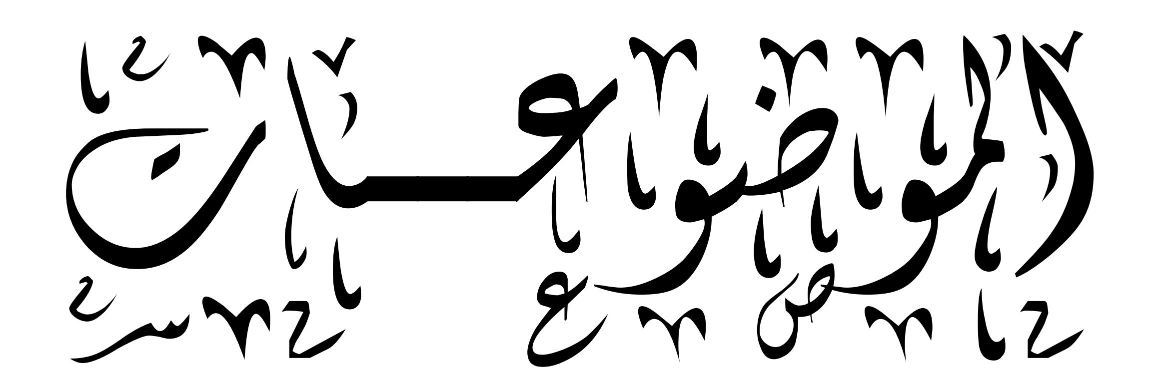
– النهاية في غريب الحديث والأثر ، ابن الأثير ، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ، تحقيق : طاهر الزاوي ، ومحمود الطناحي ، ١٣٨٣هـ ، المكتبة الإسلامية .

– الوافي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، الطبعة الثانية ، ١٣٨١هـ ، فرانز شتايز – فيسباون .

– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، شمس الدين أحمد بن خلكان ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار الثقافة – بيروت .

- وقفات إيمانية مع قول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [فاطر : ١٥]، وفاء علي السلمان الحمدان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٧هـ ، المكتب التعاوني للدعوة - جدة .


فهرس


الموضوعات

الموضوع **الصفحة**